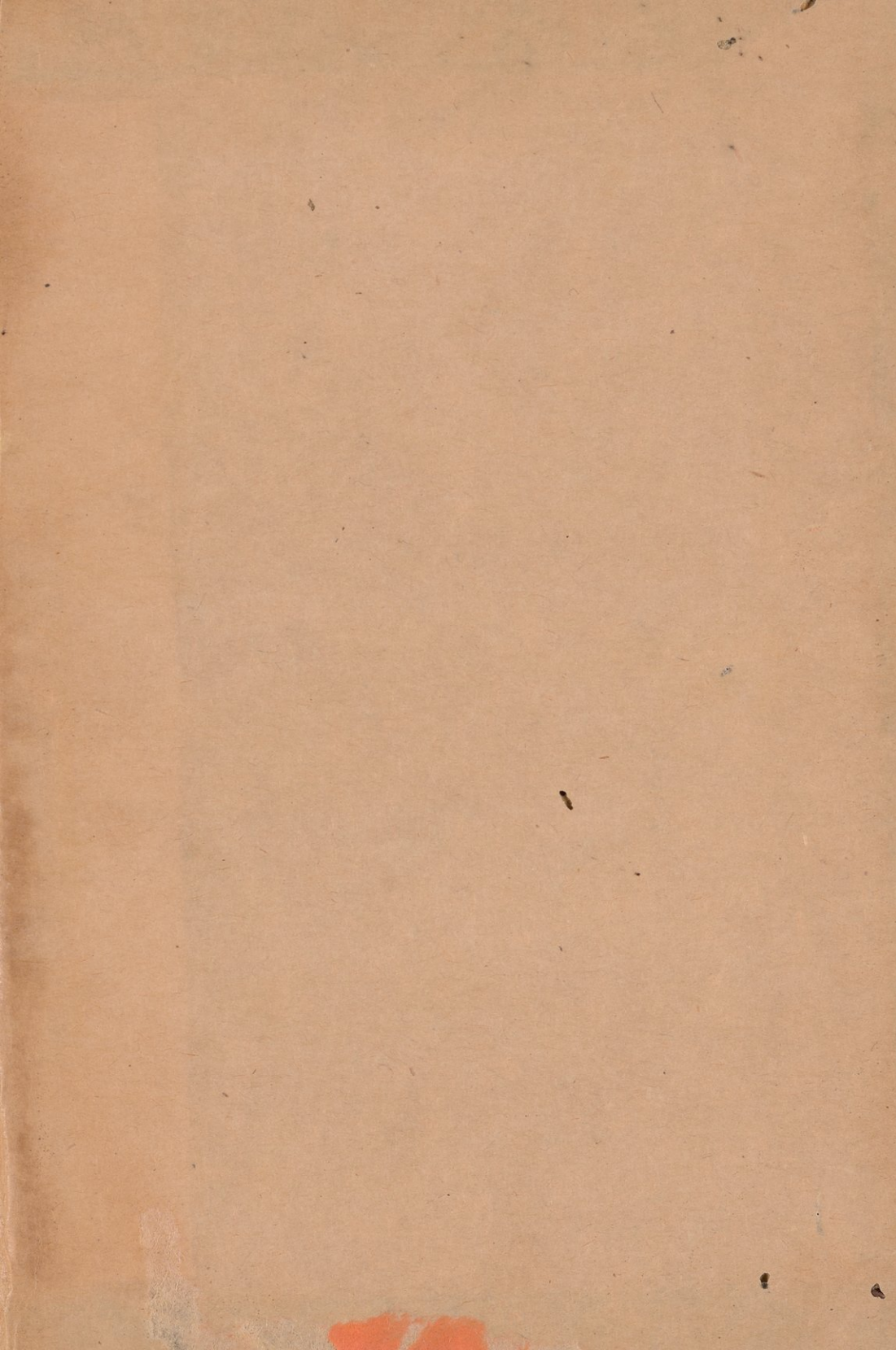




891.553:k45hA

C.2

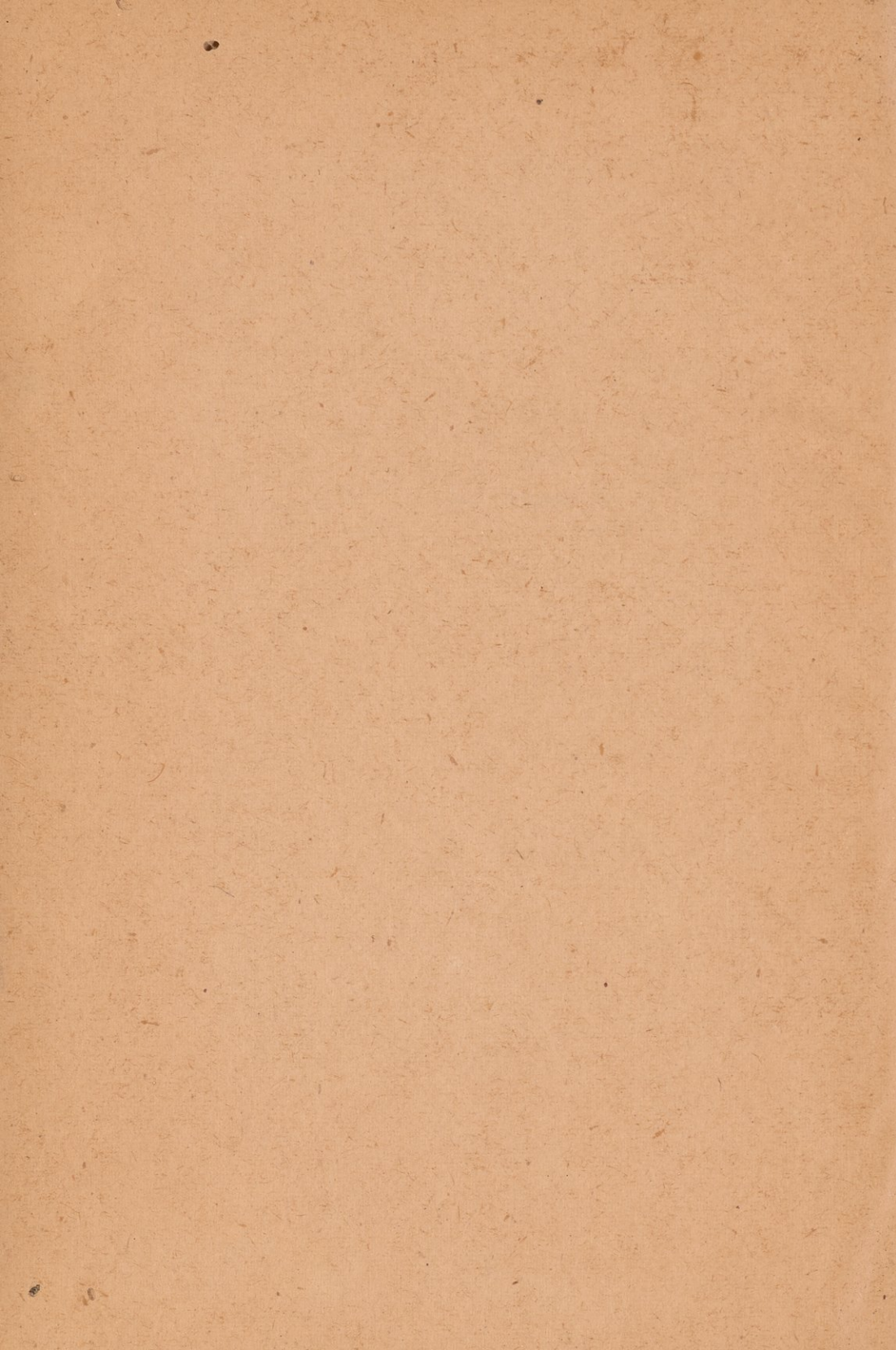
الخشب ، يحيى ، متر .

حكايات فارسية .

891.553

K45hA

C.2





حکایات فارسیه



يحيى الخشاب

891.553

K45hA

C.2

حكايات فارسية



٧٦٩٩٦

دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . نوفمبر ١٩٤٥



١٩٤٥

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري ١٩٤٥

بسم الرحمن الرحيم

يمثل الأدب الفارسي من القصة فنوناً أربعة ، أولها قصص الملوك الذي يدور حول ما يجب للملك من رعيته وما يجب عليه نحوها ، والثاني قصص هدفه العبرة والعظة ، والثالث قصص يرمى إلى الإيحاء والرمز في تصوير أحداث التاريخ التي تحول الظروف دون تصويرها في صراحة وجلاء ، والرابع قصص تاريخي يقصد به إذكاء الروح الوطني في سامعيه فتختلط فيه حقائق التاريخ بالخرافات وفقاً لما يريد المؤلف من تأثير في سامعيه .

ولقد اخترنا في هذه المجموعة التي نخرجها لقراء العربية جملة من القصص في كل من هذه الفنون ، أردنا أن نخرج منها بصورة عامة عن فن القصة في الأدب الفارسي . ولما كان لكل من هذه الفنون كتب في الفارسية تمثله فقد رجعنا إلى أشهرها في كل باب ، واخترنا منه ما رأيناه يلائم الذوق العربي أكثر من غيره ، وآثرنا أن نذيل كل قصة بذكر الكتاب الذي أخذت عنه ليعود إلى الأصل من شاء ، أما القصص المشهورة التي يعرفها كل ذي إلمام بالأدب الفارسي فقد رجعنا فيها إلى أكثر من مصدر لتعدد ذكرها وكثرته لناخذ من كل هذا صورة عامة للقصة نخرجها عليها .

وليست هذه القصص ترجمة في الواقع ، فنحن لم نتقيد بالنص الفارسي

ذلك التقيد الدقيق الذي تفرضه أمانة الترجمة اللفظية ، لانا آثرنا أن نخرج
هذه القصص إلى الأمة العربية أقرب ما يكون إلى نفوس أهلها .
وإنا لنعترف أن ما قدمنا ليس إلا محاولة نرجو أن نكون قد وفقنا فيها
في نقل هذا الأدب إلى اللغة العربية ، محاولة لم نرد بها أكثر من إحياء ذلك
العهد الذي طواه الزمن ، عهد اتصال الفرس بالعرب اتصالاً قريباً وثيقاً ،
أيام كان العرب يعنون بنقل آثار الفرس إلى لغتهم ويحرصون على ذلك حرصاً
شديداً تمليه عليهم نهضتهم العظيمة ليفيدوا من هذا الأدب القديم الغنى كل
ما يمكن أن يفيدوه ، وأيام كان الفرس ينقلون عن العرب كل ما يمكن أن
يحيي أمتهم وأن يرد إليها مجدها القديم .

فهرست

صفحة	صفحة
٨٣ — ٢٣ — الأمير القصير	١ — ١ — مزدك
٨٤ — ٢٤ — سلمان الفارسي	١٥ — ٢ — العجوز والرجلان
٨٥ — ٢٥ — الأصل الوضع	١٦ — ٣ — الملك الساهر
٨٧ — ٢٦ — بزرجمهر والحكماء	٢٢ — ٤ — الحجاج والدرويش
٨٨ — ٢٧ — في عدل الملوك وسيرتهم	٢٣ — ٥ — المرأة
٩٢ — ٢٨ — أعياد الفرس	٢٩ — ٦ — لص في بيت درويش
٩٦ — ٢٩ — أخوان	٣٠ — ٧ — جعفر البرمكي
٩٨ — ٣٠ — الملك الظالم والدهقان	٣٤ — ٨ — النصيح الأثيم
٩٩ — ٣١ — الصوت المنكر	٣٥ — ٩ — المعتصم والحياط والمملوك
١٠٠ — ٣٢ — القط والفأر	٤١ — ١٠ — العجوز والوالى وأنوشروان
١٠٥ — ٣٣ — أنوشروان العادل	٤٨ — ١١ — الملك والقروى
١١٠ — ٣٤ — القرد الحكيم	٤٩ — ١٢ — أسد الدولة وقاضى نيسابور
١١١ — ٣٥ — سر	٥٤ — ١٣ — السلطان محمود وقطاع الطريق
١١٩ — ٣٦ — الدرويش والقاضى	٥٧ — ١٤ — لقمان وحكمته
١٢٠ — ٣٧ — الخوف والحب	٥٨ — ١٥ — السلطان محمود والقاضى والرفاء
١٢٣ — ٣٨ — المال	٦٢ — ١٦ — الحمد
١٢٤ — ٣٩ — المتنبي	٦٣ — ١٧ — رقيق أصبح ملكا
١٢٦ — ٤٠ — في ساحة الله	٧٥ — ١٨ — شيخ الطريقة
١٢٧ — ٤١ — ضيف ابراهيم	٧٦ — ١٩ — السلطان محمود والألقاب
١٣٠ — ٤٢ — دولة الظلم	٨٠ — ٢٠ — الملك والسائل
١٣١ — ٤٢ — دولة الظلم	٨١ — ٢١ — يوم القيامة والعمل الصالح
	٨٢ — ٢٢ — المريض والبيطار

صفحة	صفحة
١٥٤ زال	٤٣ — الرازي والأمير المريض ... ١٣٢
١٦١ رسم	٤٤ — آخره ١٣٤
١٦٨ سهراب	٤٥ — دواء الملك المريض ١٣٥
١٧٧ الملك والشجرة	٤٦ — حاتم الطائي والخطاب ١٣٦
١٧٨ الدرويش المتلاف	٤٧ — المناصب ١٣٧
١٨٠ سعدى في بيت النار	٤٨ — الدرويش الملك ١٣٧
١٨٤ وزير	٤٩ — الملك الزاهد ١٣٨
١٨٥ الملك الصالح	٥٠ — قصة العلم الايراني ١٣٩
١٨٧ رقيق في السوق	٥١ — الأسير ١٤٦
١٨٨ الملاك البائس	٥٢ — الملك واللام الرعيد ١٤٧
١٩٠ خصومة	٥٣ — الأمير البقرة والطبيب ١٤٨
١٩٢ الثعلب المتواكل	٥٤ — الرزق الحلال ١٤٩
١٩٣ نصيحة	٥٥ — حيلة ١٥٠
١٩٤ الواقعة	٥٦ — الزاهد والدنيا ١٥٢
	٥٧ — الصياد والسمة ١٥٣



مزدك

قال ملكشاه لوزيره نظام الملك : أسمعت القصة التي يرويها عمر الخيام عن الجماعة التي تقيم في پامير وتدعى الإسلام ولا تعمل به وتقول إن أبا مسلم سيبعث حياً وسيكون وزيره مزدك ؟ قال الوزير : نعم سمعت يا مولاي ، قال السلطان واتخذت للأمر عدته ؟ قال الوزير نعم ، قال ملكشاه تعال إذا للعشاء وحدثنا عن مزدك هذا من يكون . قال نظام الملك :

كان ذلك الرجل أول من نادى بالشيوعية في أخبت معانيها ، وقد كان من كبار رجال الدين الأذكياء ، أيام الملك قباد الساساني ، وقد أبصر الرجل فوجد الشعب الإيراني لا زال يئن من قحط ألم به أيام الملك فيروز ، وطبقة الأثرياء ، من الأشراف ورجال الدين ، تنعم بخيرات إيران وتستأثر بها دون سائر الناس ؛ ثم أبصر قباد فإذا به حائق على الأشراف لأن نفوذهم امتد على الملوك وأصبح لهم على العرش سلطان ، وحائق على رجال الدين أيضاً لأنهم يناصرون الأشراف ويشاركونهم في الجشع الذي لا يعرف حداً ، فهم يؤثرون الدنيا على الدين ويدعون هداية الناس ويحاولون بشتى الطرق أن يزيدوا أملاكهم ويوسعوا امتيازاتهم ؛ وأدرك أن الملك ضعيف القياد ، لين العريكة ، ليس من العسير التغلب عليه .

وكان لمزدك علم بالنجوم وأحكامها ، وقد عرف من كتبها أن نبياً سُرِسل ، فرأى أن يكون هذا النبي ، وأخذ يفكر في طريقة لإثبات نبوته ؛ فأمر خدومه بحفر قناة تبدأ من مكان أخفاه فأحسن إخفائه ، وتمتد إلى حيث النار في المعبد ، بحيث لا يستطيع أحد أن يراها ، ويستطيع تابع له أن يتكلم من الطرف المخفي فيسمع صوته ينبعث من وسط النار كأنها تتكلم . ثم أعلن نبوته وادعى أن يزدان (الإله) قد أرسله ليحدد دين زردشت وليحدد معانيه ويبين أحكامه ، ويهدي الناس إلى الأقتسا والزند (كتابهم المقدس وتفسيره) ، ولم يكن بعثه بين الأنبياء بدعاً ، فمن قبل بعث الله نبياً ليهدي بني إسرائيل إلى أحكام التوراة . .

وبلغت الدعوة الملك قباد فجمع رجال الدين جميعاً ليسمعهم قصة بعث واحد منهم نبياً وليستوضحهم الأمر ، وجاء مزدك وقد انتفخت أوداجه ، فبادره الملك بالسؤال عن نبوته فأكد لها ودعاه إلى طاعته ، قال : فقد بعثنى الله لأقضى على ما بينكم من خلاف في أمر الدين ، فقد رأيتم تختلفون في تفسير أحكام الأقتسا اختلافاً أفسد حكمته ، وأضاع من نفوس الناس هيبتها ، ثم رأيتم تسировون في أمور الدنيا سيراً يتجافى مع أوامر « يزدان » ويتنافى مع حقوق الناس في متاع الدنيا . قال الملك : وما معجزتك ؟ قال مزدك : إني قادر على أن أحمل النار التي هي محرابكم وقبلتكم على الكلام ، وأنا كلم الله أسأله أن يأمر النار لتحديثكم عن رسالتي ولتشهد بصدق نبوتي .

والتفت الملك إلى الموابذة وقال : أفتوني في أمر رجلكم هذا ؛ إنه يدعى النبوة ويبشر بدين جديد . قالوا : إنا قرأنا في كتابنا أن نبياً يبعث فيظهر دينه على سائر الأديان ، وإنا سمعنا من مزدك أنه بعث ليحدد دين زردشت ، فهو لا يحارب ديننا ، ولا يدعو لإله غير إلهنا ، ثم إنه يقول إنه قد أتى بتفسير

للاقتسا يضع للجدال فيها حداً وهذا أمر كلنا راغب فيه ، ثم هو يقول : إنه قادر على أن يحمل النار على الكلام ، وليس هذا في طاقة البشر ، إلا أن يكون رسولاً نبياً ، وإنا وقد دعانا الملك لنسمع مزدك ودعوته ، نقوض الأمر ملكنا وندعو له بالتوفيق والسداد .

قال الملك لمزدك : إن أنت أنطقت النار أمامنا صدقنا نبوتك ، وآمنا برسالتك ، وتواعد الجمع على اللقاء في الغد في بيت النار ليروا معجزة النبي الجديد وخرج مزدك فاتصل بأخلص أتباعه إليه وأقربهم منه ، وأمره بأن يذهب إلى حيث فتحة القناة مخبأة ، وأن يجيب حين يسأل مزدك النار « بأن النار التي هي خير عابدي يزدان ، تأمر الناس بأن يطيعوا مزدك ويخلصوا له الدين ليلقوا السعادة في الدنيا ولينعموا بالجنة في الآخرة » .

وجاء الغد فاجتمع الموابذة وعلى رأسهم الملك في بيت النار ، ودخل مزدك فاتخذ مكانه قريباً منها ، فدعى يزدان وأثنى على زردشت ثم سكت ، وإذا بصوت يخرج من وسط النار يدعو الناس إلى طاعة مزدك والدخول في دينه ، فهبت الحاضرون ، والتفت بعضهم إلى بعض يتهامون ، أما قباد فقد آمن بنبوة مزدك ، وأما رجال الدين فمنهم من آمن ومنهم من شك فيما سمع

وزادت مكانة مزدك عند الملك فأعد له كرسيًا من ذهب فوق العرش ، فكان إذا جلس يستمع إلى قضايا الناس جاء مزدك فاتخذ مكانه على كرسية الذي علا الملك . أما الشعب فقد دخل في الدين الجديد أفواجاً ، فقد بدأ مزدك رسالته بالدعوة إلى المساواة بين الناس ، تملقاً لهم ، وهي دعوة تبهر الجماهير وتدعو إلى أن يكونوا جميعاً مع صاحبها ، مهما أخفت من خداع ورياء تحت مظهرها البراق ، وأما رجال الدين فقد خرجوا من بيت النار وهم بين مصدق

ومكذب ، ولكنهم عندما عادوا إلى أنفسهم أنكروا صاحبهم ورسالته ،
ولكنهم آثروا أضعف الإيمان فاكثفوا بما تحدث به قلوبهم ، وأما رجال
الجيش فلم يتحمسوا للدعوة الجديدة ولكنهم ساروا وراء الملك أو وراء
ابنه ، معلنين أنهم على دين ملوكهم .

قال مزدك : إن الثروة ينبغي أن تكون ملكاً للجميع ، لكل نصيب
منها حسب حاجته ، لأن الناس جميعاً أبوهم آدم وأمهم حواء ، ولأن خيرات
إيران أنتجتها أرض إيران التي أنبتتهم جميعاً ، وسقتها سماء إيران التي تظلمهم
جميعاً ، فالعدل أن يكونوا في بلدهم سواسية ، ينعمون بنعيمها فلا ترى فيهم
فقيراً محروماً . . . وزاد هذا النداء في التفاف الناس حوله ومسارعتهم في
قبول دعوته . . . ثم نادى ببدعة جديدة ، الشيوع في النساء ، فدعا الناس إلى
أن تكون النساء شركة بينهم ولا وزن للأنسب ؛ وكان قليل من الناس يملك
مئات من الجوارى وله بضع زوجات ، وكثير من الناس لا يجد وفرة في
الرزق تتمكنه من أن يكون زوجاً لامرأة واحدة ، وإذا فالسواد الأعظم
راغب في المرأة لأنه محروم منها ، فلم يكذب مزدك يعلن هذا الرأي حتى هرع
الناس من الأقاليم لبيعته والعمل بدعوته ، ووضع لهم مزدك نظاماً لهذه
الاباحة ، فإذا استضاف الرجل عشرين رجلاً في بيته فإن عليه أن يقدم زوجته
كما يقدم صنفاً من الطعام ، ثم إن على الضيوف إذا دخل أحدهم غرفتها أن
يضع قلنسوته على بابها حتى لا يطرق الباب عليه طارق . وهكذا التف الناس
حول مزدك ، ونظر العقلاء فإذا الدرجات بين الناس أوشكت على الزوال وإذا
الرابطة بينهم قد قاربت الضياع ، ونظروا فإذا الغوغاء تسود ، وإذا الإشراف
والنبلاء قد أخرجوا من ديارهم وحرمت عليهم أموالهم وأهدرت حرمت
نسائهم وما ملكت أيمانهم .

* * *

وكان للملك ولد اسمه نوشروان ، يقيم بعيداً عن أبيه ، في إقليم فارس ، فلما سمع بما جرى في عاصمة إيران من فساد ، كاد يتميز من الغيظ ، فكتب إلى الموابذة يسألهم أن ينصحوا الملك بالقضاء على مزدك ودعوته ، فإنه قد أضاع الثروات واستباح النساء ومكن للغوغاء ، ثم حثهم على مجادلة مزدك وإظهار فسقه . وكتب إلى النبلاء محدثاً عما جرى من موافقة أبيه لهذا الفاسق ، مؤكداً أن أباه لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز الخبيث من الطيب ، ونصحهم بأن يجمعوا أمرهم طراً وأن يطلبوا منه التخلص من مزدك ومحو آثاره ، فإنه كاد يقضى على الدولة والدين معاً ، وقرن نوشروان الوعد في كتابه بالوعيد ، فذكرهم بأن لا يتهجوا نهج أبيه ، فإنه مخدوع بدعوة فاسق ودعوة الفسق وإن أفلحت ساعة فإنها إلى الزوال تسير ، وأكدهم أن الغد للخير وله ، وأن الغد لناظره قريب . وتأثر كثير من النبلاء بقول الأمير الشاب ، وعاد إلى صوابه من حديثه نفسه منهم بقبول دعوة مزدك ، وتراصوا وتواصوا وبعثوا إليه قائلين « إنا معك » .

واجتمع النبلاء والموابذة وقابلوا الملك وقالوا له : إنا قرأنا في كتبنا ونظرنا في علومنا ، منذ آدم حتى زردشت ، فما وجدنا نبياً دعى دعوة مزدك ، هذه الدعوة التي أودت بالبلاد وبالعباد ، وإنا ننصح للملك أن لا يمكن له ، وأن يعمل على إبعاده عنه ، فأمر الملك بعقد مجمع ديني ، وسأل مزدك عن رأيه في قولهم ، فقال : إني رسول يزدان ، بعثني لإحياء دين زردشت ولأجدد فيه بإدخال المبدئين اللذين ناديت بهما واللذين صادفا من الملك قبولا ، فإن كذبتموني فسلوا النار تحبكم عما لا تفقهون ، ثم سأل مزدك النار ، فإذا هي

تجيب أمرة الناس بطاعته والانقياد له ؛ فأسقط في أيديهم وخرجوا مرة أخرى وهم في حيرة مما سمعوا ، أما قباد فزاد بمزدك إيماناً .

وعلم مزدك أن نوشروان الأمير لم يدخل في دينه فنصح للملك أن يحمل ولى عهده على الهداية فليس من الخير أن يبقى في ضلالة وليس من الأدب أن يخالف أباه ؛ وكان الملك مشفقاً حقاً على ولده لأنه لم يؤمن برسالة مزدك ، فناداه ونصح له ، بالعنف حيناً وباللين أحياناً ، فلم يظفر منه بشيء ، فلما أخذ عليه عقوقه قال : لقد بدأت يا أبت بالعقوق لآبائك فليس لك أن أطيعك بعد اليوم ، ألم تر أنك باتباع مزدك قد خالفت سنن آبائك جميعاً وكان عليك أن لا تخالفهم لتطيع الدجال الخادع ! وكان مزدك حاضراً هذا النقاش فقال للأمير : إن عليك أن تثبت ، كما يبدو لك ، أنى دجال خادع . فقال نوشروان : أمهلاني أربعين يوماً أعد فيها عدتي ، قال مزدك : ولك أن تختار رجلاً تثق به لمناظرتي ، فإن أثبت رأيك فيّ قتلني الملك وإن عجزت عن ذلك قُتلت لتكون عبرة للناس وعظة ، حتى لا تحدثن أحد نفسه بالتجنى على رسول يزدان الأمين .

وسافر نوشروان إلى فارس ، فكتب إلى موبدها ، وهو صديق بارع في علوم الدين ، وحدثه بما جرى بينه وبين مزدك والملك ؛ وفي اليوم الأربعين كان نوشروان في بلاط أبيه ، فقد كان معه على ميعاد .

قال مزدك : تحدث يا أميرنا وأثبت ما ذهبت إليه من الافتراء علينا والطعن في رسالتنا ، فقال نوشروان : إن لي اقتراحاً ، فقاطعه مزدك صاعحاً : لا اقتراح وقد انقضى الأجل ، خذوه فغلّوه . فهجم عليه جماعة من حرس مزدك وأرادوا قيده وقتله ، ولكن الأمير دفعهم عن نفسه وقال لأبيه الملك : فيم العجلة ؟ ألم أشرط أربعين يوماً كاملة ، إن اليوم من حق فأمهلاني

إلى الغد . فصدق قادة الجيش على قول الأمير ، وصادف الرأي قبولاً من الملك فإنه يحب ابنه ويمغض أن يقتله بيده ، وعاد رجال مزدك إلى أماكنهم ، وانقض الجمع على أن يلتقى في اليوم التالي .

* * *

وفي المساء بلغ موبد فارس العاصمة ، ودخل القصر وقابل نوشروان ، فقص عليه هذا ما كان في اجتماع الصباح وقال : إنه ذاهب غداً ليلقى حتفه وليقابل ربه راضياً مرضياً في سبيل وطنه ودينه . قال الموبد : هدى من روعك يا أميرنا واعلم أن الحق معك وأن مزدك غويٌ مبين ، وطلب منه أن يمكنه من مقابلة الملك قبل أن يحضر مزدك ، فهياً الأمير هذه المقابلة .

قال الموبد للملك : إن صاحبك يا مولاي قرأ في علم النجوم قليلاً ، وقد قرأ أن نبياً يبعث في هذا الزمان فحسب نفسه ذلك النبي ، وخفى عليه أن النبي سيكون صاحب رسالة جديدة ، وسيكون له كتاب من عند الله ، ومن معجزاته أن يشق القمر ، وسوف ينسخ دينه دين المجوس وساثر الأديان ، وسيعبد المؤمنون بالجنة وسينذر الكفار بالخلود في نار جهنم ، ومن مبادئه أن الله خلق الناس ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وسيأمر بالزواج بواحدة وسيشترط العدل بين الزوجات لمن يرغب في المزيد منهن ، على أن لا يزدن عن أربعة ، وسيحذر الناس من الشيطان ، وسيتصل بجبريل ، ويهدم بيوت النار ، وسيكون دينه للناس كافة وسيتبقى حتى يوم القيامة ، وستشهد على رسالته السموات والأرض . يظن مزدك يا مولاي أنه هو هذا النبي وخفى عليه أنه فارسي ولن يكون النبي فارسياً ، ثم إن مزدك يدعى أنه يقوّم دين زردشت ويدعو إلى عبادة النار ، والنبي القادم يدعو للقضاء عليهما ، وسيوحى

إلى النبي بواسطة جبريل (سروش) ، أما مزدك فيدعى أنه يستمد حجته من شهادة النار . . . فإذا سمح مولاي حضرت للقائه ومناظرته وسترون أنه لا يقصد إقامة شريعة إنما يقصد هدم الدين والافساد في الأرض وخلع أسرتكم العظيمة من عرش إيران ليصبح هو ملكا .

واجتمع مزدك ونوشروان والموبد في قاعة العرش ، حيث رأس الملك المناظرة ؛ قال الملك : من يبدأ منكما ؟ فقال مزدك : هو يسأل وأنا أجيب ، فقال الموبد : إذا تعال مكاني وأنا آخذ مكانك . فغضب مزدك وقال هذا مكان أجلسني فيه الملك فلا أتحول عنه . قال الموبد :

إنك يا صاحبي تنادى بشيوعية المال فهلا علمت أن الناس يشيدون الأربطة و يقيمون الجسور وينون بيوت النار ابتغاء الثواب يوم القيامة ؟ قال مزدك نعم . قال الموبد : فإذا كان المال شيوعا بين الناس وأراد أحدهم أن يشيد عمارة فمن أين يأتي بالنفقات ؟ فلم يحرم مزدك جواباً . قال الموبد : إنك ترى الملك قباد الذي يجلس على العرش قد ورث هذا الملك عن أبيه فيروز وهذا ورثه عن آبائه ، وأنت اليوم تنادى بإباحة النساء وهدم النسب فكيف يتفق هذا والمحافظة على نسب الساسانيين ؟ فلم يحرم مزدك جواباً . وأنت تنادى بشيوع المال بين الناس ، ألا ترى أن الله قد خلقهم ومنهم الغني ومنهم الفقير ، وأن الفقير يجد عملا عند الغني فينقده عليه أجراً ، وإذا انعدم التفاوت بين الناس فأى سلطان يبقى للملك على الناس ؟ فلم يحرم جواباً .

فصاح قباد : ما جوابك ؟ فقال مزدك : جوابي أن تأمر بقتله في التو صبراً ، قال الملك : ولكني لا آمر بقتل آدمي لم يثبت عليه جرم . قال مزدك : فوعدنا إذاً غداً في بيت النار لنسمع حكمها . وانصرف الجميع من المجلس وقد طابت نفوس أصدقاء نوشروان إذ نجاه الموبد من القتل ، أما مزدك

فخرج حائقاً حاقداً على قباد لأنه لم ينفذ أمره ويقتل الموبد ، وقد أسرَّ إلى نفسه أن أنصاره من حوله قد زادوا عدداً وأن إقصاء الملك عن عرشه قد أصبح مستطاعاً ، وأنه سيلقى العون كل العون من الشعب الذى غرته المبادئ التى نادى بها .

* * *

نادى مزدك رجلين من أنصاره المقربين فأخذ عليهما ميثاقاً بأن لا يبوحا لأحد بالسر الذى يأتئهما عليه ، ووعد كلا منهما بألف دينار وبأن يرفعهما إلى رتبة سپاهسلار (قائد) ، أما السر فهو أن يحضرا جلسة الغد فى بيت النار وأن يجبىء كل منهما سيفاً تحت ثوبه ، فإن حمل السلاح لم يكن مباحاً فى بيت النار ، فإذا ما سأل مزدك النار فأجابت بقتل قباد فإن عليهما أن يسرعا إليه بالسيف تنفيذاً لقول النار .

وأما الموبد فقد طلب من نوشروان أن يأمر عشرة من رجاله بحمل سيوفهم تحت ثيابهم استعداداً لما قد يقدم عليه مزدك وهو مغيظ .
وعقد المجلس فى بيت النار فقال مزدك للموبد : سل النار إن كانت تجيبك ، فسألها الموبد فلم تنطق ، فصاح بها مزدك : ألا خبرينا يا خير بنات اهورا مزدا ويا أطيّب عباد يزدان ما رأيك فيما جرى بالأمس ؟ فارتفع صوت منها يقول : « إننى ضعيفة منذ الأمس ، ألا حظوا فى هواى وأذكونى بقلب قباد وكبده لأحكم بينكم ، ألا فليتبّع مزدك من اهتدى وأراد الآخرة » فصاح مزدك : ذكوا النار ذكوها ، فانقض صاحباه على الملك يبغيان قتله ، فدفعهما أنصار نوشروان العشرة ، وانقسم الحاضرون إلى فريقين ، فريق يرى إحراق قباد ، وفريق يرى أن يتدبر الأمر . . . وانقض الجمع .



بات قباد حزينا تلك الليلة ، فهو ولا شك قد ارتكب وزراً ثقيلاً لأن النار تطالب بقلبه وكبدته وقوداً لها ، وخير له أن يقدم نفسه وقوداً في الدنيا من أن يصلها جحيماً في الآخرة . ولكن الموبد ونوشروان زاراه في الصباح الباكر ، وأخذ الموبد يبين له سعى مزدك في انتزاع الملك لنفسه ، وكيف حاول بادئ ذي بدء أن يقضى على نوشروان ففشل ، فلما لم يفلح أراد أن يقضى على الملك نفسه ، ثم التفت إلى نوشروان ونصحه بأن يتصل بواحد من أنصار مزدك وأن يستدل منه على سر تكلم النار .

وعمل نوشروان بنصيحة الموبد ، قال له محدثه — بعد أن مناه إذا قال الحق وأوعده إذا كذب — إن أمام بيت النار أرض أقيمت عليها أسوار صعبة الذرى وأن قناة تحت الأرض تبدأ داخل هذه الأسوار وتنتهى بغاية الدقة عند فوهة النار ، وهى التى يتحدث بواسطتها مزدك فيسمعه تابع له يقيم داخل السور فيتكلم بما اتفق معه نبيّه عليه ، فيظن الحاضرون أن النار تتكلم . . .

وأبلغ الموبد هذا السر للملك ، وأخذ ثلاثتهم ، الملك ونوشروان والموبد ، يتشاورون فى الأمر ، فإن القضية لم تكن قضية مزدك فحسب ، لأن هذا المتنبي قد نجح فى كسب جماعة كبيرة من الشعب ، ومنهم فئة خطيرة تحمل السيوف ، وينبغى أن تستأصل هذه الفتنة ، وأن يقضى على العقائد التى أحبها الشعب ، ثم ينبغى أن تعاد الأوضاع إلى سابق عهدها ، فتعود الملكيات لأصحابها ، ويعاد تنظم الجباية وإدارة المرافق العامة . واتفقوا على أن يدعى مزدك فى مجمع ديني ، وأن يعلن الموبد فى هذا المجمع عجزه عن مناظرة

مزدك ، ثم يسافر إلى فارس ، ثم يُتَّبَع بعد ذلك ما يرسم نوشروان من خطط .
وعقد الجميع وتكلم الموابذة ثم وقف موبد فارس وقال : إني عجبت للنار
كيف تتكلم ؟ قال مزدك : ليس في هذا عجباً فإن الله ينطقها ، ألم تر إلى
موسى وقد أصار عصاته حية تسعى ، أو لم تر كيف فجّر من الصخرة
اثنتي عشرة عينا ، أما سمعت أنه استعان ربه ليهلك فرعون وأهله فابتلعهم
اليم . . . أما سمعت كيف أحيا عيسى الموتى . . . وهذه كلها معجزات ليس
في طاقة البشر أن يأتي بها ولكنها أعمال ربك يتمها على يد رسله ، وهو
الذي أنطق يا سيدي النار كما رأيت ، فأمن بالذي دعوتك إليه والذي أمرت
به النار ، فإن عصيتني فإن الله يعذبك عذاباً أليماً .
فقام الموبد فأعلن طاعته للذي بعثه الله وصدقته النار ، ثم سافر
إلى فارس .

* * *

واجتمع الملك بعد ذلك بمزدك فقال له : إن نوشروان منذ سمع قول
موبد فارس قد أخذ يميل إليك وهو يريد أن يعلن إيمانه برسالتك وأن يندم
ويتوب عما فات من كفره ، وإني أرى الناس متعلقة به ملتفة حوله فإذا رأوه
آمن آمنوا بك إطاعة لأمره ، وسيراً على هداه ، فسرّ هذا القول لمزدك وقال
للملك : إني شفيح لنوشروان لدى النار وهي تشفع له عند يزدان ؛ فقال الملك :
إنك تسدي إلى جميل لا أنساه ، فهو ولدي وهو وارث عرشي ، وهو فوق
ذلك على رأس الجيش والناس تحبه ، وستنام الفتنة بإيمانه ، فإن أحداً لن يجد
عذراً للكفر بدينك مادام هو يحميه . . . وخرج مزدك وهو يوصي قباد بأن
يهدي ابنه ، فاستمهله أسبوعاً ليزف إليه بشري دخول نوشروان في دينه .

وفي نهاية الأسبوع قص قباد على مزدك أن نوشروان رأى في منامه ناراً تسرع إليه تكاد تلتهمه ، فجزع فإذا برجل جميل الصورة يأتي فيمنعه منها ، وقد سأله نوشروان ماذا تقصد النار بي ، قال إنها غاضبة عليك لأنك كذبتها . ثم أخبر الملك مزدك أن نوشروان عازم على الذهاب لبيت النار ، حاملاً المسك والعود والعنبر ، وسيقف على خدمة البيت ثلاثة أيام ، مذكياً النار مسبحاً يزدان ، ولكنه يخاف إن هو أعلن رأيه وكانت أنصار دينك قلة في البلد أن تشيع الفتنة ، ويضطرب الأمن ، ولذا فانه يرى أن يعرف بالدقة عدد أنصارك هنا وفي الأقاليم ، حتى يقدم على إعلان الدين الجديد وهو بصير بالعواقب ، وأرى أن تعد سجلاً تكتب فيه أسماء من آمنوا بك ، فإنه يريد أن يعرف عددهم ومدى قوتهم فراقت الفكرة لمزدك وكتب سجلاً بأسماء أنصاره وأودعه قصر الملك .

وبعد أسبوع قابل الملك مزدك فقال له : إن نوشروان سر سروراً عظيماً عندما رأى سجل أنصارك وعلم أن عددهم إثني عشر ألفاً ، فقد أيقن أن هذا العدد كاف لحفظ الأمن ولنشر الدين بحد السيف ، وكان يخشى أن يقل عددهم عن خمسة آلاف فيضطر إلى إرجاء إعلان دخوله في الدين الجديد . وقد اتفقت معه على أن تكون علامة إعلانه المزدكية أن يقرع الطبل من برج القصر . وقرع الطبل وعلم مزدك أن أقوى رجل في الدولة قد اعتمق مبادئه ، وأنه قد أصبح ذا شوكة وأن مذهبه سيفرض على الناس فرضاً .



وفي الصباح ذهب إلى القصر فقابل الملك ونوشروان فقدم له هذا الهدايا والتحف ورجاه أن يغفر له سابق هفوته . ثم قال للملك ولمزدك : إن الأمر

بيد كما ، فأولكما ملك إيران وثانيكما نبيها ، فاذا شئتما أن أعمل على نشر هذا الدين الجديد فامنحاني من السلطان ما يكفل طاعة الناس لي . قالوا : لك ماتشاء . قال : فالرأى أن يبعث مزدك إلى أنصاره في الأقاليم يدعوهم للحضور هنا بعد ثلاثة أشهر وذلك لكي أكوهم وأمدهم بالسلاح وأستعين بهم على الجهاد في سبيل يزدان .

وتم الاتفاق على أن يحضر الأنصار من شتى البلاد في اليوم الموعود وأن تقام لهم وليمة كبيرة إظهاراً لمبدأ المساواة والإخاء ثم يدعون بعد ذلك إلى الشراب الفاخر ثم يذهبون زرافات إلى القصر الثالث ليأخذوا أكسيبتهم وأسلحتهم وخبولهم .

وجاء الاثني عشر ألف مزدكي فوجدوا الموائد قد أعدت في جناح من القصر فجلسوا يأكلون ويسمرون ، وكان نوشروان خفياً بهم ، ثم دعاهم إلى الدخول في قاعات الشراب فدارت عليهم الكؤوس سبع مرات . ودخل وهم يشربون مائتاً خادم يحملون أثواب الحرير والكتان ، فأمرهم نوشروان بالذهاب إلى الجناح الثالث حيث توزع الأكسية . ثم أمر فقسم المدعوون جماعات من ثلاثين رجلاً وساق كل جماعة إلى حيث الكساء والسلاح . وكان قد أمر أربعائة من الجنود الأشداء بأن يحفروا في الميدان حفراً كثيرة ، وأن يدعوا ما يخرج منها من التراب بجوارها ، وأمر بأن لا يخرج أحد من هؤلاء الجنود خارج الميدان

ودخل المزدكية جماعة جماعة فقادهم حرس نوشروان إلى هذه الحفرة فادعوا فيها أحياء وقد أقيموا فيها على رؤوسهم ثم غطوا بالتراب حتى صدورهم وظهرت أرجلهم تتأرجح في الهواء كأنها جذوع النخل الخاوية . وصعد نوشروان إلى قاعة العرش حيث كان أبوه ومزدك ، فروى لمزدك

ما أعدده لرجاله من كرم الضيافة وما هم عليه من سرور بعد أن أكلوا وشربوا ولبسوا ، وطلب إليه أن يطل عليهم وهم في الميدان في أزهى حلة لبسوها . فخرج مزدك فأبصر أرجلا تتأرجح في الهواء ، فخدجه نوشروان بنظره وقال : ها يا نبينا قد ألبست المزدكية الكسوة التي يستحقون ، أما أنت ، فعلى هذا المرتفع الذي أقيم في وسط الميدان ، ستلقى كساءك ، إنك دجال مخادع كما قلت لك أول مرة لقيتك فيها ، وقد جئت لتقضى على ثروات الناس وتستبيح نساءهم وتهدم ما أتى به زردشت من قواعد المدنية والعمران ، ثم يخلو لك الجو فتجلس على عرش إيران الخربة كما يجلس البوم على أطلال القصور . وساقه الجند إلى حيث حفرة أعدت له وسط الميدان ، فدفن حياً ، ورأسه في التراب .

والتفت نوشروان إلى أبيه فقال له : أن يا أبت لك أن تقبع في قصرك فإن ضعفك هو الذي أدى إلى أن تقع هذه الفوضى المدمرة في البلاد ، فمن الخير لك ولها أن تبعد عن حكمها حتى تهدأ الأحوال وتعاد النظم إلى سابق عهدها أيام جدنا أردشير . ثم أمر ففتحت أبواب الميدان ليتاح للناس أن يروا المصير الذي لقيته زمرة الفساد ، وأمر بجمع النبلاء ورجال الدين فوعدهم باصلاح حالهم وإعادة أموالهم إليهم ورد نسائهم إلى بيوتهم ، وحكم إيران بعد ذلك فكان عهده أزهى عهودها .



قال ملكشاه : أحسنت يا نظام الملك فيما رويت وإن عليك أن تعمل على إبادة جماعة پامير أو أن يعودوا إلى الإسلام ، أما أنا فلن أعمد هذا السيف حتى أنشر دين محمد كما أنزله الله .

وكان الليل قد انتصف فقام السلطان والنصف الوزير والعظماء فذهب كل
إلى بيته .

(سياست نامه ٤٤)

٢

العجوز والرجلان

ذهب رجلان إلى عجوز وقالا لها : إنا نستودعك هذا المال ، على أن
تعطيه لنا إذا جئنا معاً نطلبه . وبعد فترة جاء أحدهما وطلب المال من العجوز
وقال لها إن صاحبه قد قتل ، فإن لصوصاً هاجمها في الطريق ، فقتلوه .
وصدقت العجوز كلام الرجل فأعادت إليه المال .

ثم جاء الثاني عند العجوز وطلب المال ، فقالت إن صاحبك قال إنك
قتلت وقد أعطيتك الوديعة ، فليس لك شيء عندي .

فذهب الرجل إلى الحاكم وشكا العجوز ، لأنها امتنعت عن تسليم ماله
له ، ففكر الحاكم طويلاً ثم قال :

هذه المرأة لم تُقصر ، وقد اشترطنا عليها أن تعطيك الوديعة إذا جئتما
معاً ، فاذهب واحضر صاحبك ، وطالبها برد الوديعة !

(جامع الحكايات)

الملك الساهر

قال نظام الملك مخاطباً السلطان ملكشاه :

وعلى الملك أن يتحرى سلوك عمله ، وألا يتوانى في تقصى سيرهم ،
ليتأكد من نزاهتهم ، ومن رعاية الأمانة التي عهد بها إليهم ، والثقة التي
أولاهم إياها . وعلى العمال أن يسيروا في الناس بالحسنى ، وألا يطالبوا الحراث
بالأموال قبل أن تؤتي الأرض ثمارها ، وإلا اضطر الحراث أن يبيع معجلاً
مألاً علم له بمقداره وقدره ، فيبيع بالثمن البخس جهده المضنى . ثم على العمال
أن يعاونوا الحراثين إذا احتاجوا إلى البذور أو المواشى ، فإن من يعين
الحراث على إنتاج الخيرات التي تنبت في الأرض يُعين الشعب على عيشه ، ويوفر
له غذاءه ؛ وحرام على الحكومة وعلى الناس أن يتركوا قطعة من الأرض
بوراً ، فإن من يعمر أرض الله يخدم دينه ووطنه ونفسه ، ومن ير أرضاً
صالحة للزراعة ولا يعمرها يغضب الله والوطن والملك . فإذا سار العمال هذه
السيرة في الحراثين سعدت المملكة ، وكثرت خيراتها ، وأمن الناس شر
الفاقة والجوع والموت ، إذا ما جفت الأنهار وانقطعت الأمطار ووقع
القحط العظيم .

ألم تر يا مولاي إلى قباد وقد جف الزرع في عهده سبع سنين ، فلم تنتج

الأرض خلاها حبة واحدة ، فكانت شدة لا مخرج منها ، فاستطاع بما لدى عماله من الخيرات المخزونة أن يوفر لشعبه الغذاء طوال السنوات الشداد ؛ فقد أمرهم ببيع ما لديهم من مخزون الحبوب بأثمان رخيصة ، وسهر على عدالة التوزيع بين الناس ، فلم يمت من إيران فرد واحد بسبب القحط .

وعلى الملك أن لا يتهاون مطلقاً في مراقبة هؤلاء العمال ، وإذا رأى أن أحدهم استولى من حرّات على أكثر مما ينبغي عليه دفعه ، رد ما اغتصب إليه ، حتى يعلم الناس أن العدل قائم وإن جار العمال . وإذا كان للعامل المغتصب مالٌ أخذ منه أضعاف ما اغتصب من الرعية ؛ وقد يرى الملك نفسه في حل من أن ينزع جميع أموال العامل الظالم ، ليعلم الشعب أن الظلم مرتعه وخيم . وأما إذا كان العامل قد قصر تقصيراً يسيراً ، فإن على الملك أن يقوّمه ويصلحه ويجازيه حسب مسؤوليته .

وأما إشراف الملك على الوزير وحكام الأقاليم فإنه أكثر وجوباً وأبعد أثراً ، لأن أخطاء هؤلاء تحسب على الملك نفسه ، وتنسب إليه وإلى حكومته . ولذا وجب أن يكون الوزير والحاكم من ذوى العدل وإصالة الرأي ؛ ووجب أن يكون الملك يقظاً محاسباً .

وكم أعجبنى منظرُك وسلوكُك مني يا مولاي يوم جئتنى ، وقد أمسك ميك رجلاي يشكوان إليك ظلم والى بلدهما ، وكانت الدموع تترقرق في عينيك وأنت تقول : كيف يكون حالى غداً عند الله إذا طولبت بحقوق المسامين ، وقد قلدتك هذا الأمر لتكفيني مثل هذا الموقف ؟ وكم أسعدنى إنصافهما عملاً بأمرُك وعدلك يا مولاي . وأنا أسوق إليك قصة الوزير رست رَوش الذى وزره الملك بهرام كور فلم يرع التزاهة في حكمه ، فطغى وبغى وتكبر ، ولكن انظر كيف كانت عاقبته .

وأنت تعلم يا مولاي أن بهرام كور قد اندفع في نزع الشباب فترك شئون الملك وانصرف إلى الصيد والنساء والشراب ، وأقام مقامه أميراً ضعيفاً لم يكن يستطيع أن يعارض للوزير رست روش رأياً أو يعصى له أمراً . وقد استغله رست روش أقبح استغلال ، وصور له أن ما تبديه الحكومة من الشفقة بالناس قد أفسد خلقهم ، وأطمع في الولاة أشرارهم ، وأن الأمر إذا لم يتدارك بالحزم ويؤخذ بالشدة لا تحمد عواقبه ، فالواجب أن لا ندع على قيد الحياة مفسداً ، وأن لا نترك لغنيهم ما يثير الغرور في نفسه فيخرج علينا ، ولنستحي نساءهم ولنذبج أولادهم ، حتى لا يبق لأحد منهم سلطان . وامتلات السجون بالأشراف . وخلت القصور من ساكنيها ، وولى كثير من الأمراء فراراً من إيران ، وقد ملئوا من ظلم الوزير رعباً . ونظر رست روش حوله ، فإذا سلطانه يمتد على الشعب وحكومته ، وإذا به يرى باب الإثراء مفتوحاً على مصراعيه ، له ولذويه ، فأخذ يمنح الحرية لمن سجنهم الأمير الذي كان يشغل مكان الملك ، على أن يمنحوه ضياعهم وأموالهم ثمناً لحریتهم ، وأخذ ينهب ويسلب كما يشاء ، وكلما أرادت الحكومة القيام بمشروع امتلات جيوبه وعمرت خزائنه بالرشوة المستورة والرشوة المفضوحة ، حتى أصبح ترفه حديث الناس في إيران وغير إيران .

وظل الوزير على هذه السياسة الهدامة سنين عديدة ، حتى افتقر الشعب ، وتحلل روحه ، واختلت الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكومين ، وخرجت من بيوت الأشراف التحف النادرة ، والخيول المطهمة ، والجواري الحسان ، وكل ما لدى الناس من الخيرات ، لتدخل كلها في بيت الوزير رست روش . وكان الملك إيران منافس يقف له بالمرصاد ، فاتصل به الوزير الخائن ، ليخلع الأسرة الساسانية وليلى هو العرش ، فسارع العدو ملبياً

دعوته وأغار على إيران . كل هذا وبهرام كور غافل عن أمر نفسه وبلاده .
وأفاق الملك من غفلته وأمر بتهيئة الجيش ، والتوسيع على رجاله ، لتقوى
روحهم وتشتد عزيمتهم ؛ ولكن خازن المال وجد خزينة الدولة خاوية ،
وافتقد وزير الحرب الأشراف والنبلاء وهم القادة فلم يجد منهم أحداً : منهم
المسجون ، ومنهم من هاجر ومنهم من قُتل . ونظر بهرام فاذا إيران يخيم
عليها الفقر ، ويفت في عضدها البؤس واليأس . فسأل ماذا دهي المال وأفنى
الرجال ؟ . فلم يجزؤ أحد أن يذكر له ما جرت به سياسة الوزير على الدولة من
الدمار والفناء وبات الملك ليله ساهراً يفكر في قلعة المتداعية وعدوه
يقرب ولم يكد الصبح يتنفس حتى كان ممتطياً صهوة جواده الأشهب
وسط الصحراء . هناك في الفضاء الذي لا يُحد أبصر ناراً فوق تل فاتجه إليها ؛
وهناك رأى قطعاً من الأغنام ورأى خيمة على بابها كلب مصلوب ! وجلس
الملك — وهو متنكر — للإفطار مع صاحب الخيمة واستمع إلى الرجل
يحدثه عن الكلب المصلوب . قال :

كان لي من قطع الغنم هذا رزق كبير ، وكنت أعتد على هذا الكلب
في حمايته ، وكان من القوة بحيث يغلب عشرة ذئاب ، وكنت أثق به حتى
أنى حين أضطر إلى السفر ، كنت أتركه ليقود الأغنام إلى حيث ترعى
وليعود بها إلى حيث تبين ، وأنا آمن هادي البال . ولكنني لاحظت أن
القطيع يتناقص ، ولاحظت الكلب فلم أهتد إلى تقصير في رعايته أو فتور
في واجبه ؛ حتى إذا جاء محصل الخراج وجدت القطيع كله لا يبق إلا على من
مال ، فأخذته المحصل وصيّرتني راعياً للقطيع الذي كان ملكي بالأمس .
وتفرغت لرعاية الأغنام فعامت ما غاب عني ، وهو أن الكلب قد وقع في
شباك ذئبة غادرة ماكرة . رأيته معها وأنا أحظب فوق ربوة عالية ، رأيتهما

تدنو من القطيع ، ورأته يهرع لاستقبالها ، ثم أخذ يداعبها حتى إذا بلغ منه الهيام مبلغه انتحى بها ناحية ؛ فلا تلبث الذئبة أن تعود فتفترس أقرب الأغنام إليها وتلتهم من لحمه ما تشاء ، ثم تمضى في سبيلها ، والكلب ينظر إليها نظرة المتيم الوهان ! وهكذا كان ينقرض القطيع رويداً رويداً ، لأن الكلب غلبته شهوته ففقد أمانته وضاعت رعايته . فرأيت أن أقل ما يجازى به هو أن يُصلب كما ترى جزاء ضعفه وخيائته .

عاد الملك إلى العاصمة متفكراً في هذا الذي رأى وسمع ؛ أليس هو صاحب القطيع الذي ملكه الله على الشعب ليعمر الأرض ؟ أليس وزيره رست روش هو الكلب الذي عهد إليه برعاية الشعب والعناية به ؟ أليس الجشع الذي حمل الوزير على ارتكاب ما ارتكب ، وتضييع ما ضيع من دولته ، هو تلك الذئبة الغادرة ؟

ورأى الملك خزائنه خاوية ، وجيوشه مسرحة ، ورجاله مشردة ، والشعب في بؤس مقيم ، ولكنه لم يهتد إلى خيانة وزيره كما اهتدى الراعى إلى خيانة كلبه ؛ فان الحاشية كانت تخاف على نفسها من غدر الوزير الماكر الجبار . فأمر أن ترفع إليه التقارير اليومية التي كان الوزير يخفيها ، فإذا به يرى البطش والظلم والبغى ، فأدرك أن ما أصاب شعبه من محن مصدره الوزير وأن عليه إذا أراد أن يعيد للشعب مكائنه وثقته بنفسه وبحكامه أن يقتص من رست روش ، فلما دخل عليه ابتدره قائلاً : ماذا جرى لشعبي ، علاه الفقر والهلم ، وأقعدته المحن والمظالم ، وماذا انتاب خزائني أقفرت وكانت باخير تفيض ؟ أو ليمتك لتقتل الناس وتنتهك حرماهم وتقيد حرياتهم ؟ ولقد

وليتك عامر القلب خاوى الوفاض ، وكان هذا فخر ك ، فإذا بجاه الوزارة يضلك وإذا بك غنى ضال . دخلت بالأمس الوزارة فقيراً عزيزاً وها أنت تخرج اليوم منها ثرياً لا نزاهة فيك .

وحاول رست روش أن يجيب ولكن الكلام لم يواته ، خنقته الدماء البريئة التى سفكها ، والحريات الغالية التى أضاعها ، والأمانة التى خانها . فأمر الملك بسجنه ، وأخذ ينظر شكاوى الناس منه ، ولم يلبث أن علم أن رست روش قد تأمر مع عدوه للغدر به ليظفر بسلطان أوسع ، فأمر بقتله والتمثيل به . ثم التفت إلى أهل إيران فأصلح أحوالهم ، وتدارك ما فسد من أمورهم ، وأبعد عنهم الوزير الذى أغراه الجشع بخان وطنه وملكه ، كما أبعد الراعى الكلب الذى أنسته الذئبة الغادرة حسن الرعاية .

أما أتباع رست روش من الموظفين فقد عزلوا ، ثم أسند الملك وزارته إلى رجل عرف بالتقوى والنزاهة وحب ملكه ووطنه .



والآن أعود بك يا مولاي إلى قصة الراعى الذى صلب كلبه ، فإن بهرام عندما سمع منه قصته أخرج من جعبته سهماً ورماه أمامه وقال له : لقد أكلت معك وشربت ، ووقفت منك على ما اعتراك من غم ، وما أصابك من خسائر ، وسأعمل على تخفيف ما أصابك ، واعلم أنى من حجاب الملك بهرام كور ، يعرفنى كل عطاء بلاطه ، فخذ هذا السهم معك ، وأره إلى من تقابل فى بلاط الملك ، وعندما يروه سيحضروك إلى . وسأعوضك خيراً .

وبعد أيام قالت زوج الراعى — وقد باتت فى ضيق بعد أن فقد زوجها قطيعه — : قم إلى حيث أمرك هذا الفارس الذى زارنا منذ زمان ، وخذ

معك السهم ، فإن عليه سيماء العز والقوة ، وإن قليلا يعطيه من فضله لكثير لدينا . نخرج الراعى قاصداً زائرہ الكريم .

وكان الملك قد نبه رجال حاشيته إلى قدوم رجل يحمل سهما من سهامه ، فلم يكذب الراعى يريهم السهم حتى رحبوا به وساروا معه إلى الملك ، فلما رآه الراعى ارتعدت فرائضه ، وأرتج عليه ، لأنه لم يعامله بما ينبغي للملوك فقد كان جاهلا شخصيته . وانحنى الرجل على أقدام الملك ، فابتسم هذا وقص على الحاشية قصته ، وقال إنه مستبشر به ، لأنه نبه من غفلته ، ولفته إلى شئون دولته ، وكانت قصته سبباً في خلاص البلاد من البلاء الذي ألمَّ بها زمناً طويلاً . ثم أمر بأن تخلع عليه الخلع الملكية ، وأن يعطى سبعمئة رأس من الأغنام ، وأن يعفى من الضرائب .

(سياست نامہ ۴)

۴

الحجاج والدرويش

ظهر في بغداد درویش مستجاب الدعوة ، فناداه الحجاج بن يوسف ، وقال له ادع لي بالخير . فقال الدرويش : اللهم اقبض روحه . فقال الحجاج : بحق الله ما هذا الدعاء ؟ فقال الدرويش : هذا الدعاء خير لك ولكافة المسلمين .

(گلستان)

المرأة

قال نظام الملك للسلطان ملكشاه :

قد سمعت أن السيدات المتحجبات اللاتي لا ذكاء لهن يتدخلن في شئون الدولة ، ولا دخل لهن فيها ؛ والذي أعرفه يا مولاي أن كل ما نطلبه إلى النساء هو أن ينجبن لنا الأبناء ليبقى النسل الطيب ، وكلما علا أصل السيدة زاد تقدير السلطان لها ، وكلما تشددت في الحجاب طاب الثناء عليها . وليعلم الملك أن نصائح سيدات القصر مبنية على ما يسمعن ممن لم تخلص نياتهم ، وأنهن لا يرين ما يجري في الخارج ، فيتخذن من هؤلاء المفسدين عيوناً ، ويستقين من صاحبة أو الخادمة أو الخادم الأنباء ! ولذا فإن أوامرهن تكون بعيدة عن العدل والصواب ، وهكذا ينفثن في الدولة الفساد . وفي هذا يا مولاي أساس بنفوذك ، وفيه مضرّة للشعب ، إذ أن به تختل أمور الدنيا والدين ، فقد تتلف — إذا استمع الحاكم إلى قول امرأته — أحوال الناس وتسفك دماء عظمائهم .

وإن أنت أنعمت النظر في التاريخ يا مولاي وجدت أنه ما من مرة وقع السلطان فيها تحت تأثير المرأة إلا حل في دولته الفساد والفتنة وصنوف الشر . ولن أطيل عليك في حديثي عن سوء أثر تدخل المرأة في شئون الدولة ، فهذه قضية مشهورة والشواهد عليها كثيرة ، وهي قديمة قدم الإنسان ،

منذ مس آدم الضرحين استمع إلى قول أمنا حواء ! ومنذ أجيال لقيت المملكة التي تحكمها ألواناً من الشر ، زهقت فيها أرواح الألوف من الترك والفرس ، لأن كيكوس الملك خضع لامراته سودبه ، فكان ما كان من شر أعوذ بالله من أن توقعنا النساء فيه ، في هذه الأيام التي اتسعت فيها مملكتنا ، وأصبحت كعبة القصاد .

كانت سودبه امرأة جميلة ، وقد وقع كيكوس في حبائلها ، لأنه شيخ كبير ولأنها زوج لعوب فاتنة ، فسيطرت عليه حتى أصبح لا يقضى أمراً بغير مشورتها . وكان للملك ولد من زوجه الأولى ، اسمه سياوخش ، عهد بتربيته إلى رستم القائد المشهور ، وكان إذ ذاك والياً على سيستان . وشب سياوخش بطلا فذاع صيته وتحدث بفتوته الناس ؛ وبلغ مسامع سودبه أنه ذو جمال رائع فالت إليه واشتقت إلى رؤياه ولقياه ، فأوحت إلى كيكوس أن يدعو ابنه لجواره ، ليستعين به في عمله ، ولتمتع نفسه بالنظر إليه . فصدق الملك نصحتها وبعث إلى ولده فجاء المدائن حيث استقبله الشعب أروع استقبال .

وكانت سودبه مشوقة إلى مقابلة سياوخش فطلبت من الملك أن يأمره بالدخول في الجناح المخصص لها ليرى إخوته ، وكانت امرأة فاسدة الخلق قبيحة السيرة ، وكان سياوخش يسمع عن قصص غرامها ويكظم غيظه منها ، فلما طلب إليه الملك أن يدخل جناحها أحس أن أمراً يدبر له في الخفاء ، فرجا والده أن لا يدخل وأن تخرج إخوته لتسامن عليه ، ولكن الملك لم يوافقهم على رأيه وأمره بالدخول فدخل طاعة له .

ولم يكد سياوخش يدخل حتى أسرع سودبه إليه واحتضنته بذراعيها رواودته عن نفسه فدفعها مستعصماً وخرج . . . ودخل الملك عند زوجه

فوجدوها مضطربة غاضبة ، فسألها فاتهمت ابنه بأنه ضمها إلى صدره فدفعته ونهرته وأمرته بالخروج طرداً

وغضب الملك فخرج إلى حيث ابنه وسأله في عنف عما كان منه فقال :
هي راودتني عن نفسي فدفعتها عني وفررت منها . قال الملك : النار تحكم بيننا يا بُنى ، إن النار أحرقتك فأنت كاذب وهي من الصادقين ، وإن كانت عليك برداً وسلاماً فأنت صادق وهي من الكاذبين .

وأقيم حفل الابهال وأشعلت النار في وسط الميدان ، وصعد لهيبها حتى علا قم الجبال ، واصطف قادة الجيش ورجال الدين على الجانبين انتظاراً لما تحكم به النار ؛ وجاء سياوخش راكباً فرسه « شب رنك » فاقتحم النار وخرج منها من غير سوء ؛ فصلى الناس ودعوا ربهم وجمع الموازنة الحطب المتخلف من الحفل وبعثوا به إلى بيوت النار في أطراف إيران ، تبركاً وتقرباً من الله ؛ وأدرك الملك براءة ولده وخيانة زوجه ، فدخل القصر غاضباً حائقاً ولكنها استطاعت بخداعها ومكرها أن تجعل غضبه فرحاً وحنقه رضا ، فعفا عنها ونسى ما كان منها . . . ثم أمر بأن يولى ابنه إمارة بلخ ترضية له . . .

خرج سياوخش من النار وكان يظن أن الملك سيقتل سوزبه جزاء خيانتها وكذبها فلما رأى ما رأى من تسامح والده معها لم يستطع صبراً على البقاء في المملكة وأخذ يفكر في بلد يلجأ إليه .

وكان لأفراسياب ملك الترك وزير عاقل اسمه ويران ، وقد علم هذا الوزير قصة الأمير الإيراني فاتصل به وحبب إليه الالتجاء إلى توران ، فهاجر . وهناك استقبله أفراسياب أجمل استقبال ، وزوجه من ابنته ، واختصه بحبه ، وأصبح لا يعقد أمراً في بلاده من غير مشورة سياوخش .

وكان لملك الترك ولد ضعيف الهمة ، سقيم الرأي ، مريض النفس اسمه

كرسفر ، وقد رحب بسياروخش أول الأمر ولكنه حين رأى مكانته في هبوط ومكانة زوج أخته في صعود ولمس ما بينهما من فوارق ، في الفروسية ورجاحة الرأي وبعد النظر ، حنق عليه أشد الحنق وأخذ يتحين الفرص ليوقع بينه وبين والده . وقد استطاع أن يتهم سياروخش بتهمة قبيحة عند أفراسياب فأهاجه فأمر بقتله فقتلوه ، وهكذا قتل ملك الترك أمير إيران وبطلها سياروخش .

وبلغت الأنبياء إيران وعلم الناس أن دم أميرهم قد أريق في بلاد الترك ، فغضبت أرواح الأبطال ودوى اللحن الحزين في الأسماع . أما رستم ، وإلى سيستان ، ومربي سياروخش ، فإنه لم يكذب يسمع بالنبأ حتى امتطى صهوة جواده وسار قدماً نحو المدائن فلما بلغها اتجه نحو قصر الملك فدخل غير مستأذن وصعد إلى جناح سودبه فدخل غرفتها فجذبها من شعرها وساقها إلى الميدان فقطعها بسيفه إرباً إرباً . ثم رفع العلم الكاوياني وتقدم الجيش واتجه به نحو بلاد الترك لمحاربة ملكهم ، ودامت الحرب بين الشعبين سنوات قتل فيها آلاف من الترك والفرس .

كل هذا لأن كيكائوس كان ضعيفاً أمام زوجته سودبه فأسلمها زمام نفسه .



ولو تتبععت يا مولاي تاريخ العظماء لما وجدت أحدهم استودع امرأة سراً أو اتخذها مشيرة . وانظر يا مولاي إلى الإسكندر وقد هزم دارا واستولى على ملكه فأراد بعض رجاله أن يزوجه من ابنة الملك المهزوم ، فأشاروا عليه بدخول « الحريم » حيث ابنة دارا التي ذاع حديث جمالها وعذوبتها ، وبجانبها بنات الأشراف وكلهن على جانب عظيم من الجمال ، فقال الإسكندر :

لقد هزمننا رجالهم فلا تسيطر علينا نساؤهم! ومضى في الغزو نحو الهند ولم يدخل « حريم » دارا .

* * *

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « شاوروهن وخالفوهن » . وجاء في التاريخ أنه حين اشتدت على الرسول الكريم وطأة المرض كان بجواره السيدتان عائشة وحفصة عليهما السلام ، فسألتاه عن يصى بالناس أثناء مرضه فقال : أبو بكر . فأعادتا سؤالهما فقال : أبو بكر . قالت عائشة لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل ضعيف رقيق القلب ، وإنه أقرب الصحابة إليك ، فإذا رأى مكانك من الناس شاغراً غلبه البكاء فتضع صلاته وصلاة الناس ، فالأجدر بأماتهم عمر فإنه قوى رابط الجأش . فغضب النبي عليه الصلاة والسلام وقال ما معناه ، مثلكما كمثلى يوسف وكرسيف ، وإنى لن أسمع لكما رأياً وقد أمرت بما فيه خير المسلمين ، إذهبا إلى أبى بكر وقولا له يؤم الناس للصلاة . هذا مع ما كان لعائشة من رأى وعلم ، فما بالك يا مولاي بسائر النساء !

قال ملكشاه : وما قصة يوسف هذه يا أبا الحسن ؟ فقال نظام الملك :

* * *

كان ذلك أيام بنى إسرائيل ، وقد قيل إن الله تعالى يستجيب ثلاث دعوات لمن يقضى أربعين سنة يعبد الله ولا يرتكب كبيرة أو صغيرة . وكان يوسف رجلاً متعبداً زاهداً يخشى الله ولا يسىء إلى أحد : وكان يعيش مع زوجته كرسف وأولاده فى قناعة وسعادة ، وقد آن ليوسف أن يدعو ربه

ثلاث دعوات ، ولم يجد غير زوجه مشيرة بالذى يدعو ، فإن صلاحها من صلاحه ، وليس أصدق منها ناصحاً له .

فلما سأها قالت : ليس لى فى هذه الدنيا سواك ، وأنت منى نور العين ، ويطيب بصحبتى عيشك ، فادع ربك أن يجعل لى جمالا ليس مثله جمال حتى أدخل على نفسك السرور كلما وقع نظرك على . فدعا يوسف ربه أن يمنح كرسف جمالا ليس لواحدة من بنات حواء ، فصارت .

وأبصرت كرسف وجهها ذات يوم فى المرأة فإذا هى كالملاك الكريم جمالا ورقة ، وألفت نفسها زوجاً لهذا الزاهد المتعبد القانع الذى لا تجد عنده غير خبز قفار ، والذى لا يعرف إلى كسب الحياة سبيلاً ؛ ورأت أن جماها جدير بملك عظيم يوفر لها أسباب السعادة الحقة ، ويغدق عليها من الخيرات والنعم ، ويهبها من الآلىء والجواهر ما يزدان به جماها . هكذا وسوس لها الشيطان فأخذت تؤنب زوجها على فقره وتقاعده عن الكسب ، وأهملت أطفالها . . .

وأحس يوسف ما فى زوجه من صلف وغرور ، وراها تهمل بيتها وأولادها ولا تستمع لنصحه ، فرفع إلى السماء رأسه ودعا ربه أن يعاقب كرسف فيجعلها دبة تهيم على وجهها ، فصارت . وأخذت الدبة تحوم حول البيت وتلتصق بجدرانها والدمع من عينيها ينهمر ؛ واضطر يوسف أن يرعى أولاده وبيته بنفسه ، وأصبح لا يقدر على تأدية الصلاة فى وقتها ، ورأى أطفاله وقد امتلأت قلوبهم حزناً لفقد أمهم ، فرفع رأسه إلى السماء مرة ثالثة ، ودعا ربه أن يعيد كرسف كما كانت من قبل ، فعادت إلى حالتها الأولى ، وانتهت الدعوات الثلاث ؛ وأصبح يوسف وقد ضاع عليه نسك أربعين سنة ! كل هذا لأنه اتخذ من زوجه مشيراً .

وأختم حديثي بأن أذكر مولاي بالآية الكريمة: «الرجال قوا امون على النساء». فلا تسمع لمشورتهم يا مولاي، واجعل من ابنك بركيارق خلفاً لك، يحافظ على دولتك ويخلد اسمك، فإن له من كبر سنه، ووفرة تجاربه ومرانه على فن الحكم ما يؤهله لوراثته ملكك العظيم.

وحذار يا مولاي من الا نصات لتركاز خاتون، فإنها تريد أن تغريك بجمالها وفتنتها وأن تحملك على جعل ولاية العهد لطفلها منك، وتبعد ولدك بركيارق عن عرشك، فاجعل العهد له، واعقلها يا مولاي وتوكل.

(سياست نامه ٢: ٣)

٦

لص في بيت درويش

سطا لص على بيت درويش بالليل، وأخذ يفتش لعله يجد شيئاً يسرقه، وكان الدرويش مستيقظاً واللص ينقب فصاح به:

إني في ضوء النهار لا أجد في هذا البيت شيئاً فإذا تريد أن تجد في ظلمة الليل البهيم؟

(كلستان)

جعفر البرمكى

اجتمع لسليمان بن عبد الملك من أسباب الملك ما لم يكن لأحد من آباءه ،
وقد جلس يوماً ومن حوله حاشيته وكأن بنفسه أن يقول إن الله وهبه من
الملك ما وهب لسليمان الحكيم ، إلا أنه لا تدعن له الطير ولا تطيعه الجن .
وبينا هو يفكر في هذا إذ بادره أحد خاصته بقوله : إن الخليفة مع ما آتبع
له من عظمة الملك وأبهة السلطان ينقصه شيء واحد هو زينة البلاط عند
الملوك السابقين . قال سليمان : أفصح . قال الرجل : ينقصك يا مولاي وزير
من أبناء الوزراء الأقدمين تزدان به مملكته وتستعين به في إدارتها .
قال الخليفة : ولكن أين أجد هذا الوزير ؟

قال المتحدث : إنه ببلخ واسمه جعفر بن برمك (الجد) وهو من سُل
البرامكة الذين وزروا للساسانيين منذ أيام أردشير بن بابك ، وقد زالت عنهم
الوزارة حين ذهب ملك آل ساسان ، وهم يتوارثون — منذ الفتح العربي
لبلادهم — القوامة على بيت نار النوبهار ، كما يتوارثون كتباً في أصول الحكم
وواجبات الوزير ، وضعها الآباء وزاد فيها الأبناء ما جد من تجاربهم ،
ولست أرى من هو أجدر من جعفر هذا بوزارتك ، والرأي لمولاي .
ورأقت الفكرة لسليمان فأمر والي بلخ أن ينادي جعفر بن برمك وأن

يعطيه مائة ألف دينار ثم يوجهه إلى دمشق . وقوبل البرمكي في رحلته الطويلة بأروع مظاهر الاستقبال ، فقد شاع أنه ذاهب ليتقلد الوزارة ، وأمر الخليفة باستقباله إستقبالا رسمياً في البلاط ، فاجتمع الأمراء ورؤساء القبائل وذوو الرأي لمقابلته ، فلما بلغ جعفر القصر فُتحت له الأبواب ، ولم يكده يدخل قاعة العرش حتى وقف الحاضرون تحية وإجلالا ، ولكن الخليفة تجهم ، وأمر بطرده شر طردة ، وقد استشاط غضباً وقال : خذوه فغلوه . وساقه الحرس خارج القاعة ، وظل الخليفة عابساً .

وأما الحاضرون فكان على رؤسهم الطير ؛ إلى أن حان وقت الشراب ، ولعبت الكؤوس بالرؤوس ، وتفتحت أسارير سليمان ، وأمن الحاضرون غضبه .

قال أحدهم : بعثت يامولاي في طلب جعفر ، وأخطته في رحلته بعطفك ورعايتك ، وجلست تنتظر حضوره ، وهو شرف لم تمنحه أحداً من قبل ، ثم طردته من مجلسك وأنت غاضب عليه فهلا شرحت لنا الحكمة في ذلك يامولاي ؟

قال الخليفة : إنه دخل بلاطنا وفي يده السم ، ولولا أنه من أبناء الوزراء السابقين ، وقد أمرنا بإحضاره من بلد قصي لأمرنا بقتله صبراً (١) .

قال صاحبنا : إذا أذن مولاي ذهبت عنده لأستبين الأمر فإنني أرى فيه سراً ، فأذن الخليفة له . . .

وأجاب جعفر سائله بأنه يحمل السم في خاتمه ولكنه سم لا يضر حشرة

(١) لم يرد اسم البرامكة أيام الساسانيين فيما نعلم من مصادر تاريخهم . والمعروف أن جعفر البرمكي (الجد) وفد على عبد الملك كطبيب للأمر مسامة (٧٠٥ / ٨٦) . وسموا البرامكة من فعل برمكة بن بمعنى المس أى مص السم . أنظر مادة برمك في : (فرهنگ انجمن آراى ناصرى) .

حقيرة في الأرض وهو لا يفكر في إيذاء مخلوق به ، وقال إنه ورث الخاتم وما يحتويه عن آبائه الوزراء الذين حملوه لازدراء ما فيه من السم إذا اقتضى الحال ذلك ، فكثيراً ما كان الملوك يغضبون عليهم فيصادررون أموالهم ، ويعرضون للبوار أرواحهم ، قال : وحين ناداني الخليفة خشيت أن يطلب إلى ما لا قبل لي به ، وخفت أن يأمر بتعذيب عذاباً لا قدرة لي على احتماله ، فلبست الخاتم لأسرع إلى موت بابتلاع سمه قبل العذاب الأليم . . .

وعلم الخليفة سر حمل جعفر السم في خاتمه ، فراقت له الفكرة ورضى عنه ، وأمر بأن يُرسل إليه حصان من خيوله المطهمة وبأن يحضرا كباً إلى البلاط . . . واستقبله أجمل استقبال ، ثم أمر بإعداد غرفة الشراب فزينت بالذهب والفضة وفرشت بالبسط المنسوجة من الذهب الخالص ، وبدت القاعة في أبهى حلة ظهرت بها .

ثم انتقل الخليفة ووزيره الجديد والحاشية إليها وأخذوا في الشراب . ولما اطمان جعفر إلى الخليفة سأله : كيف عرفت يا مولاي أني أحمل السم مع أن أحداً لم يفطن لذلك ؟

فقال الخليفة : إن معي سواراً هو أثمن كنوزي جميعاً ، لا أنفصل عنه ، ولا هو ينفك عني ، وهو عشر صدقات تشبه الجزع (نوع من الصدف) وليست منه ، وجدته في خزانة أحد الملوك ، فإذا أدخل في غرفتي طعام أو شراب مسموم ، أو دخل من يحمل سمّاً ، اضطربت الصدقات وفقدت هدوءها ، وبفضل هذا السوار عرفت أنك تحمل السم ، وقد كان يزداد اضطراب صدقاته كلما تقدمت مني ، ثم نزع الخليفة السوار من يده وأراه لجعفر ، وسأله إذا كان قد رأى في حياته شيئاً أعجب مما يرى . فقال البرمكي : نعم يا مولاي ، ما رأيت مع حاكم طبرستان . . .



عرجت على آمد وأنا في الطريق إلى دمشق عملاً بأمر مولاي فاستقبلني حاكمها وأنزلني ضيفاً عليه ، وأحاطني بالرعاية والعناية ، وقد سألتني إذا كنت أرغب في رحلة بحرية ترويحاً عن النفس من مشقة الطريق فوافقت ، وركبنا السفن ومعنا أهل الموسيقى والغناء ، ومن حولنا السقاة يديرون كؤوس الشراب ، والجو صحو جميل ، وكنا في سفينة واحدة وهو قريب مني ، فرأيت في إصبعه خاتماً لم أر أجمل من الفص الذي يزدان به ، فخدقت فيه طويلاً ، فلما لاحظ ذلك انتزع من إصبعه وقدمه هدية لي ، وخشيت أن تكون إطالة نظري فيه قد أحرجته ، فرددته شاكراً معتذراً ، فألح فألححت في الاعتذار عن القبول ، فقال إن ما يخرج من يدي هدية لا يعود إليها ، فأكدت اعتذاري فأخذ الخاتم من يدي وألقاه في أليم ! فصحت آسفاً وقلت : لو عرفت أنك ملقيه في البحر لأخذته . قال : إنك حين أطلت النظر فيه علمت أنه راق في نظرك أكثر مما يروق لي . وها أنت تمزق لقراره في قاع البحر ، ولكني واجد الوسيلة لإخراجه ورده إليك . ثم أمر خادماً بأن يعود إلى البر وأن يذهب إلى القصر ويطلب من الخازن أن يعطيه الصندوق الفضي الذي في الخزانة ، وأمر ربان السفينة التي كنا بها بالتمهل . وعاد الخادم يحمل صندوقاً فضياً صغيراً ، فتناوله الحاكم وأخرج من منطقتة مفتاحاً ففتح به الصندوق وأخرج منه سمكة من الذهب الخالص ، وألقاها في الماء ، وبعد لحظة عادت السمكة وفي فمها الخاتم المفقود . . . ثم نزع جعفر الخاتم من إصبعه وأراه للخليفة ، فأعجب هذا به ورده إليه وقال إن ذكرى كرم هذا الوالي لا يجوز أن تضيع . . .

ولبت شأن البرامكة في الارتفاع حتى قلب لهم الدهر ظهر المجن فزال
دولتهم . وما قصدت بهذا الحديث أن أعرض على مولاي من شهير قصصهم
ما يعرف وإنما قصدت ذكر القواعد اللازمة لاختيار الوزير الكفء الذي يعلم
واجبه نحو الدولة ، وما القصص إلا ليسهل على مولاي القراءة ، وفقك الله
وأرشدك إلى ما فيه صلاح الدولة والدين .

(سينت نامه ٤٢)

٨

النصح الأثم

سمعت أن ملكاً أمر بقتل أسير ، فأخذ هذا يشتم الملك ، فإنه وقد يؤس
من حياته ، لم يقم وزناً لقدراً أحداً ، وإذا يؤس الانسان طال لسانه ؛ وكان
الملك لا يعرف لغة الأسير ، فسأل ماذا يقول ، فقال وزير طيب ، إنه يقول :
« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ، فأشفق الملك عليه وعفا عنه .
وكان في الحضرة وزير خبيث فقال : لا يليق بنا نحن الوزراء أن نكذب
على الملك ، إن الأسير يشتم الملك ويطيل لسانه في سبه .

فتجهم وجه الملك وقال لهذا الوزير الخبيث : إن كذب صاحبك أحب
إلي من صدقك ، فقد قصد الخير وقصدت الشر ؛ ولم يعدل الملك عن عفوهِ .

(كلستان)

المعتصم والخياط والمملوك

حدثتك يا مولاي عما ينبغي على السلطان من رقابة وزرائه وولاته ، واليوم أسعد بالتحدث إليك عن موقفك من المماليك الأتراك الذين كثروا في الدولة منذ أيام الخليفة المعتصم . فقد كان هذا الخليفة يحبهم ويؤثرهم على سائر مواليه ، واتسع نفوذهم حتى لقي الناس منهم كثيراً من المظالم والآلام ، وقد ازداد عددهم في عهدك السعيد يا مولاي ، ولا عجب فإن انضمام القبائل التركية للدوحة السلجوقية الوارفة الظلال كان أمراً لا بد منه ، والمماليك الترك هم خير من يدافع عن حدود البلاد ، وخير من يفتح ويغزو ، وبفضلهم تتسع الدولة ويكثر عدد المسلمين فيعتر الا سلام ، وقد أشرت على مولاي باتباع سياسة والده العظيم الپ ارسلان في استغلال قوتهم وحبهم للنظام وميلهم إلى الحرب والفروسية وتعصبهم الشديد للدين الحنيف ، فتكون الحدود لهم مستقرة ليحموها ويدفعوا أعداءنا عنها ، وليسهل قيامهم منها للغزو والجهاد في سبيل الله .

وعلى الملك الصالح أن يراقبهم أدق المراقبة ، وأن يسأل عن سلوكهم ، وأن لا يتوانى في توقيع أشد العقوبات على من يعتدى منهم على الناس ، فإنهم طغاة في الحرب ، بغاة في السلم ، لا يقف في سبيل شهواتهم قانون أو سلطان .

فإذا وجدوا الملك يقظاً في محاسبتهم خافوا بأسه وشدة مراسه وخضعوا لها
يفرض عليهم من نظم .

هكذا كانت سيرة المعتصم منهم ، فإنه بقدر تدليله لهم والإسراف في
منحهم وتمييزهم على بقية مواليه ، لم يكن يتوانى عن الضرب على أيديهم إذا
ما ابتدروا أحداً باعتماد . ولعلك سمعت عن مملوك بغداد وما جرى منه وكيف
عاقبه الخليفة المعتصم .



فقد حدث أن أميراً تركياً من المماليك — وكثيراً ما كان المعتصم يرفع
عبيده إلى هذه المرتبة — طلب من نائبه أن يدلّه على تاجر يقرضه خمسمائة
دينار على أن يردّها إليه حين « يفرجها الكريم » ، ويأتى ريع الإقطاع .
قال الوكيل إنى أعرف تاجراً متوسط الحال لديه المبلغ الذى تريد ، فإذا ناداه
الأمير وأجلسه فى مكان الشرف من مجلسه ، وطلب منه أن يقرضه هذا المال
فإنه لا يتأخر . فبعث الأمير رسوله للتاجر وتقابل معه فى قصره مقابلة ودية ،
وقد أخذ الأمير فى الثناء على التاجر ووصفه بالأمانة والتقوى وحسن السمعة
وقال إنه لثقتّه به يفكر فى أن يشركه فى مشروعاته المالية ، وطلب إليه أن
يعتبر قصره بيتاً له وأن يعامله كما يعامل الأخ أخاه . وجاء وقت الغداء
فأجلسه الأمير على يمينه وأخذ يختار له ما طاب من كل صنف ، ويلج عليه
أن يأكل وأحاطه بكل إجلال ومجاملة .

وانتهى الغداء وانصرفت حاشية الأمير فبقى مع التاجر على انفراد فحدثه
عن سبب استدعائه وأخبره أنه يعرف أثرياء بغداد جميعاً ، وأنهم يحبونه
ويرغبون فى أن يشركهم فى أعماله ، قال : « وأنا أستطيع أن أقترض منهم

عشرة آلاف دينار ، إلا أنى آثرتك فأقرضنى ألف دينار وأنا أردّها إليك بعد خمسة أشهر ومعها كسوة كاملة . فلم يستطع التاجر أن يرفض ولو أنه اعتذر عن عدم وجود المبلغ كله ، إلا أنه يستطيع دفع ستمائة دينار أذخرها مع الزمن الطويل المريع ، فقبل الأمير هذا القدر وأعطاه إيصالاً وتعهداً برده مع الكسوة ، ثم انصرف التاجر .

ومضت الأشهر الخمسة وكثر تردد التاجر على الأمير ، فلم يبد هذا أى إشارة على تذكره الدين الذى اقترض . . . ويئس التاجر من التلميح فكتب التماساً وقدمه للأمير فأجابه بأنه متذكر ، وأنه أمر نوابه بدفعه . . . وانتظر صاحبنا على غير جدوى . . . ولجأ إلى الوسطاء من أصدقاء الأمير فذهبت جهوده وجهودهم عبثاً . . . فهرع إلى القضاء ، وبذل القاضى كل ما يملك من وسيلة ، ولكنه فشل فى أن يرد للتاجر درهماً من دينه . . . فيئس الرجل وأسلم أمره لله .

وذهب إلى الجامع يصلى ويبث ربه شكواه ، ورفع يديه للسماء ودعى ربه أن يظله بحمايته وأن يرد إليه حقوقه . . . وسمعه درويش بجانبه فسأله عن أمره فقص عليه قصته .

قال الدرويش : هدىء من روعك يا صاحبي ولا تيأس فإن الحق فى هذا العهد لا يضيع ، إذهب إلى « حى الجامع » وادخل الدكان الصغير المجاور للباب ، تجد خياطاً متواضعاً ، فاستأذن وقص عليه قصتك ، يحضر إليك مالك من الأمير .

فذهب التاجر ، ولقى الخياط وقص عليه قضيته ، فأمر هذا أحد الصبيان أن يترك الإبرة وأن يذهب إلى قصر الأمير ويخبره أن الخياط يطلب إليه أن يرد مال التاجر الذى استدانه فقد انقضى ميعاده . وبقي التاجر متعجباً مما

يرى ويسمع ، وعاد صبي الخياط فأخبره أن الأمير حاضر ليرد للتاجر ماله وليعتذر إليه عن تأخير السداد . وبعد لحظات جاء الأمير فنزل عن حصانه وقبّل يد الخياط ، وحيا التاجر وأعطاه الستمائة دينار معتذراً ، وانصرف ... لم يدر بخلد التاجر أنه سيصل إلى حقه ، ولم يلجأ إلى الخياط إلا تسليّة ومحاولّة يأس ، فلما رأى ما رأى عرض عليه أن يأخذ مائة دينار ، فنظر إليه الخياط مؤاخذاً وربّت على كتفه معتذراً ... فعاد التاجر يلح وأعاد الخياط الاعتذار والرفض ... وذهب التاجر إلى بيته يتفكر فيمن يكون هذا الخياط وما شأنه ؟ وفي اليوم التالي أحضر حملاً مشوياً وأصنافاً من الحلوى وسار إلى الخياط ، ورجاه أن يأكل مما أعدّه ، فطيب هذا خاطره ، وتناول بعض الطعام ثم أعطى باقيه للصبيان ...

ثم سأل التاجر الخياط عن نفوذه وسر سطوته على الأمير مع عجز القاضي عن تحقيق العدالة حياله ، فسكت الخياط قليلاً ثم قال إن لهذا قصة سأقصها عليك : قال



كان ببغداد أمير تركي ذو سطوة وجبروت ، ولم يكن أحد يجرؤ على مراجعته أو نقد أعماله ، وكان الحكام يخشون بأسه فلا ينصتون لشاك منه ، فطغى التركي وبلغى وتكبر ... وحدث أن كنت في الدكان ذات يوم ، وإذا بالأمير يمر سيدة من شعرها ، والسيدة تصرخ ، وكلما رأت جماعة منا في السوق رفعت صوتها بأنها سيدة شريفة وزوجة ذات عفاف ، وأن الأمير يخطفها لأمر في نفسه ، وأن زوجها يطلقها إذا عرف أن الأمير اغتصبها غصباً ... وعلا صراخ المرأة ، وأتباع الأمير من حوله يبعثون الرعب في

قلوب الناس ، فلم يجرؤ أحد منا على تخليصها من يدي هذا الوحش الثائر . . .
فسرنا وراءه حتى إذا دخل القصر ، بعثنا إليه بأنا نريد مقابلته ملتجئين
سراح هذه السيدة ، فرد علينا بخشونة وأمر جنده بطردنا وضربنا فانصرفنا
أو قل ولينا منهم فراراً . . .

ذهبت إلى بيتي فلم أستطع النوم ، وكان من عادتي أن أوذن لصلاة الفجر
في الجامع المجاور لي ، وأنت تعلم أن السكران إذا اشتدت عليه وطأة السكر
غلبه النوم ، فإذا أفاق لم يدر في أي ساعة يكون ، فإل بخاطري أن أصد
المؤذنة وأنادي لصلاة الفجر ، قبل ميعاده ، عسى أن يحسب الأمير أن الفجر
لاح فيترك للسيدة حريتها فتعود إلى بيتها . . . فصعدت على المؤذنة ورفعت
صوتي مؤذناً ، في غير وقت الأذان . . .

كان الخليفة المعتصم مستيقظاً وقتذاك ، فلما سمع الأذان في غير الأوان
غضب ، فنادى حاجبه فأمره أن يحضر هذا المؤذن الجريء ، الذي يعبث
بالدين وبيت الله . . . فجاء الحاجب وساقني غاضباً إلى الخليفة الذي لم يكذب
يراني حتى نهرني مستنكراً ما أتيت من وزر ثقيل . . .

قلت فليهدأ مولاي وليسمع قصتي ، فلما سمع القصة ووقف على قصدي
من الأذان في غير الأوان ، هدأت نفسه وشكرني وقربني منه . . . ثم أمر
الحراس أن يذهبوا إلى قصر الأمير ، وأن يحضروه مكبلاً ، وأن يخرجوا
السيدة ويذهبوا بها إلى بيتها وأن يعتذروا لزوجها عن اعتداء الأمير ، وأن
يبلغوه أن الخليفة مقتص منه قصاصاً عادلاً . . .

وجاء الأمير فلم يستطع أن يدحض ما روى عنه ، فأمر الخليفة بأن يوضع
في كيس وأن يضرب بالعصى ، فظلوا يضربونه حتى دقت عظامه وصارت
هشياً . . . ثم ألقوه في دجلة . وأمر الخليفة بإذاعة قصته بين الناس ليعلموا

أن الأمراء الترك المماليك ، مهما بلغوا من القوة والبأس ، فإن الخليفة حامي المسلمين والقائم على تنفيذ شريعة الله قادر على أن يخضعهم ويذيقهم مر العذاب بما يأمون . . .

وأما أنا فقد علت مكانتي عند الخليفة ، وحمد لي شجاعتي في الحق وإيماني بالله ، وطلب إليّ أن أؤذن كلما رأيت ظالماً لم أستطع له دفعاً . . . ولذا أذعن يا صاحبي الأمير الذي أخذ نقودك ، عندما طلبت منه أن يرد دينك إليك ، ولولا ذلك لأذنت ولدفع الثمن غالياً من حياته . . .



هكذا يا مولاي ينبغي أن يكون سلوك الملك من ممالكه ، وإذا كان كان هذا سلوك المعتصم الذي سبقك بأكثر من قرنين ، حين كان الأتراك قلة وكان وجودهم بوصفهم موالى للخليفة ، فما بالك وأنت اليوم في دولة تقوم على الأتراك من القبائل التي انضمت إلى أسرتك الرفيعة . . .

إن على الملك الصالح أن لا يفرق بين أمير وصغير في مملكته ، فكلهم رعاياه ، وكلهم يشارك في عظمة الدولة ، وقد يكون نصيب الصغير في مجدها أعظم من نصيب الأمير . . . فلا تدعن أحداً منهم يعلو في الأرض ، ولا تصبرن على ضيم أصاب أحد رعاياك . . . واضرب على يد من يستكبر على أخيه ، إذا لعب برأسه جاه المنصب أو ما خلعت عليه من نعم . . . فإن الواحد القهار أقامك فينا لتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، وأما كيف يكون ذلك فحسبك من سيرة المعتصم مرشداً ودليلاً .

العجوز والوالى وأنوشروان

رأى السلاجقة حين صار الأمر كله إليهم فى إيران ، أن يقسموها إلى إقطاعات ، وأن يولى رؤساء القبائل التركية إدارتها ، على أن يعمل هؤلاء الرؤساء على تعمير إقطاعاتهم وجباية الأموال المستحقة عليها ، وليس لهم أن يأخذوا من الناس غير الضرائب المفروضة ، وعليهم جبايتها بالحسنى ، وإذا دفع الحرات ما عليه من الضريبة فمن حقه أن يكون آمناً على نفسه وأمواله ونسائه وعياله .

ولكى يتوفر للشعب الضمان فى أن السلطان يراعه ، إذا مسه من أصحاب الإقطاع ضرر ، وجب أن لا يحول أحدهم دون دخول الأفراد القصر لرفع مظلمة أو إثبات حالة . وإذا خالف أحد أصحاب الإقطاعات ذلك نزع منه إقطاعه ، وناله عقاب شديد ، ليكون مثلاً لغيره وعظة للآخرين . وعلى الناس أن يعملوا أن الإقطاعات وساكنتها ملك للسلطان ، وأن أصحاب الإقطاعات والحكام حراس عليها من قبله .

وأنا أحدثك يا مولاي عن أنوشروان وسيرته فى الرعية ويقظته فى حمايتها من جور العمال . فقد ولى أنوشروان العرش شاباً فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان أبوه قباد متساهلاً مع الحكام ، منغمساً فى اللهو ، حتى فشلت فى

أيامه آراء مزدك التي قلبت في إيران الأوضاع فأفسدتها كما قدمت
يا مولاي .

وكان أنوشروان عادلاً بطبعه منذ صباه ، يحق الحق ويدحض الباطل ،
فلما قضى على والده ، وخلص له العرش ، جمع حكام الأقاليم والأشراف ونصحهم
بالرفق بالرعية ، وإقامة العدل بين الناس ، وأوعدهم بعزل من يخرج على نصحه ،
وبقتل من يعتدى على أحد رعاياه . . . وانصرف الحكام إلى ولاياتهم ،
فساروا سيرتهم الأولى ، يظلمون الشعب ، ولا يعبأون بنصح الملك ، واستمر
الحال على هذا المنوال خمس سنين ، وأنوشروان يعلم ما يرتكبونه من أساليب
الجور وفنون الظلم ؛ ولكنه اتبع الصبر والمداواة .

وكان أقوى هؤلاء الحكام وأكثرهم ثراءً وجاهاً قائد ولاية آذربيجان ،
وقد أراد هذا ، أن ينشئ لنفسه حديقة ومنزلاً صغيراً في ضواحي البلد الذي
يقيم به ، وكان جزء من الجهة التي اختارها مملوكاً لعجوز فقيرة .

كانت العجوز قانعة بما تملك ، فقد كان كافياً لأن تدفع من غلته الضريبة
التي يتقاضاها الملك ، وأجر الحراث الذي يعمل في المزرعة ، ويتبقى بعد
ذلك ما يكفل لها أربعة أرغفة كل يوم ، فكانت تعطى رغيفاً لبائعي اللبن
والخضروات بدلاً عما تأخذه منهما ، ورغيفاً للبقال نظير ما تأخذ من الزيت
لتضئ سراجها ، ورغيفاً تأكله في غداها ورغيفاً في عشاها . أما ملابسها
فكانت تأتيها صدقة من جيرانها ؛ وكانت تؤثر الوحدة ، فهي حبيسة كوخها
لا تخرج منه إلا لحاجة ماسة ، ولا تكلم أحداً إلا كارهة ، ولكنها مع هذا
الفقر كانت قريرة العين ، شاكرة لربها جزيل نعمه عليها .

وأراد الحاكم أن يأخذ مزرعتها الصغيرة والكوخ الذي تسكنه ، فأرسل
إليها من يبلغها رغبته وأنه يسره شراء كوخها والمزرعة ، فأجابت بأنه يسرها

أكثر أن تحتفظ بهما ، لأنها لا تملك من حطام الدنيا غيرها ، ولأنها تأكل من المزرعة ومن ذا الذى يبيع مورد رزقه ؟
قال رسل الحاكم : إنا سندفع لك ثمن ما نأخذ وإن شئت نعطيك مزرعة بدلاً من مزرعتك ؛ فاعتذرت العجوز بأنها ورثت مزرعتها عن والديها ، وأن ماء الرى قريب منها ، وأنها سعيدة بجيرانها لأنهم يحترمون بؤسها ، وهذه كلها ميزات لا تتوافر فى مزرعة أخرى ، وناشدت رسل الحاكم أن يتركوا مزرعتها .

وعلم الحاكم أنها رفضت أن تعطيه المزرعة والكوخ ، فلم يتوان فى استغلال قوته ، فأخذ المزرعة عنوة وهدم الكوخ وأقام السور حول الحديقة الغناء التى غرسها !

أما العجوز فقد أبصرت نفسها ولا بيت يأويها ولا مزرعة تأكل منها ، وألفت الحاكم قد غضب عليها ، فلم يبق لها حام ولا راع ، فراحت تتوسل إليه أن يعطيها ثمن ما غضب أو بدلاً مما أخذ ، وكلما خرج إلى الصيد انتظرتة فى الطريق ورفعت بالشكوى والتوسل صوتها ، فكأن فى آذانه وقرأ فهو أصم لا يسمع ؛ والتمست من ضباطه أن يبلغوه شكواها ، قالوا إنا فاعلون ، سخرية منها .

ومضى عامان والعجوز فى فقر مدقع ، تأكل من فتات الناس وتعيش على عطفهم ، وكل لحظة تشتكى إلى الله حتى كادت تياس من رحمته . . . إلى أن مر بخاطرها ذات يوم أن فى « المداين » ملكاً هو ملك الملوك ، وهو فوق حاكم آذربيجان ، وهو قادر على أن يرد لها مزرعتها أو ثمنها أو مزرعة بدلاً منها ، ولكن كيف تسمعه شكواها ؟

فعزمت على السير إلى المداين ، ولم تطلع أحداً على عزمها ، ثم مشت قُدُماً ،

يضئها بعدُ الشقة ، ويشد أزرها الأمل ، حتى بلغت المدائن وأشرفت على قصر الملك . ولكن كيف السبيل إلى دخول هذا القصر ومقابلة سيده ، ومن قبل كانت عاجزة عن دخول قصر حاكم آذربيجان الذي هو خادم للملك ؟

ورأت أن من الخير أن تلجأ إلى مكان قريب من القصر ، وأن تسأل عن موعد خروج الملك للصيد ، وأن تتقدم إليه بقضيتها حين تقابله وجهاً لوجه .

ويشاء القدر أن يخرج الملك إلى الصيد وفي حاشيته حكام الولايات جميعاً ، فذهبت العجوز واختبأت وراء شجرة ، وحين بلغ أنوشروان مكانها ، بادرته — ولما يتزل عن حصانه — قائلة : إذا كنت ملك الدنيا فارحم التي جاءتك تشكو ظلم واليك ! فأدرك أنوشروان أن أمراً ذا بال حملها على أن تلجأ إليه وأن تسلك هذا السبيل الصعب لمقابلته ، فاقرب منها ، وهدأ روعها ثم استمع إليها واغرورقت بالدمع عيناه ثم قال : خفي عن نفسك يا أماء فإن قضيتك بالأمس هي قضية الملك منذ اليوم

ثم أمر أحد حجابه أن يتولى أمر العجوز البائسة وأن يحملها على حصانه إلى رئيس القرية لتقيم في بيته ، حتى تستريح ، وأمر بأن تعطى كل يوم عشرة أمان من الخبز ومناً من اللحم ، وخمس قطع من الذهب كل شهر

وعاد الملك من الصيد وهو يفكر في شكوى العجوز وكيف يحققها . اختار أنوشروان غلاماً ذكياً من خدمه وكلفه أن يذهب إلى آذربيجان وأن يسأل عن قصة العجوز وأظهر أمام الحكام — ومنهم حاكم آذربيجان — أنه أوفد الغلام ليطلع على حال المدن والقرى ومقدار ما ينتظر من غلات

وجاء الغلام فأخبر ملكه أن العجوز الشاكية سيدة من أسرة نبيلة ، كانت تعيش مع زوجها وبنيها ، ولكنهم ماتوا جميعاً وتركوها وحيدة . . . وأناخ عليها الدهر فمستها الفاقة ولم يبق لها إلا المزرعة التي كانت تأكل منها ، والكوخ الذى تأوى إليه .

وقضى أنوشروان نهاره وليله يفكر فى العقوبة التى يجازى بها هذا الحاكم الظالم ، وفى اليوم التالى أمر حاجبه بأن يطلب إلى والى آذربيجان أن ينتظر حتى يناديه الملك ، وأن يدع بقية الأشراف يدخلون القاعة حيث جلس الموابذة .

ودخل الملك القاعة فقام الجميع إجلالاً ، وحين جلس أشار إليهم بالجلوس فجلسوا ، ثم قال : أريد أن أسألكم أسئلة وأن تجيبوني عليها بضمائمكم ، فقالوا : سمعاً وطاعة . قال : كم يملك حاكم آذربيجان من النقود ؟ قالوا مليونين من الدنانير فوق حاجته . وكم له من الآنية والأدوات ؟ له منها ما يساوى خمسمائة ألف دينار ، وهى من الذهب والفضة . وكم له من الضياع والعقار ؟ ليس فى خراسان والعراق وفارس وآذربيجان مدينة أو ناحية إلا وله فيها القصور والأربطة وغيرها مما يستغل .

وكم له من الخيل والبغال ؟ ثلاثون ألفاً .

وكم له من الغنم ؟ مئتا ألف .

وكم له من الجمال ؟ ثلاثون ألفاً .

وكم له من العبيد ؟ له ألف وسبعمئة غلام ما بين تركى ورومى وحبشى ، وله أربعمئة جارية .

قال الملك : الرجل الذى عنده هذه الثروة والذى تجدون على مائدته كل يوم عشرين صنفاً من الطعام ، عدا الخراف والحلوى ، بماذا يعاقب إذا اغتصب

رغيفين من الخبز القفار ، هما قوت عجوز ضعيفة من عباد الله الصالحات ؟
فأجابوا جميعاً : إنه يستوجب أشد عقوبة .

فأمر أنو شروان بسلخ حاكم آذربيجان ، وبإعطاء لحمه للكلاب ، وبحشو
جلده بالتبن ، وأن يعلق على باب القصر ، ثم أمر بأن ينادى المنادون سبعة
أيام بأن من يسلب غيره مالا ، مهما كان تافهاً ، يلق ما لقي هذا الحاكم
الطاغية من عقاب . . .



والتفت أنو شروان إلى الحكام والأشراف وقال : لأحمين الحمل من
الذئب ، ولأقطعن الأيدي التي تتطاول معتديةً ، ولأقضين على المفسدين في
الأرض ، ولأعمرنهن بالعدل والأمن ، فمن أجل هذا وليت العرش ، ولو كان
للقوى أن يفعل بالضعيف ما يشاء ما أمد الله الملوك بتأييد من عنده ليقيموا
العدل بين الناس .

ثم أمر بأن تعطى العجوز القصر الذي بناه الحاكم في مزرعتها وما يتبعه
من بساتين وأن تمنح الركائب والنفقات اللازمة لعودتها سالمة إلى بلدها ،
ثم ودعها وسألها أن تدعو له في صلاتها . وأمر بعد ذلك بفتح باب قصره
للمظلومين من شعبه ، وقال إن الأمراء والرعية كلاهما شعبي ، ولكن أفراد
الرعية يدفعون المال والأمراء يأخذونه ! وينبغي أن تفتح أبواب قصرى
للمعطين أكثر من فتحها للأخذين . . .

ولو كانت أبواب القصر مفتوحة أمام المظلومين لما لجأت العجوز إلى
الاختباء وراء الشجرة منتظرة ملاقة ملكها وهو في رحلة يصطاد . ثم أمر
الملك بمد سلسلة من باب القصر إلى قاعة العرش ، بحيث يستطيع طفل في

السابعة من عمره أن يمسكها بيده ، وتنتهي هذه السلسلة بناقوس يدق في القاعة ، فإذا أراد متظلم أن يسمع الملك شكواه ، فعليه أن يمسك السلسلة . . .

* * *

وظل الناس يتمتعون بالأمن ، ولم يتلق الملك أى تظلم ، إلى أن كان ذات يوم ، سمع الملك الناقوس فأمر عبيد له بأن يذهبا للباب ويريا من الشاكي . وعاد الرجلان فأخبرا أنوشروان أنهما لم يجدا شاكيًا ولكنهما وجدا حمارًا ضعيفًا أجرب يحك جسده بحائط القصر فيمس السلسلة فيدق الجرس . فقال أنوشروان ، بل إنه مظلوم جاء يشكو ظلم الإنسان له ، إذهبا إلى السوق ، وانظرا ماذا كان من أمره مع صاحبه . فلما ذهب الخادمان إلى السوق عرفا أن الحمار كان لغسل في السوق ، وأنه ظل يستخدمه في نقل أحمال الملابس عشرين عامًا ، وكان يعلفه ويعتنى به في هذه المدة ، فلما كبر الحمار وأصبح غير قادر على الحمل ، ولا فائدة فيه ، سرّحه صاحبه . وقد ظل سنة ونصف نجب في الطرقات ، ويأكل مما يجود به الخيرون عليه ، ولكنه منذ يومين لم يأكل . . . فعاد الرجلان وأخبرا الملك بالقصة ، فأمرهما بإحضار الغسل ، ومعه أربعة من أرباب العائلات في السوق ، فلما جاءوا ، أمر الملك الغسل ، على مسمع من صحابه ، بأن يعنى بالحمار ما عاش ، فإذا قصر في رعايته فإنه يقتص له .

(سياست نامه ٥)

الملك والقروى

خرج ملك مع جماعة من خاصته للصيد فى فصل الشتاء ، فأوغلوا فى السير ، وأرخى الليل سدوله ، وهم بعيدون عن المدينة ، فرأوا بيت قروى فاقترح الملك أن يذهبوا إليه ، حتى ينجو من البرد . فقال أحد الوزراء :

إنه لا يليق بقدر الملوك أن يلبأوا إلى بيت قروى صغير ، إنا سنقيم خيامنا هنا ونوقد النيران ، فنبيت ونتدفأ .

وسمع القروى بهذا الكلام ، فجهز ما لديه من طعام وحمله إلى السلطان ، وأدى له التحية ثم قال :

إن قدر السلطان لا ينزل بهذا القدر الضئيل من الطعام ، ولكنهم أرادوا أن لا يرتفع قدر القروى .

فتأثر الملك بقوله ، وانتقل إلى بيته ف قضى ليله فيه ، وفى الصباح منحه الأنعم والخلع ، فقال وهو يسير فى ركابه :

لم يتضع قدرك بتشریفك بيت القروى ، يا مولای .

بل إن عمامة القروى بلغت الشمس ، لأنك مددته بظلامك .

أسد الدولة وقاضى نيسابور

قال نظام الملك :

وعلى الملك أن يكون واسع الحيلة ، ذكى الفؤاد ، وأن لا يقف جامداً أمام ما يعرض عليه من أمور ، ومن حق الرعية عليه أن يسهر على شئونها ، وأن يقضى اللىالى متفكراً فى قضاياها ، وأنا أقص على مولاي ما عمله أسد الدولة مع قاضى نيسابور ؛ قال :

كان أسد الدولة من أكثر سلاطين الديلمة حرصاً على إقامة العدل بين الناس ورعاية مصالحهم ، وقد حدث أن كتب إليه أحد المخبرين يقول :
مولاي ، لم أكد أسير مائتى خطوة لتنفيذ ما أمرت به ، حتى قابلت شاباً شاحب اللون ، مغبر الوجه ، مثخناً بالجراح ، فابتدرنى بالتحية خبيته ، وسألته عن حاله فقال : « إني أنتظر رفيقاً يصاحبني إلى بلد فيها ملك عادل وقاض لا يظلم » ، قلت : « أتريد ملكاً أقرب إلى العدل من أسد الدولة وقاضياً أعدل من قاضى نيسابور ؟ » فقال نعم ، ولو كان أسد الدولة عادلاً ، مهتماً بأمر رعيته ، لاستقام قاضيه ، ولكنه لم يفعل ، فهو غير عادل . . . قلت حدثني عن أمرك لعلك تقصر بالحديث الطريق فقال :

إعلم أنى ابن فلان التاجر العظيم ، وكان بيتنا فى حى كذا ، ويعرف أهل

نيسابور ما ترك أبي من الثراء ، وما خلف من خدم وعبيد . . . وقد ورثت عنه هذه الثروة الطائلة وأنا شاب ، فعبثت ما شاء شبابي وفتوتى أن أعبت ، حتى أصبت بداء عضال يئست من برئى منه ، فنذرت للرحمن نذرا ، أن أهب للفقراء جانباً من ثروتى ، وأن أعتق موالى ، وأن أذهب حاجاً ثم أنضم إلى المجاهدين فى سبيل الله ، إذا من ربي على بالشفاء . . . وشفيت فوفيت بالنذر ، فأعتقت عبيدى نساءً ورجالاً ، وأعطيتهم من المال ما يكفيهم ، وزوجت من أراد الزواج منهم . . . ثم بعثت أملاكى فوهبت جانباً للفقراء وبقي لدى خمسون ألف دينار . . . ورأيت أن من الخير أن أكتفى بثلاثين ألفاً أنفقها فى رحلتى ، وأن أودع العشرين ألفاً الباقية عند رجل أمين ، فاشتريت إبريقين من النحاس وضعت فى كل واحد منهما عشرة آلاف دينار ذهباً ، ورأيت أن أصلح الناس فى البلد لرعاية أمانتى هو القاضى ، فذهبت إليه ، وأوقفته على قصدى ، واستودعته الإبريقين ، وسلمت عليه وانصرفت . . .

أديت فريضة الحج ، ثم سرت من الحجاز إلى حيث الفرقة التى تحارب الكفار فانضمت إليها ، وذهبنا لحرب الروم : فوقعنا فى الأسر ، بعد أن أثخننا فى الجهاد بالجراح ، ومرض ملك الروم ، وخاف أن يلقى ربه ظالماً فأفرج عن أسرى المسلمين ، فأخذت أتكسب عيشى بشق النفس ، وسرت من بلد إلى بلد حتى بلغت نيسابور بعد غيبة عشر سنوات . . . وقابلت القاضى فأنكرنى . . . ولم أكن أستطيع أن ألجأ إلى أقاربى وصحبى بعد أن طالت غيبتى عنهم ، وقد تغير حالى مما لقيت من ذل الفقر وقسوة الأيام . . . فكنت أبيت فى المسجد وأتوارى عن الناس فى النهار . . . لا أطيل عليك الحديث : ذهبت للقاضى المرة تلو المرة ، فكان ينهرنى ويطرذنى ويتهمنى

بالجنون ، فلم أر بداً من أن أعرض عليه خمسة آلاف دينار مما استودعته ، فأبى . . . فعرضت عليه إبريقاً بما فيه ، وذكّرته بعذاب الله يوم القيامة فكان في آذانه وقراً . . . ثم التفت إليّ وقال : إذا لم ترجع عن التحدث إليّ في هذا فإنني مخاصمك أمام القضاء وسترى أن رجّته بك . . فخرجت من عنده يائساً ، وأدركت أنه لن يرد إليّ ذهبي . . . وذكّرت المثل السائر : إذا فسد اللحم أصلحوه بالملح ولكن ما الحيلة إذا المالح فسد ! وختم يامولاي حديثه بقوله : لو أن أسد الدولة كان عادلاً لما يئستُ من تحصيل ذهبي . .



فلما اطلع أسد الدولة على هذا الخطاب أمر بإحضار الشاب فسمع منه شكواه فقصصها كما رويت له في الخطاب من قبل ، وحرار السلطان في هذه القضية ، فإنه كان يخشى معاقبة القاضي قبل التثبت من صحة أقوال الشاب ، وقد عُرف القاضي بالتقوى وسعة العلم ، فأخذ يفكر في طريقة يثبت بها خيانة قاضيه .

وفي ذلك الوقت كان القاضي سعيداً ، وأخذ يحدث نفسه بأن الشاب صاحب المال لن يمتد به العمر بعد ما لقي من هوان الفقر وخيبة الأمل ، وقد أثننته الحرب جراحاً وهدمت كيانه . . . وأن المال الذي وقع غنيمة في يده لا سبيل إلى استرداده . . .

ودق باب القاضي فإذا برسول من أسد الدولة يناديه . . . فلما ذهب عند السلطان قال هذا له :

أتدري لماذا أرسلت في طلبك ؟ إنني يتراءى إليّ شبح الموت ، ومهما يكن فأنا أخشى أن يسلم الله على ملكاً ينتزع مني ملكي كما انتزعته أنا من

قبل ، أو أن يدركنى الموت الذى لا مفر منه ، وأنا أخشى الأمرين جميعاً ،
فلتجعل كلامى إليك سراً لا يطلع عليه معنأ غير ربك ذى الجلال . إن لدى
من الأموال ما لا يحصى ، وأريد أن أحفظها عندك ، فإذا كان أن غيبتُ
عن العرش لأحد الأمرين ، ووجدتَ ولدى ونسأى فى يوم ذى مسغبة ،
فاعطهم المال الذى لديك ، وليكن الله شاهداً على ما بيننا وهو نعم المولى
ونعم الوكيل .

ثم أمره السلطان بأن يبنى فى بيته خزانة كبيرة تسع الصناديق التى تحوى
اللاآتى والفضة ، وأعطاه مائتى دينار ليجهز بها البناء . . .
وبعد أيام عاد القاضى ليخبر السلطان أنه أعد المكان ، فشكره وامتنح
همته وشهامته واستقامته ، ثم قال : إني أعددت مليوناً وخمسمائة ألف دينار ،
وما يساوى خمسمائة ألف دينار من الأمتعة التى سيشتريها التجار لتحتفظ
بثمنها ذهباً . . . وإني حاضر عندك غداً لأرى المكان الذى أعددتَه لحفظ
المال . . . ورأى السلطان منزل القاضى وأعجب بحسن إعداده لمكان النقود ،
وأمره أن يحضر يوم الثلاثاء ليدير نقل الأموال إلى الدار .



عاد السلطان إلى قصره فأمر خازنه ان يعد مائة وأربعين إبريقاً وأن يملأها
ذهباً ، وثلاثة أكياس من اللؤلؤ ، وكأساً من الذهب مملوءة الياقوت الأحمر
وآخر مملوء اللعل ، وثالثاً مملوء الفيروز ، وأن توضع هذه أمام الأباريق .
وجاء القاضى فى الموعد المحدد ، فأراه أسد الدولة الأموال ، وقال عليك أن
تنقلها فى منتصف الليل فى يوم الاثنين من الأسبوع المقبل . . .
(أما القاضى فانصرف إلى بيته مسروراً ، يؤمل فى الثروة التى تكون له

عند ما يموت السلطان أو يخلع فيتنكر لأولاده ويستحوذ على أمانته التي أودعها لديه بوثيقة من الشرف غير مسطورة . . .
وأما السلطان فقد أمر الشاب أن يذهب إلى القاضي ، وأن يطالب بأمانته عنده ، وأن يعود إليه . . .



دق باب القاضي فإذا بالشاب المريض يحمله ، ويطلب الإبريقين اللذين أودعهما عنده قبل السفر ويهدده برفع الأمر للسلطان . . . ويضحك القاضي ويرى أن الخير أن تظل نيته خافية على السلطان ، فيشترى مائة وأربعين إبريقاً مع كؤوس ملؤها الجواهر بإبريقين ! فيأخذ الشاب من يده ويجلسه بجواره ، ويطيب خاطره ، ويعتذر له بأنه لم يعرفه في المرات الأولى . . . ويسلمه الإبريقين بما فيهما . . .

ويعود الشاب إلى السلطان ويخبره أن القاضي أعطاه الإبريقين بما فيهما من ذهب ، فيتأكد من صحة اتهم الشاب له .
ويأمر أسد الدولة بإحضار القاضي حافي القدمين ، عاري الرأس ، غنيء به وقد لفَّ شالُ عمامته على رقبته ، وسحب منه كما تسحب البهائم . . .
ويجرد القاضي من أمواله ، ويعوض الشاب من هذه الأموال بقدر ما لقي من ضيق ، ويطاف بالقاضي في أسواق المدينة ، ويُنادى في الناس أن هذا جزاء من أؤتمن نخان .

السلطان محمود وقطاع الطريق

واعلم يا مولاي أن على الملك أن يعرف معرفة تامة ، أحوال بلاده ، من أقصاها إلى أقصاها ، وهذه بلا شك مهمة شاقة على ملك أتاح الله له ما أتاح لك من الفتح المبين حتى شملت دولتك بلاداً عدة . . . وهذه البلاد الواسعة تحتاج معرفتها إلى فسحة من الوقت ، ووفرة من الذكاء والعناء . . . ألا إن عبء الملك يا مولاي أثقل الأعباء طراً ، والملك وإن توفرت له مظاهر الأبهة والجلال فإنه في الحقيقة مثقل الكاهل بما ألقى عليه ربه من مسئولية الحكم النزيه . . . وعلى الملك أن لا يعتمد على ولايته في المحافظة على الأمن ، بل إن عليه أن يشاركهم الرأي في ذلك ، وأن يرسم لهم خطتهم التي يتبعونها . ألم تر إلى محمود الغزنوي وقد اغرورقت بالدمع عيناه ، حين أتته امرأة تشتكي من عصابة كوج وبلوج التي سطت عليها فجردتها من أموالها ، وهي نازلة في خان ديركتشكين ، فإنه لم يكن يعرف مكان هذا الدير ، فلامته وقالت لا تفتح من البلاد إلا بقدر ما تستطيع أن تعرف وتدبر وتنشر الأمن ! إذ كيف يطمع في فتح العالم ملك لا يعرف بلاده ؟ اغرورقت عيننا محمود بالدمع حين أنبته المرأة ولم يغضب ، بل وافق على كلامها وأعطاها من الذهب بقدر ما سرق منها ، ثم كتب إلى واليه في كرمان أن يتعقب المجرمين ويقتلهم أو يأتي بهم في الأغلال مصفدين .

فأجابه الوالى بأن كوج وبلوج بلاد تفصلهما عن كرمان عوامل جغرافية تعوق سير الجيوش المنظمة ، وتتيح لأهلها الدفاع عن أنفسهم فى قوة ، وقد جلب هؤلاء على الشر والايذاء ، وهو عن ردهم عن الغواية عاجز ؛ فلما علم محمود هذا ، استعان بالحيلة ليقضى على الأشرار ، وليقيم الأمن والسلام فى دولته . كتب محمود إلى واليه فى كرمان أن يذهب إلى حدود كوج وبلوج وأن ينتظر بجيشه هناك ، حتى يبعث إليه رسولا لبدء القتال . ثم أوعز لجماعة من التجار الراغبين فى الذهاب إلى يزد ، عن طريق كرمان أن يستعدوا للسفر ، فإنه سيبعث معهم حرساً من جنده الأشداء ، يقونهم شر عصابة كوج وبلوج وسرّ التجار بهذا فأسرعوا فى تهيئة قافلتهم وأعد لهم محمود حرساً من خمسين ومائة فارس على رأسهم أمير تركى ، وقال للأمير : إنزل بإصفهان ، وأعلن من يريد الذهاب إلى كرمان من تجارها بالاستعداد للسير معك ، وأمكث بها عشرة أيام حتى يهيء التجار حوائجهم ، واشتر من هناك عشرة أجمال من التفاح ، وحملها على عشرة جمال ، ثم سر بالقافلة إلى يزد ، فإذا اقتربت من الكوج فانزل ، ومر بالليل بإحضار أجمال التفاح فأدخلها فى مخيمك واثقب كل تفاحة بإبرة مغموسة فى السم الذى بهذه الزجاجة ، وضع التفاح المسموم فى السلات واجعلها فى مكان ظاهر ، ونبه على حراسك بأن لا تمتد إليه يد أحد منهم .

ففعل القائد ما أمر به السلطان

وسارت القافلة مع حراسها ، وكان لصوص الكوج قد بثوا فى إصفهان عيونهم ، فراحوا إلى ساداتهم ، وأخبروهم أن قافلة تقوم من إصفهان لم ير مثلها من قبل ، فإنها تحوى أكبر عدد من التجار ضمته قافلة ، وفيها من الأموال والبضائع مالا عين رأت ولا أذن سمعت وأن هذه القافلة تسير

في حراسة جند لا يزيدون على خمسين ومائة فارس . . . وفرح رجال العصابة بما سمعوا ، واستعدوا للهجوم على الفريسة الدسمة ، وأعدوا عدتهم وجمعوا من رجالهم أربعة آلاف رجل . . .

واقتربت القافلة من مكان العصابة ، وأتى حراس الطريق ينبئون الأمير بأن الخطر محقق ؛ إذا هو تقدم ، فإن اللصوص ينتظرون مقدم التجار منذ أيام ، وأن عددهم كبير لا تقوى جماعته على صددهم ، وأن الخير كل الخير في العودة من حيث أتى . . .



وجاء الليل فجمع الأمير التجار ، وكانت أخبار العصابة قد ترامت إليهم ، فارتعدت فرأئصهم ، وظهر عليهم الذعر والهلوع ، فطمأنهم الأمير ، وأكد لهم أن السلطان قد عمل على حمايتهم ، وأنه يعرف كيف يدفع عنهم السوء . . . وطلب إلى شجعانهم أن يحملوا أسلحتهم ، وأن يستعدوا للقتال حين يأمرهم ؛ ولكنه أخبرهم أن قطاع الطرق لا يعتدون بالقتل إلا على من يقاومهم ، فعلينا أن لا نقاوم إذا هوجمنا ، بل إننا سنترك البضائع والدواب ونولى الأدبار ، وسأسبقكم أنا ، وننتظر بعيداً عن أموالنا ، إلى أن يهيء الله أمراً ليس في الحسبان . . .



ودنت الساعة وإذا باللصوص يسدون المنافذ على القافلة ، ويهجمون عليها من ثلاث جهات ، وسيوفهم مسلولة . . . فرجع الأمير وتبعه التجار ، تاركاً البضائع نهباً للناهبين . . .

ووجد اللصوص التفاح الإصفيهاني معروضاً في سلاته الجميلة ومحاطاً

بالقطن حتی لا یفسد ، فأخذوا یتخاطفونه ، ویأکلون منه فی نهم ای نهم !
ولم یکد الصبح یتنفس حتی صعد الأمير علی ربوة وأطل علی مکان القافلة
فرأی اللصوص وقد تبعثرت أجسادهم بنجوارها ، قتلهم السم الزعاف الذی
یحمله تفاح إصفهان .

فصاح الأمير فی رجال القافلة ، فقاموا وقتلوا من بقی من اللصوص
وجمعوا أسلحتهم . . .

ثم أرسل الأمير رسولا إلی والی کرمان ، وكان مرابطا بجیشہ علی حدود
بلاد الکوج ، یقول له یأمرک السلطان أن تدخل الکوج والبلوج الیوم ،
وأن تفتحها وتقتل رجالها ، وتجمع ما فیها من المال المسروق وتبعثه
للسلطان . . . وأن تنادی فی کرمان بأن من سرق منه شیء فلیطالب به .
وهكذا نجح محمود فی القضاء علی العصاة الخطرة .

(سیاست نامہ ۱۰)

۱۴

لقمان وحکمتہ

سئل لقمان ممن تعلمت الحکمة ؟

قال :

من الجھلاء ، فکلما رأیت عیباً فیهم تجنبته .

(کاستان)

السلطان محمود والقاضي والرفاء

قال ملكشاه لوزيره : كم كان عظيماً هذا السلطان الغزنوي ، إنني معجب به ، راغب في تقصى أخباره ، فزدنا عنه قصصاً . فقال نظام الملك :
كان محمود جالساً ذات صباح لتفقد شئون رعاياه ، فجاءه شاب كسير الفؤاد وقال : « إني أودعت القاضي كيساً من الحرير الأخضر به ألفا دينار من الذهب النيسابوري ، وسافرت إلى الهند ، فوقع لي في الطريق حادث ، حملني على العودة ، فذهبت إلى القاضي وسألته رد الأمانة ، فأعطاني الكيس الذي استودعته ، ولكنني عندما ما فتحت في بيتي ، وجدت نقداً من النحاس بدلا من دنانير الذهب ، وعدت إلى القاضي أطلب ذهبي ، فأنكر ذلك مني ، وولى عني غاضباً ، فاسمع يا مولاي صوت الذي جاء يشتكي إليك ، خاوي الوفاض ، لا يجد قوت يومه » .

فتأثر السلطان من قول الشاب وأمره بإحضار الكيس فأحضره . وأخذه محمود ، وجعل يقلبه بين يديه فلا يجد علامة على أنه فتح ، فقال للشاب :
« سأعني يا بني بالامر ، وقد أمرت بأن تعطى كل يوم ثلاثة أمان خبزاً ، ومنأ لهما ، وأن يصرف إليك دينار كل شهر ، إلى أن يتبين الحق في قضيتك » .
ودخل محمود غرفته ليستريح بعد الغداء ، فوضع الكيس أمامه ، وأخذ يفكر كيف استطاع القاضي أن يبدل الذهب بالنحاس من غير أن يفتح

الكيس ؟ خال بخاطره أن القاضى قد شق الكيس ، فأخرج ذهبه ووضع النحاس ، ثم بعث به إلى الرفاء فأحكم رفيه .

وكان عند السلطان مقرمة (ستر) جميلة ، موشاة بالذهب ، تغطى بها الوسادة ، فقام بالليل ، وشق المقرمة ، ثم نام ؛ وفى الصباح الباكر خرج للصيد ، رحلة ثلاثة أيام .

وجاء الفراش الخاص لينظف الغرفة ، فوجد المقرمة ممزقة ، فهاله ما رأى وصاح باكياً . وسمعه فراش عجوز فى الديوان فسأله عما أبكاه ، فقال لأستطيع أن أخبرك عنه ؛ فهذا العجوز من روعه ، واستوضحه الأمر ، فقال : إن رجلاً يحقد علىّ قد دخل القصر خلسة ، وشق مقرمة وسادة السلطان شقاً طوله ذراع ، وسيقتانى السلطان إذا رآها . فسأله العجوز إذا كان أحد سواه رآها ، فقال كلا . قال العجوز : إذا فاهداً بالاً يابنى فإنى واجد مايفرج كربتك ، وقد خرج السلطان للصيد ، وسيبقى به ثلاثة أيام ، نخذ المقرمة ، واذهب الى حى كذا ، وسل عن رفاء اسمه أحمد ، إعطه إياها يرفيها بحيث لايعرف أحد من أين رُفيت ، وأعطه الأجر الذى يينغى ، فهو أمهر الرفائين فى بلدنا ، وكل أهل هذه الصناعة هنا من صبياناه .

وذهب الفراش إلى أحمد الرفاء ، فأصلح المقرمة إصلاحاً دقيقاً وطلب نصف دينار أجراً ، فأجره الفراش ديناراً كاملاً . وعاد الفراش بالمقرمة إلى القصر هادى النفس ، قرير العين ، وغطى بها الوسادة ، وكان شقاً لم يكن بها .

* * *

وعاد السلطان من الرحلة ، ودخل غرفته بعد الغداء ، فالتقى على المقرمة نظرة فوجدها قد رفيت رفيفاً لم يستطع أن يتبين مكانه ؛ فأمر بإحضار

الفراس فسأله عن رفاها ! فقال هذا ، وقد كاد يغشى عليه : إنها لم تكن ممزقة يامولاي ، وقد كذب الوشاة فادعوا ذلك .

لاتخف أيها الأحق ، فإنني أنا ممزقتها لغرض في نفسي ، قل من رفاها .
رفاها رفاء اسمه أحمد يامولاي ، دلتني عليه فراس بالقصر .
إذهب وأخضره ، وقل له إن السلطان يريد أن يراك .

وعاد الفراس ومعه الرفاء ، فلما رأى هذا السلطان ارتعدت فرائصه ، فقال له السلطان :

لاتخش شيئاً يا أوستاد (أوسطى) واقترب مني ، أأنت أصلحت المقرمة ؟

نعم يامولاي .

لقد أظهرت مهارة فائقة .

لقد نجحت بفضل ما يصاحب مولاي من التوفيق .

أليس في هذه المدينة من الرفائين من يماثلك ؟

كلا يامولاي .

سأسألك عن أمر أحب أن تصدقني الإجابة عنه .

ليس أصوب من الحق مع السلطان .

أرفيت هذا العام كيساً من الحرير الأخضر في بيت عظيم ؟

نعم يامولاي ، في بيت قاضي المدينة ، وكفأني بدينارين .

— فإذا رأيت الكيس فهل تعرفه ؟

— نعم يامولاي .

فأخرج محمود الكيس من تحت وسادته وأراه للرفاء فعرفه ، فسأله

السلطان عن مكان رفيه ، فأراه إياه ، وتعجب السلطان من دقة الصناعة .

قال السلطان : فإذا دعت الحاجة فهل تستطيع أن تشهد بذلك أمام القاضي ؟
ولماذا لا أشهد يا مولاي .

* * *

وأرسل محمود الغزنوي في طلب القاضي وصاحب الكيس . فأمر بإدخال القاضي وإبقاء صاحب الكيس مع الرفاء ، خارج القاعة .
فلما دخل القاضي ، حيا السلطان وجلس كعادته . فالتفت هذا إليه وقال :
إنك شيخ كبير وعالم ، وقد وليتكم أموال المسلمين ورقابهم ، واعتمدت عليكم ، وفي بلادى ألفنا رجل أعلم منك ، وهم عاطلون لا يعملون شيئاً ، فهل يليق بك أن تخون ، وأن لا تؤد الأمانة وتغتصب أموال غيرك ؟
قال القاضي : مولاي ، ما هذا الكلام ، ماذا عملت ؟
هذا ما عملت أيها الكلب المنافق ، وأراه الكيس قائلاً : هذا هو الكيس الذى أوثمنت عليه فأبدلت ذهبه نحاساً ثم رفيته ، وأعطيته لصاحبه محكم السداد كأنك لم تفعل به شيئاً !
أهكذا تكون سيرتك وديانتك ؟
قال القاضي :

مارأيت هذا الكيس قط ، ولا علم لى بما يقول مولاي .

* * *

فأمر السلطان بإدخال الرفاء وصاحب الكيس وقال : أيها الكذاب الأشر ، هذا هو الرفاء وهذا هو صاحب الكيس ، ومن هنا مزقته ورفيته .

فجّل القاضی وُمَلَّءَ رعباً ، ولم یحر جواباً .

فقال محمود : اقبضوا علی هذا الکلب ، واحجزوه حتی یعطى الذهب لصاحبه فی التو وإلا ضربت عنقه .

فحملوا القاضی إلى السجن ، نصف میت ، وطالبوه بالذهب ، فطلب وکیلہ فدلہ علی مکانہ فأحضر هذا ألفین من الدنانیر ، فأعطوهم للشاب صاحب الکیس .

وفی الیوم التالی جلس محمود لنظر المظالم فقص علی الملاء قصة قاضیه ، ثم أمر بإحضاره وشنقه علی شرفة القصر ، علی أن تدلی رأسه إلى أسفل ؛ فشفع له العطاء ، لأنه شیخ کبیر ، وقاض عالم ، واشترى الرجل نفسه بخمسين ألف دینار ، فأخذوا منه المال ، وعزلوه .

(سیاست نامه ۱۳)

۱۶

الحمد

ماشکوت من الزمان ، ولا برمت بحکم السماء ، إلا حین حفیت قدماى ، ولم أستطع شراء حذاء ، فدخلت جامع الکوفة وأنا ضیق الصدر ، فرأیت رجلاً بلا رجلین ، فحمدت الله وشکرت نعمته علیّ ، وصبرت علی ما ابتلانی من حفاء .

(کلستان)

رقيق أصبح ملكاً

قال ملكشاه : يزيدنى حديثك عن محمود الغزنوى إعجاباً به وبأسرته ،
فهلا حدثتنى عن أصل الغزنويين وكيف ملكوا ؟ فقال نظام الملك : إن لهذا
قصة طريفة يا مولاي ثم حكى :

كان لدى السامانيين رقيق تركى اسمه الپ تكين ، اشتراه أحمد بن اسماعيل
ثم خدم من بعده نصر بن أحمد ، وظل يرقى فى سلك الأرقاء ، حتى بلغ مرتبة
الإمارة أيام نوح ، وكان عمره — حين أسند إليه إمارة خراسان ، خمسة
وثلاثين عاماً .

وكان الپ تكين هذا شجاعاً ، جسوراً ، مخلصاً لساتته ، محبوباً من جنده ،
محباً لهم ، واشتهر فى زمانه بالعدل والحزم فأحبه الناس ، وقد لبث أميراً
لخراسان أكثر من خمسين سنة ، وأثرى فكان يملك من الرقيق آلافاً ؛
وذات مرة اشترى ثلاثين غلاماً . من بينهم سبكتكين .

ودخل الحاجب على الأمير فأنبأه أن أحد رؤساء الخدم (وثاق باشى) قد
مات ، وسأله أن ينصب أحد الغلمان مكانه ، وكان سبكتكين واقفاً ، فأشار
إليه الپ تكين ، وقال للحاجب : ارفعوا هذا الغلام إلى مرتبة وثاق باشى ؛
فقال الحاجب : أترفعه يا مولاي إلى هذه المرتبة ، فيلبس القلنسوة السوداء

المطرزة بالفضة ، والثوب الحريري الكنجي ، ولما يتم سنة في الخدمة ؟ إنه بهذا يتخطى سبع سنين من العمل الشاق !

أما الپ تكين فرد على حاجبه بأنه أمر وأمره نافذ ، وأما سبكتكين فانحنى أمام سيده حامداً شاكراً . وفكر الپ تكين ، وفكر الحاضرون معه ، في أمر هذا الغلام ، ومن يدري ، أهو حقيقة من نسل يزدجرد ؟ أو أنه من السعداء الذين خلقوا ليحكموا ملوكاً ، لا ليحكموا عبيداً ؟ وأحب الپ تكين غلامه ، وأخذ يرفعه كل يوم درجة ، رفعه إلى رتبة آبدار ، فكان يسقيه وكان يصب له الماء وهو يتوضأ ، ثم جعله أميناً لغرفته ، وجعل تحت إمرته عشرة غلمان من الفرسان . ولم يبلغ سبكتكين الثامنة عشرة من عمره حتى كان على رأس مائتي غلام ، وأخذت تبدو عليه مزايا الپ تكين نفسه .



وحدث أن أرسل الپ تكين مائتي فارس ، ومنهم سبكتكين ، وأمرهم بتحصيل المستحق من الأموال على التركان والخلج (١) ، وذهب الجند لأداء ما طلب إليهم ، ولكن التركان والخلج أبوا أن يدفعوا كل ما عليهم ، فاقترح بعضهم أن يلجأوا للقوة وأن يعودوا برؤساء العصاة مصفدين ولكن هذا الرأي لم يرق لسبكتكين ، لأنه أمر بتحصيل المال ولم يؤمر بالقتال قال وإني أخاف أن نقاتل فنهزم ، فيكون في هذا خزي لنا ، ومعرة لأميرنا . وانقسم الجماعة بين مؤيد لسبكتكين ومعارض له ، وعادوا وقد تفرقت كلمتهم . . .

(١) قبيلة من العرب أقامت في زاوستان وصاهرت التركان ، وأمدت آسيا الوسطى بجماعة من القادة العظام ، منهم محمد بن بختيار الذي استقل في ٦٠٢ / ١٢٠٥ وأسس أسرة انتهت في ٨٠١ / ١٣٩٨ .

ومثلوا أمام الپ تكين فلما سألهم لماذا لم يقاتلوا ، قالوا ثبت سبكتكين
 هممنا ، فلما سأله قال : منعتهم من القتال لأن مولاي لم يأمر به ، ولو حاربنا
 لكان كل منا سيداً لا عبداً ، وأول صفات العبد أن يطيع الأمر ، لا أن
 يأمر ؛ ولو أنا حاربنا وهزمنا لسألنا الأمير بأمر من حاربنا ، فمرنا إن شئت
 اليوم ، نذهب لقتالهم ، رخيصةً أرواحنا ، فنعود بالمال وبرؤوسهم جميعاً .
 فسرّ الپ تكين بكلام غلامه ، ورفع درجة ، وجعله رئيساً على
 ثلاثمائة فارس .



ومات الملك الساماني ، نوح بن نصر ، وكان الپ تكين في نيسابور ،
 فكتب له كبار القوم في بخارى — عاصمة الدولة — يقولون : مات الملك
 عن أخ في الثلاثين وولد في السادسة عشرة ، فمن منهما ننصبه ملكاً من
 بعده ؟ وإنا برأيك عاملون ، فإنك أنت عماد الدولة .
 فكتب إليهم يقول : إن أخ الملك وولده كلاهما بالملك جدير ، لأنهما من
 أبناء ملوكنا ، إلا أن أخ الراحل الكريم رجل كامل مجرب ، يعرفنا جميعاً ،
 ويعرف قيمنا ، ويستطيع أن يتحمل عبء الملك . ثم بعث رسالة ثانية يؤيد
 فيها تنصيب الأخ .

ولم تمض خمسة أيام حتى جاء رسول من بخارى يحمل البشرى لآلپ تكين
 بأن كبار القوم قد نادوا بأبن الملك الراحل ملكاً للسامانيين ؛ فأسقط في يد
 الپ . وأخذ يسأل نفسه لماذا استشاروه وفي نيّتهم أن يتصرفوا حسب هواهم ؟
 قال : والله للأمر الصغير عندي بمثابة نور العين ، وأخذ يفكر فيما يكون عليه
 الملك الجديد إذا بلغته الرسالتان اللتان تخلعانه وتنصبان عمه على عرش أبيه ؟ !

وأرسل في التور رسولا لعله يوقف رسوليه السابقين في الطريق ، ولكن الرسول لحق ثانيهما ولم يلحق الأول ، الذي بلغ بخارى وأسلم رسالته إلى الملك الجديد .

* * *

وأثارت الرسالة في البلاط الساماني سخطاً لدى أنصار الملك الشاب ، قالوا قد أساء والى خراسان ، وأخذوا يحدثون الملك عن عمل الب على حرمانه من عرش أبيه ، الذي هو وارثه شرعاً ، ليلي عمه ، الذي لا حق له في العرش ، وظلوا يتحدثون على هذا النحو ، حتى استشاط الملك غضباً على الب . وحاول هذا أن يكفر عن خطئه ، فقدم الهدايا والطرف بغير جدوى ، فإن الغضب قد ملأ قلب الملك ولم يبق لصرفه من سبيل ؛ وكذلك انطلقت السنة السوء بالوقيعه والديسية . . . وصورت الحاشية للملك خطر الب تكين عليه ، قالوا :

إنك لن تنعم بالسلطان ما بقي الب تكين ، وقد أصبحت له الكلمة العليا على الجيش ، فإنه يلي إمارة خراسان منذ خمسين عاماً ، فإن أنت قتلتها صارت أمواله إليك ، فامتلات خزائنك من ماله ، واستراح قلبك من خشيته ، وصارت لك اليد الطولى في الدولة كلها ؛ فابعث إليه رسالة تدعوه فيها إلى بخارى ، ليجدد لك الولاء ، واسكى لا يرتاب في دعوتك ، قل له إنك لم تحضر منذ ولينا عرش أجدادنا لتجدد لنا فروض طاعتك ، وإنا نرى فيك أبا كريماً ، فأنت أساس حكومتنا وعماد أسرتنا . . . فاحضر لبخارى نستبن منك ما خفي علينا في بلادنا ، فتزداد ثقتنا بك ، وتخرس السنة السوء التي تنطلق بالباطل فيك . . . فإذا حضر فاقتله في غرفته ، تسترح منه ويحل لك الجو .

وكان لآلپ تكين أصدقاء في بلاط الملك ، فبعثوا ينبئونه بما يدبر له

من شر .

* * *

فلما بلغت رسالة الملك آلپ تكين دعا هذا رجاله للرحيل إلى بخارى ، فسار من نيسابور إلى سرخس وفي صحبته ثلاثون ألف فارس ، وفي سرخس دعا ضباط جيشه وقال لهم : أتدرون لآي أمر دعاني الملك ؟ قالوا نعم ، دعاك لتجدد له العهد ، فإنك منه ومن آبائه كالوالد .

قال : كلا ، ما لهذا دعاني ، إنما أنا ذاهب لألقى عنده حتى ، فإنه غر لا يعرف قدر الرجال ؛ واعلموا أنني منذ ستين سنة وأنا أحمي دمار هذه الدولة ، وأنا الذي دفعت عنها غارات خاقانات تركستان ، وأنا قضيت على الملاحدة في ديارها ، وما تدمرت أو غضبت يوماً ، وها هو الملك يدبر لي اليوم جزاء سنهار ، جاهلاً أن مملكته جسد أنا رأسه ، فإن هو قطع الرأس فأى غناء في الجسد ؟ وقد دعوتكم اليوم لتفتوني في أمرى من هذا الملك .

قال الضباط : إن العلاج في حد سيوفنا ، وما دام الملك يضمرك هلاكك فأى شيء تنتظر ، لقد وليت إمارتنا خمسين عاماً ولو شئت لا تترعت الملك من آل سامان ، ومهما يكن فإننا نعرفك ولا نعرف الملك ، منك أرزاقنا ومنك جاهنا وما نرسل فيه من النعم ، وليس أجدر منك رجلاً ، وإننا نطيعك ، وخوارزم وخراسان ونيم روز مسلمة إليك ، فرنا بخلع منصور الساماني نخلعه ونولك ، وإذا شئت أن تأخذ منه بخارى وسمرقند فإننا ناصروك .

فلما سمع آلپ تكين كلامهم قال :

عفا الله ، والله لقد دعوتكم اختباراً لا ائتماراً ، وأنا أعرف أن ألسنتكم

تنطق بما يحيش في صدوركم ، والخير أن تتدبر الأمر وأن تعودوا إلى بيوتكم ،
على أن يكون موعدنا غداً ، ولننظر ماذا سيأتى به الغد .

فلما كان الغد عادوا ، فوقف الپ تكين يتحدث إليهم قائلاً :

لقد أردت بحديثي معكم أن أعرف شعوركم نحوى ، وهل تكونون معى
إذا أمرت بحزب ، فسمعت منكم جميعاً الوفاء لعهدي ، والاعتراف بنعمتى عليكم ،
وقد أسعدنى ما قلتموه . ولكن اعلّموا أن الشر صرّح بينى وبين هذا
الشاب ، ولم يبق من سبيل إلى دفعه بغير السيف ، وهو ظنل ينصت إلى
أسنة السوء ، ولا يفرق بين الطيب والخبيث ، وهم يسعون بى لقتلى ، وأنا
عماد الأسرة ، ولو أن الضرر مسها لما استطاع هذا الصبى له مرداً ، وإنى قادر
على أن آخذ منه الملك ، وأولى عمه فيكون لى السلطان عليه ، ولكنى أخشى
أن يقول الناس خدم الپ تكين السامانيين ووقاهم السوء ستين عاماً طوالاً ،
فلما بلغ الثمانين خرج على أبناء سادته ، استضعافاً لهم ، وأخذ الملك لنفسه ،
بفجد بنعمتهم عليه . . . وقد قضيت ما قضيت من العمر فى حسن الأحداث
وطيب المحتد ، فلا يليق ، وقد أصبحت قدمى على حافة القبر ، أن أُدنس
اسمى ، ولو أن الحق بجانبى والعدوان بجانب الملك ، إلا أن الناس جميعاً
لا يعرفون ذلك ، وسيقول فريق منهم ، إذا وقعت الواقعة ، جنى الپ تكين
على الملك . . . ومهما يكن فإنى لا أطمع فى ملكهم ، ولا أبغض دولتهم ،
ولكن أداة الشر لن تتوقف عن إيذاءى ما دمت فى خراسان ، وقد استخرت
الله فهدانى إلى أن أشهر السيف مجاهداً فى سبيله ، فاعلموا أن خراسان وما
وراء النهر وخوارزم ونيمروز تابعة كلها للملك منصور ، وأن عليكم جميعاً
طاعته ، وقد قت برعايتكم خدمة له ، فقوموا إذاً ، واذهبوا إلى بخارى ،
وجددوا له الميثاق ، وأطيعوه مخلصين ، أما أنا فسأذهب إلى بلاد الهند

مجاهداً في سبيل الله ، فإذا مت كنت شهيداً ، وإذا أيدنى ربى فسأبدل مدن الكفار إلى بلاد مسامة ، طامعاً في الجنة التي وعد الرحمن المجاهدين بها ، وسيعرف ملك بخارى ، إذا رق قلبه لى ، وغفر زلتى ، كم أحسنت صنعاً ، وكم كانت قيمة رجال جيش خراسان . . .



لم يكن أحد من الضباط يظن أن الپ تكين سيترك حقاً خراسان ، وله خمسمائة قرية وله في كل مدينة منها وفي ما وراء النهر قصور وحدائق وأربطة وحمامات ، وله ملايين الغنم ومئات الألوف من الخيل والبغال والجمال . . . فجعلوا يعمرون من أمامه باكين مودعين ، ولكنهم غير مصدقين . . . وذات يوم دق الطبل معلناً رحيل الپ تكين ومعه غلامانه وحاشيته ، وأما ضباط الجيش فقد ذهبوا إلى بخارى ، وقلوبهم مع الپ . وبلغ هذا مدينة بلخ ، فأعلن في الناس أنه ذاهب للجهاد ، ومكث شهرين ينتظر أفواج المجاهدين ، يفدون عليه من جميع الأطراف .

وبلغ الملك الساماني ما اعترم عليه الپ ، فجمع حاشيته للشورى ، فأشاروا عليه بأن يرسل جيشاً لقتاله والقبض عليه ، فأرسل ستة عشر ألف فارس ، وعبروا جيحون ، فاضطر الپ إلى أن يتجه ناحية تخلم ، حيث عسكر في واديه الضيق ، ومعه من فرسانه مائتان ، وغلامانه الذين حنكتهم الحروب ، وثمانمائة مجاهد من سائر البلاد ؛ وبلغ جيش الملك السهل فسد المنافذ على الپ وجماعته ، وهكذا أغلق « عنق الزجاجة » عليهم . وظل الجيشان شهرين بغير قتال . . .

وجاءت نوبة سبكتكين ، فخرج يستطلع أمر العدو ، فإذا به يجد السهل قد عسكر فيه الرجال ، وإذا به يجد طليعة العدو تستعد للقتال . فعاد إلى الب وقال له :

لقد تركت يا مولاي أموالك ، وما أفاء الله عليك من نعمه ، لملك بخارى ووليت وجهك تبغى الجهاد في سبيل الله ، وها هم يقصدون قتلك ، وإنك ، وفاءً بعهدك ، تبقى عليهم ، ولكنى أخاف أن تورد نفسك موارد التهلكة ، فنهلك معك ، وعندى أن السيف خير حكم بينك وبين ملك بخارى . ثم التفت إلى غلامانه وقال :

هذا يومنا ، وقد عزمت على لقاءهم ، رضى الأمير أو لم يرض ، وليكن ما يكون .

قال هذا وسار في طليعة فرسانه الثلاثمائة فخرج من « عنق الزجاجة » فأعمل السيف في طليعة العدو ثم أخذ بقية الجيش على غرة وقتل منهم أكثر من ألف فارس ، فقام الجند مذعورين ، فحملوا أسلحتهم وامتطوا صهوات جيادهم ، ولكنه أفل راجعاً ، ودخل معسكره سالماً دون أن يتمكنوا من اللحاق به .

وبلغ الخبر الب تكين فناداه ، وقال له كان التذرع بالصبر أولى من القتال ، فقال سبكتكين : طال صبرى يا مولاي ، حتى لم يبق في قوسه منزع ، ووالله لن دفعنهم عنك ولنقتلنهم حيث نثقفهم . . . فقال الب تكين :

الآن وقد بدأت الحرب بيننا ، لم يبق إلا أن تأمر الرجال بالاستعداد للرحيل ، فلترفع الخيام ، ولتحزم الأمتعة ، ولنبداً السير حين تؤذن الشمس بالمغيب ، وعلى طغان أن ينتظر في كمينه يميناً ومعه ألف رجل ، وعليك أن

تقف في كمينك يساراً مع ألف غلام ، أما أنا فساخرج من الطرف الآخر من « عنق الزجاجة » ومعى الأمتعة وألف مقاتل ، وسأسير في السهل ، وسيحضر العدو في الغداة فيدخل حيث كنا فلا يجد أحداً ، فيظن أنى قد هربت بكم ، فيقطع في أثرى ، ويحترق « عنق الزجاجة » فعند ما يخرج أكثر من نصف جنده ، عليكم أن تخرجوا جميعاً من مكانكم ، وتنقضوا عليه انقضاض الصاعقة ، فيقع الذعر في صفوفه ، ويولى فراراً منكم من لم تدركه سيوفكم ، وعندئذ نحيط بالوادي ، أنا في القلب وأتم على الجناحين ، فنحيط بهم ونقتلهم على بكرة أبيهم ، ثم نأخذ معسكرهم غنيمة .

وحدث ما توقع اليك تكين ، وتم الأمر كما رسم ، ودخل جنده معسكر العدو ، بعد أن أمني بالهزيمة ، فأخذوا ما فيه من خيل وبغال وجمال وأدوات الفضة والذهب والنقود والغلمان ، وتركوا الخيام والأبسطة نهياً للنهابين من سكان القرى المجاورة . . .

* * *

ورحل اليك تكين حتى بلغ باميان فحارب أميرها شيرباريك وهزمه وأسره ، ثم عفا عنه وناداه بولده .
ثم سار إلى كابل فهزم أميرها وأسر ولده (حفيد لويك) ، فأحسن معاملته ثم رده إلى أبيه .

* * *

ثم قصد غزني فخرج أميرها لويك لقتاله فهزمه ، وحاصر المدينة ، ووجفت قلوب أهل زاولستان (إقليم عاصمته غزني) ، فأمر اليك تكين بأن

لا يعتدى أحد من جنده على الناس وأن لا يشتري جنده بضاعة من غير أن يدفعوا ثمنها ذهباً . .

* * *

وحدث أن وقعت عين الپ تكين على غلام له ، قد حمل فوق ظهره كيساً من التبن وأمسك دجاجة في يده ، فسأله من أين لك هذا ؟ فقال أخذته من فلاح . قال ولماذا لم تشتري بالذهب ، ألسنت أنقذك عشرين كانياً (اسم عملة) في الشهر ؟ ثم أمر بشطره نصفين ، وبأن يعلق على قارعة الطريق مع كيس التبن ، وأن ينادى في المدينة ثلاثة أيام بأن من يأخذ أموال المسلمين بغير حق فسوف يلتقى ما لقي هذا الغلام من العذاب .

وشاع أمر عدل الپ تكين وحرصه على المحافظة على حقوق الناس ، وأخذ أهل غزنین يتحدثون ويتناقلون القصص عن عدله ورفقه وحسن إدارته ، قالوا إنا نريد ملكاً عادلاً نأمن في ظله على أرواحنا ونسائنا وأموالنا ، وليكن تركياً أو مولداً من العرب والفرس ، ثم فتحوا أبواب مدينتهم فدخلها الپ تكين .

واعتصم أمير غزنین بقلعة فيها وظل يقاوم عشرين يوماً ثم سلم . واتخذ الپ تكين من غزنین عاصمة لملكه ، وأسس الدولة الغزنوية ، وأخذ يرسل الحملات لفتح بلاد الهند ، فكانت جيوشه تذهب إلى هناك وتعود حاملة معها شتى الغنائم ، مع أن بين غزنة وكفار بلاد الهند مسيرة إثني عشر يوماً .



وشاع في خراسان وما وراء النهر أن الپ تكين قد استولى على بلاد واسعة ، وأن جنوده يغزون بلاد الهند ، وأن الذهب والفضة والنعم تنثال عليهم انثيالاً ، فأقبل الناس على اللحاق به ، وانضم إلى جيشه ستة آلاف فارسی منهم ، فشجعه هذا على المضى في فتحه فبلغ بيجاپور (بيقاپور) .

وأما ملك الهند فقد جمع جيشاً عظيماً قوامه مائة وعشرون ألف مقاتل وخمسة آلاف فيل ، وعزم على قتال الپ تكين وطرده من بلاد الهند .

واتصل بملك بخارى السامانى أن الپ تكين قد قيض الله له فتحاً مبيناً ، وأن ملك الهند قد استعد لقتاله ، فجمع هو الآخر عدته ، حقدّاً على الپ تكين ، وبعث لقتاله جيشاً على رأسه أبو جعفر ، فلما علم الپ تكين بذلك أمر بترك جيش السامانيين يقترب حتى صار على فرسخ منه ، ثم أمر بالهجوم عليه فاضطر أبو جعفر إلى الفرار ، وأما الجيش الذى يتكون من خمسة وعشرين ألف مقاتل فقد تبدد شمله ، وهكذا جرت على جيش السامانى هزيمة أشد نكراً من هزيمته فى بلخ وخلم ، وبهذين الحربين أنهكت قوى السامانيين وأصبحت دولتهم فريسة سائغة لخانات تركستان .

ثم اتجه الپ تكين إلى ملاقاته ملك الهند ، وقد طمع الكثيرون فى خيرات هذه البلاد فانضموا إليه ، وهكذا واجه ملك الهند بقوة كبيرة ، وقد ظفر باللائحة به وبإزاله فى مأزق لا يستطيع الخروج منه ، فاضطر ملك الهند أن يطلب الهدنة ، وأن يعلن استعدادَه لتكين الغزوين من الثراء الذى يريدون ، فأمر بأن تسلم إليهم القلاع ، فقبل الپ تكين هذه الهدنة ، ورجع ملك الهند بجيشه ، وتقدم الپ تكين ليستولى على القلاع ،

فوجد أبوابها موصدة دونه ، وعلم أن ملك الهند قد أخلف وعده ، فأعلن
الپ تكين أن لا عهد بينهما ، وهاجم القلاع وحاصر ما لم يستلم إليه منها ؛
وفى أثناء ذلك مات الپ تكين . . .

* * *

واجتمع الجند الغزنويون فقال أحدهم : لقد أوقعنا الرعب في نفوس
الهنود وحملناهم على خشيتنا ، فإن نحن أطلقنا العنان لنزواتنا الفردية ، وادعى
كل منا أنه أحق بالزعامة ، فإن النصر الذي قيضه الله لنا ستعفى آثاره ، ويحل
بنا من الهوان ما نعوذ بالله منه ، وسترتد إلى صدورنا السيوف التي قتلنا
بنصالتها أعداءنا ، فالأجدر بنا أن نختار أشجعنا وأمضانا عزماً ليكون ملكاً
علينا ، فنبايع له ونخلص له كما بايعنا وأخلصنا لالپ تكين .
واختار الجماعة بإجماع الآراء سبكتكين خلفاً لالپ ، وهكذا أصبح
الريق ملكاً لأقوى دولة في زمانه .

* * *

وكان سبكتكين موفقاً في حياته ، وقد تزوج من ابنة حاكم زاولستان ،
فولدت له ابنة محمود الغزنوي أشهر ملوك الغزنويين الذي طالما حدثت مولاي
عن سيرته .

وقد مرّن محمود على فن الحكم في أيام أبيه ، فإنه كان يصحبه معه في
غزواته الكثيرة ويشركه في إدارة شئون البلاد ، ولذا فإنه ، حين أصبح
ملكاً ، استطاع أن يوسع الدولة فبلغت أوجها في أيامه .
ولكنه على ما أتيسح له من الملك العظيم ، ومع ما فتح الله عليه في الهند ،

فقد بلغُ سُمُعات ، مع هذا كله كان يطمع في الألقاب ويحبها ، حتى أنه خاصم خليفة بغداد ، لأنه لم يمنحه لقباً طلبه ، وكاد يعزله عن الخلافة ويولي عباسياً سواه .

قال ملكشاه : هذا مع أن محموداً كان سنياً متعصباً ، وكان من أشد حماة الخليفة السني غيرة عليه ، فحدثنا يا نظام عن حبه للألقاب ومحاصمته خليفة بغداد من أجلها .

(سياست نامه ٢٧)

١٨

شيخ الطريقة

من الله على عبد شقي بالتوبة عن الذنوب ودخول حلقة أهل التحقيق ، وهكذا أصبح صاحباً لل دراویش وتبدلت ذمائم أخلاقه محامد ؛ ولكن السنة السوء امتدت إليه تنوشه كالرماح فتشكك في صلاحه وزهده .

وإنك قد تنجو بالتوبة من عذاب الله ، ولكنك لا تنجو من السنة الناس . فلم يطق ظلمهم له ، وذهب إلى شيخ الطريقة يشكو ، فبكى الشيخ وقال : كيف لا تشكر هذه النعمة ، إنك أفضل مما يظنون فيك .

وانظر إلى ، ظنوا في الكمال ، وأنا أقرب إلى النقصان !

(گلستان)

السلطان محمود والألقاب

الألقاب كما تعلم يا مولاي جعلت جزاءً وفاً على عمل نافع ، وأكرم الألقاب ما منحه خليفة المسلمين للملوك ، وقد كان محمود شغوفاً بالألقاب ، فالتمس من القادر بالله لقباً فمنحه لقب « يمين الدولة » ؛ وبعد أن فتح محمود خراسان ونيم روز والعراق والهند حتى سمعات ، طمع في لقب جديد يتفق وهذا الملك الواسع ، فبعث إلى الخليفة ملتمساً لقباً جديداً وأرسل مع رسوله هدايا كثيرة للخليفة ، ولكنه لم يجب طلبه .

واتفق أن أنعم الخليفة على خاقان سمرقند بثلاثة ألقاب ، فلما سمع محمود هذا غضب وبعث إليه يقول : إني فتحت بلاد الكفار ورفعت لواء الإسلام فيها والتمست لقباً فضننت به عليّ ، ومنحت خاقان سمرقند ثلاثة ألقاب مع أنه تابع لي . . .

فأرسل إليه الخليفة يهديء من روعه ويؤكد له « أن الألقاب ترفع من قدر حاملها وأنك بحمد الله عال القدر بغيرها ، أما خاقان سمرقند فتركي جاهل ينشد الألقاب ليشتهر بها ، ولذا فإني منحتة إياها ، ولم أمنحك ما طلبت عرفاناً بقدرك ، وأنت تعلم مكانتك من نفسي » .

وكان عند محمود جارية لها ذكاء وقاد ، وكان يؤثرها على جواريه ، ويستسمع

إليها وهي تقص الحكايات وسير الملوك ، فلما رأته الجارية غاضباً سألتها عما يدعوه إلى العبوس وإطالة التفكير ؟ فقص عليها قصته مع الخليفة ، وقال إنه يريد أن يظفر ببراءات ألقاب الخاقان ، ولمن يحملها إليه أجر عظيم ؛ فقالت له الجارية إنى ذاهبة عنده وسأتيك بهذا الذى تريد ؛ واستعدت الجارية للسفر ، وأمدتها محمود بكل ما تريد .



سافرت الجارية من غزني إلى كشغر ، ومعها ابنها الصغير ، وقد اشترت كثيراً من البضائع والألماء والغلمان ، وسارت إلى سمرقند . وبعد ثلاثة أيام اتصلت بالختاتون ، زوج الخاقان ، فأهدتها جارية حسنة ، وأفهمتها أنها كانت زوج تاجر غنى ، وأن زوجها مات فى الطريق ، وأنها استعانت بالختاتون والختاتون لدى خانات كشغر وأزبك ، ولهذا فقد ساعداها على بلوغ سمرقند ، وأكدت لها أنها ستبقى مخلصه لها وللختاتون ما عاشت ، وأقسمت على ذلك بربها وبابنها الذى ليس لها غيره فى هذه الدنيا ، والتمست منها أن تتخذها جارية لها منذ اليوم ، فقد تعلق قلبها بها ، ولذا فقد عازمت على بيع حليها وما معها من بضائع لتشتري ضيعة قريبة من سمرقند ، وذلك لتبقى قريبة من الختاتون ، فتربى ولدها وتنعم بعطف الخاقان وزوجه . . . وسرت الختاتون بلقاء الجارية ، ووعدتها بالمساعدة وأمرت بإعطائها بيتاً تسكنه ، ومعاشاً يسد نفقاتها ، ووعدتها بأن تتحدث إلى الخاقان ليهبها كل ما تريد . . .

وسجدت الجارية للختاتون ، وقالت لها أنت منذ اليوم سيدتى ، والتمست منها أن تهيب لها مقابلة الخاقان لتتحدث إليه ، فأمرتها الختاتون بأن تعود غداً . . .



فلما رأت الخاقان أفهمته أن بضاعة زوجها قد أنفق ثمنها كله ، بين هدايا خان كشغر ونفقات الطريق ، ثم أهده غلاماً تركياً وجواداً مطهماً ، ورجته أن يقبلها جارية في قصره ، عسى أن تتمكن في ظله وظل الخاتون من تربية الطفل اليتيم . . .

وكانت الجارية تهدي الخاتون هدية جميلة من حين إلى حين ، ثم كانت تقص عليها وعلى الخاقان من جميل القصص ما قربها منهما ، وجعلهما شديدي الحرص على مجلسها . . .

ثم إنها كانت تمتطي جوادها وتخرج بعيداً عن سمرقند وتقضى يومين أو ثلاثة ، وتبعث رسولا يعتذر عنها عند الخاقان والخاتون بأنها تريد أن تشتري أرضاً في القرية التي قصدها ، فكان ذلك يثلج صدرى الأميرين فيقولان إن الجارية تعمل على إدامة الإقامة بيننا . . .

وكان الخاقان وزوجته يغدقان عليها المنح ، ولكنها كثيراً ما كانت ترفض منحهما ، لأن أمنيتها الوحيدة في الحياة — كما تقول — أن تسعد برؤيتهما ، وقد يسر الله لها قوتها اليومي ، ثم كانت تؤكد أنها إذا رغبت في شيء فإنها ستطلبه بنفسها . . .

وظلت على هذا النحو ستة أشهر ، إلى أن تمكنت من بيع كل أموالها بالذهب ، ثم أعطته إلى تاجر تعود الرحلة بين غزني وسمرقند ؛ واتفقت مع خمسة فرسان على أن ينتظروها كل منهم في مرحلة من الطريق ، بين البلدين . . . وراحت الجارية إلى الخاقان والخاتون فقدمت تحية الصباح وقالت إن لدى سؤالاً أخاف أن أتقدم به إليكما ؛ فقالت الخاتون أطلبي ما شئت .

قالت : إنه لم يبق لى من دنيائى غير طفلى اليتيم الذى أعلمه القرآن ، والذى أرجو أن يوفقه ربه ببركة مولاتى ومولائى ، وإنه ليس أعز ، بعد كلامى الله ورسوله ، من هذه البراءات التى تصدر عن أمير المؤمنين ، وكاتبها خير من أقرانه جميعاً ، وإنى أتمس أن يؤذن لى بأخذ هذه البراءات التى وجهها الخليفة لمولائى الخاقان ، ليقرأها ولدى مستعيناً بمعلمه فى يومين أو ثلاثة . . .

فقالت الخاتون : أهذا كل ما تريد ، ليتك طلبت مدينة أو ولاية ! ولدينا من هذه الرسائل خمسون ، فقالت الجارية يكفينى واحدة يا مولاتى .

قالت الخاتون لخادمها خذ السيدة واعطها من الرسائل ما تريد ، فذهبت الجارية معه واختارت الوثائق التى طلبها محمود الغزنوى ، وانصرفت . . .

وفى الغداة أمرت بإعداد الركب لرحلة خمسة أيام ، وأشاعت أنها ذاهبة لشراء أرض فى قرية بعيدة ، ثم صارت إلى ترمذ ، وكانت تقابل بالأجلال حيثما نزلت ، فإنها تحمل أمراً من الخاقان يمنحها امتيازات خاصة ، وفى الليل أكملت رحلتها فبلغت بلخ قبل أن تعرف الخاتون أن صاحبها قد قامت فى رحلة من رحلاتها . . . ومن بلخ سارت إلى غزني فأسلمت محموداً الغزنوى البراءات التى كان يريد . . .



وبعث محمود بهذه البراءات إلى الخليفة مع أحد الفقهاء المبجلين ، مذكراً الخليفة بهذا الترتيب — خاقان سمرقند — الذى ترك هذه البراءات بغير رعاية أو عناية ، فتناولتها الأيدي ، وقد أقميها أحد رجال السلطان ، وكان فى جولة بسمرقند ، فى يد طفل يعبث بها محاولاً قراءتها ، وهكذا استهتر الخاقان بهذه البراءات التى يمنحها الخليفة له ، بدلاً من أن يجعلها فى مكان أمين حتى لا يعبث بها أحد .

و غضب الخليفة عند ما سمع هذا الكلام وأرسل يؤنب خاقان سمرقند .
 وظل رسول محمود ستة أشهر يلتمس لقباً جديداً لسيده ، والخليفة لا يأبه
 بما يطلب . . . فكتب هذا الفقيه إلى قاضى القضاة يسأله إذا كان يجوز
 لسلطان يعمل لنشر الدين ويجاهد فى سبيل الله وهو بعيد عن الخليفة ، فلا
 يستطيع أن يتصل به ليوقفه على أحواله ، أيجوز لهذا السلطان أن يقيم أحد
 بنى العباس خليفة ، ليكون قريباً منه ؟ فأجاب القاضى بالجواز .

فلما يئس الفقيه من الخليفة ، أرفق الفتوى بطلب اللقب وبعث بهما
 إليه ، فلم يكدها يطلع على الفتوى ، حتى أسرع فبعث حاجبه للفقيه ، فلما
 مثل بين يديه أكرم وفادته ، وخلع على محمود لقب « أمين الملة » .
 وهكذا ظفر محمود بلقب جديد ، ولكنه يا مولاي لقب مغتصب ، وهذا
 الحادث وإن دل على ضعف محمود فى هذه الناحية ، فانه لا ينفي عظمة محمود وجدارته .

(سياست نامه ٤١)

٢٠

الملك والسائل

رأى ملك سائلاً ، فقال له إني أغنى من جميع ملوك الأرض ، إني رجل
 الله . فقال له الملك : فكيف تكون أغنى من الملوك ؟ فقال :
 لأن الملك رجل محتاج لأشياء كثيرة ، ولكن الدرويش رجل لا يحتاج
 شيئاً ، وأنا درویش ، فأنا أغنى منكم جميعاً .
 (كهلستان)

يوم القيامة والعمل الصالح

رأى رجل ميدان يوم القيامة ، فى منامه . كانت الأرض ساخنة ، قد اقتربت الشمس منها ، وقد ابتلى الناس بالجوع والعطش ، وحمل المذنبون أوزارهم على رؤوسهم ، وكانوا يقدمون الحساب عنها ؛ وكانوا يسرون فوق الصراط ، فكان بعضهم يهوى إلى جهنم وقد نكست رأسه . وكان الميزان فى الوسط ، فى كفتيه الموازين والأعمال ؛ والناس جميعاً من الملوك إلى الدراويش ، من الأقوياء إلى الضعفاء ، مشغولون بأعمالهم . وكان كل نبى يحدث أمته قائلاً : لقد بينت لكم أحكام الله ، وحدثتكم عن يوم القيامة ، وأمرتكم بالمعروف ونهيتكم عن المنكر ، ثم دعوتكم إلى عبادة ربكم وطاعته ، فبأى الأحكام عملتم ، وأى الأوامر أطعتم ؟

والخلاصة أن قلوب الناس ، فى ذلك اليوم ، كانت مملوءة بالدم وعيونهم مملوءة بالدمع والندم .

وفى أثناء ذلك رأى النائم رجلاً قد اتشح بثوب أزرق وعلى رأسه تاج الجنة ، وقد جلس فى ظل العرش الأعظم .

فمر به الرجل وسأله ، أى عمل صالح قدمت فى دنياك حتى كانت لك العقبى ؟

فقال :

حفرت على حافة الطريق بئراً ، وغرست بجوارها شجرة ، وذلك ليشرب
المسافرون والغرباء من الماء ويستريحوا في ظلال الشجرة ، وقد أتى ، يوماً ،
فقير حافي القدمين ، عارى الرأس ، رث الملبس ، أتى في هدوء ووقار واستراح
ساعة في ظل الشجرة ، فدعا ربه قائلاً : « رب إنى آويت إلى ظل شجرة فلان ،
رب ارحمه من عذاب يوم القيامة » ، فغفر الله ذنوبى ، وبلغت هذه الدرجة
بفضل ما قدمت من الخير .

فلما استيقظ الرجل من النوم كان مصفر الوجه من الخوف ، فحفر بئراً
وغرس شجرة وبني مضيعة وقضى ما بقى من عمره في خدمة المسافرين
والفقراء والغرباء .
(جامع الحكايات)

٢٢

المريض و البيطار

أصيب رجل ساذج بمرض في عينه ، فذهب إلى بيطارى وطلب منه أن
يعالجه ، فوضع البيطارى في عين الرجل ما يضعه في عين الدواب من دواء ،
فعميت عينه .

فلما رفع الأمر للقاضى قال :

ليس على البيطارى إثم ، إذ لو لم تكن حماراً لما ذهبت إليه .

(كلستان)

الأمير القصير

كان لأحد الملوك ولد قصير القامة ، نحيف الجسم ، وأولاد قلماتهم كالسرو ، وأجسامهم ضخمة ، فكان الملك يكره ابنه القصير ، وأدرك الولد شعور أبيه نحوه ، فقال له :

يا أبت إن قصيراً عاقلاً خير من طويل جاهل ، فليس كل من طالت قامته عظُمت قيمته ، ألم تر إلى طور ، أقل جبال الأرض ، ولكنه أعظمها قدراً ومنزلاً عند الله ، ثم ألم تعلم أن الحصان العربي مع هزاله خير من الحمار السمين ؟ فلما سمع الملك ذلك ضحك ، وسر أركان الدولة ، وغضب أخوته . وكان للملك عدو صعب المراس ، فأرسل جيشه ليحاربه ، فلما التقى الجيشان كان الأمير القصير أول من دهم العدو ، وكان جيش الملك قليل العدد فأشار جماعة بالهرب حتى لا يغلِبهم العدو ، فصاح الأمير القصير بالفرسان أن يثبتوا ويقاثلوا حتى لا يلحقهم الخزي ، وقد ظفر جيش الملك بالنصر في هذه الواقعة .

وسمع الملك ما كان من إقدام ابنه وشجاعته فقبله واحتضنه ، وأخذت مكانته تعلو لديه ، حتى جعله ولي عهده ؛ فنقم عليه أخوته هذه الحظوة ، ودسوا له السم في الطعام . وجاء الأمير القصير ليأكل ، وكانت أخته واقفة

تتظر ما يفعل أخوته ، فخشيت أن يأكل أخوها من الطعام المسموم فأغلقت النافذة بشدة ، فتنبه الأمير للأمر ، وامتنع عن الأكل .

ولما علم الملك ما جرى بين أولاده ، دعاهم وأنبهم ، ثم خص كلا منهم بناحية من مملكه ، فأسرع الأولاد إلى إماراتهم فحكموها ، وهدأ ما بينهم من نزاع . وقد قيل إن عشرة دراويش ينامون على كليم واحد ، ولا يستقر ملكان على إقليم ، ولو ظفر درويش برغيف لأكل النصف وأعطى النصف الثانى للدراويش ، ولو ظفر ملك بإقليم لطمع فى إقليم آخر .

(كستان)

٢٤

سلمان الفارسي

عندما ولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى سلمان الفارسي حاكما لمدينة فى الشام ورتب له خمسة آلاف درهم .

ولكن سلمان لم يكن ينفق على نفسه من هذه الوظيفة ، بل كان يشتغل فى أوقات فراغه بنسج الزناويل من سعف النخل ، فيبيعها وينفق ثمنها ، أما وظيفته فكان يتصدق بها على الفقراء .

فسئل عن حكمة ذلك فقال :

خشيت أن أنفق مرتبى فى لذائذ الحياة ، فأفقد من عبادتى بقدر ما أجد

(جامع الحكايات)

من لذة .

الأصل الوضع

كمن جماعة من اللصوص في رأس جبل ، وقطعوا طريق القوافل ، وارتعدت فرائض الرعية من مكايدهم ، وثار جند السلطان معهم ، فقد اتخذوا من قلة الجبل ملاذاً منيعاً ، يأوون إليه ؛ فتشاور رجال الدولة لدفع مضرتهم ، وخشوا إن تركوهم يدأبوا على النهب والسرقة وتتعدر مقاومتهم ويستفحل خطرهم .

فإنك تستطيع أن تقتلع الشجرة التي غرست حديثاً ، ولكنها إذا تركت ، فثبتت في الأرض ، فإنك لا تستطيع اقتلاعها . . .

فقرر الرأي على إرسال رجل ليتجسس على اللصوص ، حتى إذا غادروا مكانهم ، أخبر الرجال ليذهبوا ويختفوا ويفاجئوا اللصوص في عودتهم . وخرج قطاع الطريق في غارة لهم ، وكمن لهم رجال السلطان ، فلما عادوا ليلاً واستولى عليهم النوم ، داهموهم وقيدوهم واقتادوهم إلى السلطان ، فأمر بقتلهم جميعاً .

وكان بينهم فتى في عنفوان الشباب ، وميعة الصبا ، فتدخل الوزير الطيب ، وشفع له عند السلطان ، وقال : هذا الولد ، كما يرى مولاي ، لم يذق ثمرة حياته ، ولا تمتع بشبابه ، وإني لأرجو أن يتفضل مولاي فيمنّ عليّ بحقن دمه .

فتجهم وجه الملك وقال :

لا يتحلى ذو الأصل الوضيع بخصال الطيبين ، وإن التربية لا تجدى فيه ، فالأولى أن يُقطع دابرهم ، وتمحى آثارهم ، والخير أن تقتلع أصولهم وفروعهم ، وليس من الحكمة أن تطفى النار وتترك شررها ، أو أن تقتل الأفعى وترعى صغارها !

لو أن السحاب أمطر ماء الحياة فإنك لا تجنى من شجرة الصنصاف ثمرًا ، ولن تجنى القصب من قش الحصير ، فلا تضع الوقت مع وضيع الأصل .
فأما سمع الوزير هذا الكلام ، اضطر إلى الموافقة عليه ، وقال إن ما أمر به مولاي هو عين الحقيقة ، فإن هذا الفتى لو سلك سلوك الأشرار لتطبع بطبعهم ، ولصار واحداً منهم ، وأملى فيه أن تهذبه صحبة الأتقياء ، ويتحلى بحكمة العقلاء ، فإنه طفل بعدد ، ولما تتمكن منه سيرة أهل البغي والعناد ، وقد جاء في الحديث يا مولاي :

« ما من مولود إلا ويولد على فطرة الإسلام ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وأخذ يتكلم على هذا المنوال ، وأيده جماعة من الندماء ، فعفا الملك عن الشاب وقال : عفوت عنه ولو أنى لا أرى فى ذلك خيراً .

ثم إن الوزير أخذ الفتى إلى بيته ، ورباه تربية صالحة ، ووكّل بتعليمه أستاذاً أديباً ، علمه حسن الخطاب ورد الجواب وسائر آداب الملوك ، حتى صار الفتى موضع أنظار الجميع .

وتحدث الوزير عنه عند الملك ذات مرة ، وقال إن تربية أهل الحكمة أثرت فيه ، وإن الجهل الذى كان فيه قد زال عنه ، فابتسم الملك وقال :
إن مصير ابن الذئب أن يكون ذئباً ولو شب مع الآدميين

ومرّت على هذه الحال سنة أو سنتان ، وأصل جماعة من أوباش المدينة بالفتى ، وتعاهدوا معه ، فاتهز الفرصة وقتل الوزير وولديه ، واستولى على ماله ، وسكن المكان الذى كان يلجأ إليه أبوه فوق قمة الجبل ! وبلغ الخبر الملك فقال :

إن التربية لاتصلح الوضع ، فالسيف البتار لا يخرج من ردىء الحديد ، والمطر الذى لا خلاف فى لطافته ، ينبت فى الحديقة زهرة اللالة ، ويخرج فى الأرض الملحة ، الأعشاب ؛ إن استعمال الطيبة مع الأشرار ، كاستعمال الخبث مع الأبرار .

(كلستان)

٢٦

بزرجمهر والحكماء

ذهب جماعة من أهل الحكمة إلى كسرى يحدثونه فى شأن من شؤونهم ، وكان بزرجمهر جالساً مع كسرى ، ولكنه أخذ يستمع إلى قول الحكماء ولا يساعدهم ، فسألوه لماذا لم تتكلم لتؤيد قولنا عند كسرى . فقال :

نحن كالأطباء ، والطبيب لا يصف الدواء لغير مريض . وقد رأيتم تتحدثون إلى الملك بالحق فلم أر فى كلامى فائدة لكم .

(كلستان)

في عدل الملوك وسيرتهم

قال نظام الملك محدثا السلطان ملكشاه :

أمرت يا مولاي أن أكتب لك هذا الدستور فلم يسعني إلا أن أصدع
بالأمر ، وكم كانت مهمتي يسيرة عند ما استلهمت سيرتك ، وتدبرت سياستك ،
وأنت يا مولاي من أتاح الله تعالى له كل أسباب المجد ووسائل الخلود . وقد
أراد الله بهذه الدولة خيراً فنصبك عليها ملكاً ؛ ولم يكن الملك عليك جديداً ،
وجدودك يملكون العروش منذ عهد جدك العظيم أفراسياب . وقد وهبك
ربك من الصفات الجميلة ، والطلعة البهية ، والطبع المعتدل ، والعدل
والشجاعة والعلم والشفقة والرحمة والوفاء والتمسك بالدين القويم ، وطاعة الله
وتقدير العلماء وأهل الحكمة ، ما يجعل ملكك سعيداً ، قوى البنيان ،
وارف الظلال .

والركن الأول في الحكم الصالح أن يكون الملك عادلاً يا مولاي ، وقد
قيل : « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم » . فعلى الملك أن يرضى
ربه في حكم رعيته . واعلم أن الملك الذي يستمد قوته من حب شعبه له ،
لهو صاحب العرش المكين .

وقد حكى أن يوسف عليه السلام أوصى بأن يدفن بجوار جده ابراهيم ،

فلما مات هموا بدفنه حسب وصيته ، نزل جبريل من السماء وقال : ليس هنا مكانه ، فإن الله سوف يحاسبه عن حكم الناس .
فاذا كانت هذه حال يوسف الصديق فكيف بالملوك من الناس

* * *

وقد حكى عن عبد الله بن عمر أنه حين اقتربت المنية من أبيه سأله متى يراه بعد موته . فقال عمر : أراك يوم القيامة إن شاء الله . فقال عبد الله : وددت لو أراك قبل ذلك . قال عمر : إذا تراني في الرؤيا بعد يومين أو ثلاثة من موتى .

ومضت الليالي الثلاث ولم ير عبد الله أباه . وبعد إثني عشر عاماً جاءه في المنام ، فسأله عبد الله : ألم تقل يا أبت إنى أراك بعد ثلاث ليال من موتك ؟ فقال عمر : لم يتح لى الوقت يا بُنى ، فقد كان ربك يحاسبنى عن جسر تهدم أثناء فتح العراق ولم يصلحه العمال ، وقد عثرت به شاة فكسرت ساقها .

* * *

فاعلم يا مولاي أن الله محاسبك يوم القيامة عن حكمك الناس ، فعليك ألا تفوض أمر الرعية ، التى اختارك الله لرعايتها ، لغيرك . وعليك أن تعرف ما يجرى بين الناس ، حكماً ومحكومين ، سراً وعلانية ، وأن تضرب على يد المعتدين منهم ، وألا تظلم منهم أحداً . يراك الله ويؤيدك ويسدد خطاك .
وإذا كان القضاء يصدر أحكامه باسمك لأنك تستمد سلطتك من الله الذى هو العدل ، فعليك أن تكون على رأس القضاة ، وأن تعقد محكماتك مرتين فى الأسبوع لتسمع شكاوى الرعية ، فتدفع الظلم عن يتظلم ، ولكى يتم ذلك

على الوجه الأمثل ، ينبغي أن يستمع الملك بنفسه إلى الشاكين من رعيته ، وأن ترفع إليه جميع التحقيقات الخاصة بالقضايا المعروضة ، فيدرسها بنفسه ، ثم يصدر الحكم الذي يرى ، متبعاً قواعد العدل والانصاف ، وكم يقل الظلم ، ويتضاءل النزاع ، إذا ما علم الكافة أن الملك يرأس محكمته الخاصة مرتين في الأسبوع لسماع المظالم والقضاء فيها بنفسه ، فإن هذا يرجع المعتدى عن عدوانه كما يرد من غوى عن غيه . وقد كان ملوك الساسانيين يحرصون على هذا التقليد أشد الحرص .

* * *

فقد سمعت يا مولاي أن ملكاً منهم ، كان أصم ، وكان يخشى ألا ينقل إليه رجاله شكايات الناس نقلاً أميناً ، فيحكم بينهم بغير العدل ، فأمر أن يلبس المتظلمون من الرعية ثياباً حمراء ، وألا يلبس غيرهم ثياباً من هذا اللون ، وذلك ليعرفهم الملك . فإذا كان يوم النظر في المظالم ، امتطى الملك فيلا ووقف في الميدان وجمع حوله ذوى الثياب الحمرة ، ثم أخذهم فرادى في مكان قصي ، وأمر كلا منهم أن يرفع صوته عالياً حتى يسمع الملك شكواه ، فينصفه .

* * *

ولينتبه الملك إلى تقلب الأيام وغدر الزمان . ألم تر إلى المعدل بن علي ابن ليث الصفار ، وقد امتلأت بالمال خزائنه ، وقويت بالجيش دولته ، فشق على خليفة الله عصا الطاعة ، ومضى في سياسة أخيه ، مؤثراً العدوان على الوئام ، والحرب على السلم ، وكلما حاول الخليفة أن يهديء من ثورته استغشى ثيابه واستكبر استكباراً . ساق الجيوش الجرارة ، واستعان بالمال الذي

تفيض به الخزائن العامرة ، ومضى يقاتل أمير المؤمنين الذي استنجد بأبي نصر ابن اسمعيل الساماني ، فسار هذا لنصرته في جيش قل عدده وعدته . وشاء ربك أن تغلب قلة الساماني كثرة الصفاري ، وأن يؤسر فلم ينفعه ماله الوفير ولا جنده الكثير . وقد كان عمرو ملكاً مترفاً ، يلتف حوله الكتاب والشعراء والأمراء ، وكانت مائدته تتسع لمئات منهم كل يوم ، وكان مطبخه يحمل على أربعمائة جمل حين يرتحل ؛ فلما وقع في الأسر وعرضه الجوع طلب من أحد حراسه أن يبحث له عما يسد به رمقه ، فسارع الجندي واشترى قليلاً من اللحم واستعار موقداً ؛ وقبل أن يتم نضج اللحم أغرت رائحته كلباً فأتى وكشف عن الإيذاء الغطاء ، ولما مد فيه ليأخذ قطعة منه أودى بحرارته فحرق وقد علق الإيذاء برقبته ، فلما رآه عمرو ندم وقال : أرأيت من أصبح أميراً وأمسى أسيراً .

فعلى الملك أن يتبصر لما تحبئه الأيام ، وأن يعمل لعدده كما يعمل ليوميه ، وأن ينظر إلى تاريخ الملوك ليتخذ منه العظة والعبرة . وقال الله يا مولاي شر الزمان ، وأمنك غيلة الأيام .

أعياد الفرس

النوروز

علا عرش إيران في الأزمنة القديمة ملك عظيم اسمه جمشيد ، وقد أولع هذا الملك بحب بلاده ، فكان يكرس وقته كله لخدمتها ورعاية مصالحها ، وقد استطاع بما له من حيلة وذكاء ، أن يسخر الجن ، وأن تدعن له الطير ، ولم يكن أحد من ملوك عصره يدانيه في قوته وبسط سلطانه ، ولم يكن جمشيد مع ما أوتي من أبهة الملك وسعة البلاد وخضوع الجن وإذعان الطير له ، لم يكن مع هذا كله متكبراً على الإيرانيين ، بل كان يحبهم ويكثر من الاجتماع بهم والتحدث إليهم ، وكان إذا اجتمع بالـإيرانيين يقول لهم : إني قد ملكتكم بما خصني الله تعالى من فضله ، وألبسني من نوره ، لأعمر الأرض ، وأؤمن الخلق ، وأبسط العدل ، وأكثر البذل ، وأحيي الخير ، وأميت الشر ، وكان الإيرانيون يسمعون هذا الكلام ويتناقضونه ، فتزداد مكانة ملكهم في نفوسهم ، حتى أنهم كانوا يسجدون له .



وكان بجواره ملك يحقد عليه ما اختص به من نعم ، وأدرك جمشيد ما يضره هذا الملك من سوء له ، فاستعد لقتاله ، وقامت الحرب بين ملك

صيدون وجمشيد ، ونزل هذا بنفسه إلى المعركة فضرب عدوه ضربة قضت عليه ، فانقض جنده وخضعت بلاده ، فدخلها الملك الظافر ، وأقام في بيت الملك المغلوب . وكان لملك صيدون بنت ذاع صيت جمالها ، وحسن أدبها ، فلما رآها جمشيد أحبها ، وأراد أن يتزوجها ، فلم تستطع أن ترفضه ، وتزوجها جمشيد وسار معها إلى إيران .

وكانت بنت ملك صيدون تحب أباهاً حباً عظيماً ، ولم يكن زواجها من أعظم ملوك الأرض وأوسعهم ملكاً وأكثرهم ثراءً لينسيها أباهاً ، فهي حزينة عليه حزناً زهداً في كل ما في قصر جمشيد من أبهة وجمال ، وكلما حاول جمشيد أن يخفف من حزنها أو يشرح من صدرها لم تلتفت إليه ولم تتأثر بما يعمل لإرضائها . ودخل عليها ذات يوم فإذا بها تبكي وتندب أباهاً ، وتذكر أيامه الخالية ، وأيامها السعيدة في عهده ؛ فأشفق عليها جمشيد ، وخشى أن تهلك إذا دأبت على البكاء ، فساءلها أن تعاونه في إيجاد وسيلة تنسيها أباهاً ، وتلفتها إلى ما هي فيه من خير ونعماء ، وتحقيق آمال جمشيد في أن تكون ربة هذا البيت الذي أعده لها ، وملكة على هذه البلاد التي تحبها حباً جماً . قالت السيدة الحزينة : مرّ مهرة الفنانين بعمل صورة لأبي حتى أراها كل يوم ، لعل هذا يخفف حزني وينسيني فراقه . فكان لها ما سألت .



وعكفت بنت ملك صيدون على عبادة صورة أبيها ، وأدرك جوارياها أن سيدتهن تسجد للصورة التي أعدها الشياطين لها ، وأنها تعبدنها من دون الله ، فسجدن للصورة كما تسجد سيدتهن ، واتخذن مكانها معبداً لهن ، وأخذن يقمن الصلاة ، ويتوجهن بالدعاء للصورة التي عملها الشياطين ، في قصر

الملك جمشيد . وكان الصديقون يسمعون بما يجري في قصر الملك من عبادة الصورة ، فيرفعون أيديهم يدعون ربهم أن يرفع عنهم هذا البلاء ، ويخلص إيران من عبدة الصور .

وكان لجمشيد خاتم ، هو سر تسخير الجن وإخضاعه الطير ، وهو الذي يهيء له ما يلقي من النصر في حروبه والسعادة في ملكه . وكان لا ينزع هذا الخاتم من إصبعه ، إلا حين يدخل الحمام ، وحينئذ يودعه خادماً مخلصاً اسمها « الأمانة » .

فلما أعرض جمشيد عن نصيح الصديقين ، ولم يقض على بنت ملك صيدون وبدعتها ، غضب الله عليه ، فسلط عليه صاحب البحر « صخرأ » ، وهو من المردة الشياطين . فاتهرز هذا فرصة دخول جمشيد الحمام ، وتركه الخاتم مع « الأمانة » فتزاي به ، وقلد صوته ، وذهب يطلب الخاتم من « الأمانة » فأعطته إياه ، ولم يكذب يلمسه حتى أصبح في مقدوره أن يحكم الانس وأن يخضع الجن لأمره وأن يجعل الطير تعكف عليه ؛ فلما أخذ الخاتم وضعه في إصبعه ، وأسرع إلى عرش جمشيد فاستوى عليه ... وخرج جمشيد من الحمام فطلب الخاتم من « الأمانة » فأنكرته وهزأت به وقالت إن جمشيد أخذ خاتمه وإنه علا العرش . فخرج جمشيد من قصره وقد تغيرت هيئته ، ورثت حاله ، وراح يلتمس الرزق من معاونة الصيادين في البحر . ولم يكن من اليسير على جمشيد أن يتحمل قسوة الحياة وذلة العمل مع الصيادين ، فكان يذكرهم بحاله ، ويحدثهم عما كان له من الملك العظيم ، ولكنهم كانوا يسخرون منه ويتخذونه هزأة لهم ، وتضايق أحدهم من قصته فنهاه عن التحدث عنها ، فلما عاود جمشيد الحديث فيها ضربه فشج رأسه ، فكان يستعين بماء البحر لتنظيف جرحه ؛ ثم أخذ يستغفر ربه ويطلب عفوه .

أما صخر ، الشيطان ، فقد علا على أهل الأرض واستضعفهم ، وسار فيهم سيرة لم يألفوها من قبل ، والتفت « آصف » ، وهو من الصديقين ، فإذا به يرى الخير قد أصبح شراً ، والعدل ظالماً ، ويرى أعمال جمشيد وقد تغير طابعها ، فمن عمارة الأرض إلى خرابها ، ومن إحياء النفوس إلى قتلها ، ومن بث الخير إلى اقتلاع بذوره وغرس الشر . فرأه ما رأى ، وراح يصلي ويدعو ربه أن يعينه على إدراك الحقيقة . وذهب « آصف » فسأل نساء القصر هل لاحظن على جمشيد شيئاً ، فإذا بهن قد سئمنه ، وإذا بهن ينكرن منه كل شيء ، إنه قد بُدِّلَ تبديلاً .

وجمع « آصف » الصديقين ، فأخذوا يتلون التوراة ويتضرعون إلى الله ، يسألونه الرفق بالناس وصلاح الحال . ومكر الله بصخر ، والله أشد مكرراً ، وأدرك صخر أن عذاب ربه محيط به ، فخاف على نفسه وطار إلى البحر ، فوقع الخاتم من إصبعه ، فابتلعه سمكة وغاصت به في اليم .

وكان جمشيد يشتغل أجيراً عند صياد ، وكان أجره سمكتين كل يوم ، فكان يبيع واحدة ليشتري بثمرها خبزاً ، ويشوى الأخرى ليأكلها . وذات يوم شق بطن السمكة قبل شيئها ، فوجد الخاتم فيها فأخذه ، وحمد الله على أن رد إليه ملكه ، وأدرك أن ربه أذاقه مر العذاب بما أباح من عبادة الصور في قصره أربعين يوماً .

وكان الإيرانيون في ضنك مما أصابهم أيام صخر ، فقد زالت البركة عنهم ،

خفت الأنهار ، وسكنت الريح ، ومات الزرع ، وسادت الشياطين . وقد أخذوا يتطلعون إلى السماء ويدعون ربهم أن يرفع عنهم سخطه وغضبه ، وأن يدفع عنهم السوء ؛ وبينما هم في دعائهم إذا بعجلة من العاج والساج ، مفروشة بالديباج ، يحملها الشياطين على أكتافهم ، قد أقبلت بين الأرض والسماء ، وفيها ملكهم جمشيد وقد جلس على عرش من الذهب ، ومن فوقه هالة من نور ، وقد انعكست أشعة الشمس على العرش الذهبي فتلألأ ، وبدأ في أروع منظر ، فعلا هتافهم إلى عنان السماء ، حمداً لله وشكراً ، إذ رد إليهم ملكهم ، وصرف عنهم السوء ، وصاحوا فرحين : نوروز آمد ، أى جاء اليوم الجديد .

وكان هذا أول الربيع ، وهو عيدهم الأعظم .

المهرجان

وطال عهد جمشيد ، وملاً الأرض عدلاً وخيراً ، ونظر فإذا كل من عليها خاضع له يخشاه ، فأخذه الغرور بنفسه ، وادعى الألوهية ، وأمر الناس بعمل تماثيل له يعبدونها من دون الله ، فأغضب هذا ربه ، وسلط عليه الضحاك العربي ، فانتزع الملك منه وقضى على جمشيد .

ويظلم الضحاك الإيرانيين ، ويقتل أبناءهم ليطعم بأدمغتهم ثعبانين كانا على كتفيه ، ويثور عليه الناس ، ويلى عرش إيران أفريدون ، من نسل جمشيد ، فيحارب الضحاك ويهزمه ويأخذه مقيداً فيلقى به على جبل دماوند ، ويخلص الإيرانيين من شره .

وجلس أفریدون على عرشه ، واعتصب بالتاج ومن حوله ملوك الأوساط والأطراف ، وأساریر وجهه تبرق فقال : « شكراً لله فقد أراح البلاد والعباد من شر الضحاك ، ففضى عليه بالهلاك ، وطهر الأرض من خبثه ، وأخلاها من جورهِ وسحرهِ ، وبدّلکم به من یحیی حاکم ، ویعدل فیکم ، ویحسن إلیکم ، وینعم علیکم ، ولا یدخر ممکناً فی النظر لکم » . فارتجت الأرض بالسرور وامتلاّت شکراً وثناءً ، کما امتلاّت السماء دعاءً ، وانصرف الناس إلی أعمالهم ، فعمرت الأرض وزادت الغلات وعم الرخاء ، واحتفلوا بیوم ارتقاء أفریدون العرش وهو عید المهرجان ، أى محبة الروح .
وكان هذا أول الخریف .



وفی هذین العیدین یجلس الملك لسماع ما یرفع إلیه شعبه من شکاوی ، منه ومن ولاته وقضاته . وكان الملك یأمر بالنداء قبل قعوده بأيام لیتأهب الناس لذلك ، فكان کل متظلم یحضر شکایتیه ، وکل خصم یعد دفاعه ، وكثیر من الناس یفوضون ما بینهم من منازعات خشية عرض أمرهم علی الملك . وكان رجال الملك یقفون علی أبواب القصر لیمکنوا للناس دخوله ، وقد فرضت عقوبة شديدة علی من یعترض أحداً فی دخوله قصر الملك أو یمنعه من ذلك . فإن علی الملك أن یرفع عن رعیتیه الظلم ، مهما یکن مصدره ، فی هذین العیدین اللذین خلّص الله فیهما ایران من الشیطان ومن الضحاک ، وكان المنادون ینادون : « من حبس رجلاً عن رفع مظالمته فقد عصی الله وخالف سنة الملك ، ومن عصی الله فقد أذن بحرب منه ومن الملك » .
وتُنظر شکاوی الناس ، فإذا کان منها ما یُخاصم فیهِ الملك ، تنحی هذا

عن نظرها ، ثم رأس المحكمة الموبدان موبد . ويقوم الملك مع خصمه فيجثوان بين يدي الرئيس ، ويقول له الملك : إن الله قد اصطفاك اليوم لتحكم بيننا باسمه ، فإذا خشيت الملك ولم تعدل في حكمك فإنك تغضب الله ، وإذا راعيت العدل ، وكان الملك ظالماً فحكمت عليه فإنك تغضب الملك ، والله أحق أن تجشاه ، ولتكن جديراً بالموقف العظيم الذي تقف .

ويقف الموبد فيثنى على الملك ويدعو له بالخير ويقول له إن الله إذا أراد بعباده السعادة فإنه يولى عليهم ملكاً تجرى على لسانه الآيات التي ذكرت ، فإنك تدعو إلى العدل واتباع أمر ربك ، والله خير العادلين .

وينظر القاضي الشكوى ، فإن كان الملك مخطئاً حكم عليه بتعويض خصمه ، وإن كان الملك مظلوماً حكم على خصمه ، حتى لا يجروا الناس على اتهام الملك بالباطل .

وبعد ذلك يجلس الملك ليفصل في ظلمات الناس ، وذلك كي يكون الإيرانيون في هذين العيدين سعداء ، منشوحة صدورهم بالعدل ، راضية نفوسهم عن الملك .

روزتير

وقامت الحرب بين الفرس والترك ، وظفر هؤلاء بإيران ؛ وقد اصططح المملكان ، أفراسياب ومنوچهر ، على أن يأخذ ملك إيران رمية سهم من بلاده ليحكمها . واشترك الملاك اسفندارمذ في صنع النشابة والسهم ، وأمر منوچهر أرش ، وهو من رجال الدين الأذكياء ، بأخذ القوس ورمى السهم ، فقام وتعرى وقال : أيها الملك وأيها الناس ، أنظروا بدني فإنني برىء من كل

جراحة وعلة ، وإنى موقن بأننى إذا رميت بهذه القوس تقطعت إرباً وتلّفت
نفسى ، وقد جعلتها فداءاً لكم . ثم تجرد ومد القوس بما وهبه الله من القوة ،
وأطلق السهم فسار فى الجو ، وحمل الملائكة السهم مسافة ألف فرسخ ،
واصطلح الملكان على تلك الرمية . أما أرش فإنه قد هلك بعد أن رمى ؛
وهكذا عاد لإيران استقلالها .

واتخذ الفرس عيداً لهم فى هذا اليوم الذى تخلصوا فيه من أفراسياب ملك
الترك ، وعادت السيادة الكيانية على بلاد إيران ، وهو يوم روزيتىر ، أى
يوم الرمية ؛ الرمية التى حررت إيران من الترك .



٢٩

أخوان

كان أحدهما يعمل فى حاشية السلطان ، ويتمتع بالجاه والنقود ، ويعيش
بغيركد ولا عناء ، وكان الآخر فقيراً يعمل بذراعيه طول يومه ليحصل
على قوته .

قال الغنى لأخيه الفقير : لم لا تدخل فى خدمة السلطان لتستريح من
الكد والعناء ؟

فقال الفقير لأخيه الغنى : لم لا تكدا أنت وتخلص نفسك من ذلة الخدمة ؟

الملك الظالم والدهقان

كان على حدود بلاد الغور رجل جبار ، أوتي من القوة والجرأة ما يمكنه من أن يملك هذه الناحية ، وقد أولع باغتصاب حمير أهل القرى ، فكان يأمر بالاستيلاء عليها ، فيحملها فوق طاقتها ولا يطعمها ، فكانت تهزل ثم تهلك . وهكذا السفلة إذا الزمان رفعهم درجات ملأوا قلوب الفقراء غماً ومكداً . . . وهكذا الوضع إذا الزمان رفع عماد بيته ألقى القاذورات على ما تحته من أسقف الجيران . . .

وقد سمعت أن هذا الملك خرج للصيد يوماً ، فلقى غزالاً فسار على أثره ، حتى ابتعد عن حاشيته ، وأرخى الليل سدوله ، فضل طريقه ، ووجد نفسه في قرية ، فلم ير بداً من المبيت فيها .

* * *

ونزل الملك من على حصانه ثم ربطه واستعد لينام ، ولكنه رأى رجلاً ومعه حمار قوى ، يقدر على حمل الأثقال ولا يبدو منه تراخ ولا كلال ، وقد أمسك صاحبه بعظم وأخذ يدق به عظامه ، في قسوة لا تحدها رحمة ، وشدة لا تعرف ليناً ؛ والحمار يئن من كثرة ما أصابه من أذى ، ويتلوى من

فادح الضربات ، ولكن ليس من يرحمه أو يرفق به . فصاح الملك على الدهقان :

أصخرة أنت لا تحركك تأوهات هذا الحيوان الآخرس وقد أعجبتك قوتك فرحت تصب عليه عذابك صباً ، كأني بقلبك قد قُدد من صخر ، أو كأني بك وقد ذهب عقلك فغاب عنك سوء ما تقترف . . .

فلما سمع الرجل قول الملك صاح في وجهه قائلاً : إني لم أضرب حمارى قسوة منى عليه ، أو رغبة منى في تعذيبه ، ولست أقدم على ما ترى حماقة أو جهلاً ، وما دمت يا صاحبي تجهل أمرنا فمن الخير لك أن تدع ما لا يعنيك ، فإنك لو عرفت الحقيقة لأدركت أن ما رأيت لا يجانب الصواب ، ولا هو من الزلل .



لم يعجب الملك بهذا الكلام ، وأراد أن يتبين الحقيقة من الرجل ، أليس هو الملك ومن واجب الملك أن يقف على أحوال رعاياه ؟ والرجل يجهل أنه الملك فهو سيصدقه القول ، وسيوقعه على الحقيقة سافرة . . . فقال تعال حدثني عن ضربك حمارك هذا الضرب المبرح ، فإنني جد راغب في الاستماع إليك ، وما أظن أنك سكران ، ولكنني أخاف أن تكون بك جنة . فرفع الرجل نظره إليه وقال : حسناً أيها التركي ، فإنك لا تعرف من أمور بلادنا شيئاً ، هلاً أتاك حديث الخضر وقد ركب السفينة مع موسى نخرقها ، ولم يقل أحد إن الحمر كانت تلعب برأسه أو إنه مجنون ؟

قال الملك : ولسكنك أيها الفظ الغليظ القلب لم تدر أن الخضر قد خرق السفينة ليعييبها ، فإنها كانت لمساكين يعملون في البحر ، وكان من ورائهم ملك

يأخذ كل سفينة غضبا ، وكانت القلوب منه واجفة ، والناس منه في رعب ، وما أشك أنك توافق على أن سفينتك معيبة وهى معك خير منها سليمة وهى في يد الملك الغاصب .

فضحك الدهقان عالياً وقال : إذا فأنا على حق يا سيدى ، فإننى لم أكسر رجل حمارى عن قسوة منى أو جنة بى ، وإنما فعلت ذلك حتى لا يقع فى يد ملكنا الظالم ، فإنه يأخذ كل حمار غضباً ! ولحمارى معى وهو أعرج خير من فقدته سليماً ليأخذه الملك فيحمله ما لا يطيق ولا يطعمه فيهلك . ألا تعلم أنه يأخذ حميرنا ويظلمنا وأنه سيجازى يوم القيامة حين يحيق المكر السيء بأهله ؟ وسترى أن هذا الذى يحمل الحمير ما لا تطيق من أحماله سيحمل أثقالها جميعاً يوم الحساب ، فينوء بها ، ويتردى فى جهنم وبئس القرار . إنه ملك شقى ، يحسب سعادته فى ظلم الناس واغتصاب الحمير . . . أدع الله معى أن يهلك هذا الملك الظالم ، فإن فى موته الخلاص من الظلم ، والأمن من الخوف . . . أأست ترى معى أنه سيء الطالع ، لا يسعد إلا فى شقاء الناس ، ولا ينعم بالسلطان إلا بنزع رعاياه منه ، ونسى أن محبتهم قوة ، وأنها خير ما ينعم به الملك العادل ؟



سمع الملك هذا الكلام فأرتج عليه ولم يجر جواباً ، فاستأذن صاحبه ، ورقد بجوار حصانه يريد أن ينام . ولكن كيف يأوى النوم إلى جفونه وقد سمع من الرجل ما أقض مضجعه ، ونفى الكرى عن عينيه ؛ إن قلبه متعب وإن روحه قلق ، فإنه يظلم الناس ، وهم يخافون بطشه وغضبه ، هم منه كالخضر يخرق السفينة حتى لا يغصبها الملك الظالم . . . وراح يعد النجوم إلى

أن كان السحر ، وغردت الطيور مستقبلة الصباح فرحة مستبشرة ، فنهض
حزين الفؤاد ، كاسف البال ، فركب حصانه وأخذ يتأمل في الأفق ،
حسرةً واستغفاراً .

وأخذ رجال الحاشية يبحثون عن ملكهم ، وفي الصباح الباكر اهتدوا
إلى آثار حوافر حصانه فتبعوها إلى أن وجدوا الملك وقد ركب حصانه
ووقف ينظر إلى الفضاء ، شارد اللب ، حائر النظرات . وأقبلوا عليه وتجمعوا
من حوله ، مظهرين له الطاعة والخضوع والولاء . وأخذ الملك يتحدث إليهم
وهم يسمعون ، ثم مدت الموائد ودارت كؤوس الراح ، وانطلق أهل الغناء
بعذب الألحان ؛ وفي هذا الجو الضاحك ، اللاهي ، الساخر ، تذكر ما كان من
حديث الدهقان معه بالأمس ، وما بدر منه من الغلظة والخشونة والعيب
فيه . وجرى الجند يبحثون عن الدهقان في كل مكان حتى ظفروا به ، فجروه
مقيداً وألقوه أمام الملك .

ولم ينتظر الجلاد أمراً ، بل إنه أخرج السيف من غمده ، ورفع يده يريد أن
ينقض به على رقبة المسكين فيزهق روحه ، وأبصر الدهقان نفسه أمام الرجل
الذي صارحه القول بالأمس ، فإذا به الملك الجبار بعينه ، وألقى نفسه يائساً
من حياته . إنه في يد الملك الظالم ، الغاضب وقد تطاول عليه ، وإنه يرى
الجلاد يستعد للضربة القاضية :

ألا أيها الملك ترفق ، فما قتلي بمجديك نفعاً ، ولا هو بمسكت عنك السنة
الخلق ؛ ولئن قتلت نفسك بريئة بغير نفس ولا ذنب فإنك لن تستطيع أن
تقتل الناس جميعاً ؛ ولا تحسبن حديثي معك بالأمس يحل لك سفك دمي ،
فإني قد حدثتك بما في قلوب رعاياك من سخط عليك وبغض لك ، وأولى
لك ثم أولى أن تتدبر الأمر ، وتعديل في الناس .

ألا أيها الملك ترفق ، فهاذه الحاشية التي من حولك بمخلصة لك ، ولا هي راضية عنك ، إنما جمعهم حولك الخوف منك أو الطمع فيك ؛ ولقد رأوك تأكل التراث أكلاً لمتاً ، فهم يأكلون معك ، وتحب المال حباً جماً ، فهم يحبونه معك ؛ ولو والله عزم الأمر ، وذهب عنك الحول والطول ، لانفضوا من حولك ، وهم إن تقفوك بعد هذا يكونوا أعداءاً لك ، ويبسطوا إليك أيديهم وألسنتهم بالسوء ؛ فلا تعملن برأيهم ، فما يسكت ألسنتهم عن قول الحق فيك غير ما أنت عليه من قوة ، وما لك عليهم من سلطان .

ألا أيها الملك ترفق ، وخير لك أن تتدبر أمرك ، وتندم على ظلمك الناس ، وتستغفر ربك ، ولئن وجدت في نفسك من القوة ما يتيح لك سفك دمي فغداً تقف أمام الواحد القهار ، وقد زدت وزراً على ما يشغل كاهلك من الأوزار . ولستألن عن روحى ماذا جنت عليك لترهقها . ولقد رأيتك بالأمس وقد عجزت عن إجابتي وأنا بشر مثلك ، بل أنا عبد من عبيدك ، فكيف بك غداً وأنت أمام ربك المنتقم الجبار . . .



وتهامس الحاضرون من حاشية الملك ، وعابوا على الدهقان جرأته ونادوا بقتله . أما الملك فرفع رأسه إلى السماء ، واستغفر ربه ، ثم فك قيد الرجل بنفسه ، وضمه إلى صدره وقبّله :

يا سيدي إني وجدت فيك خير الناصحين ، وإن لك القرية التي أنت فيها ، والتي هداني ربي يوم حملت بها ؛ فأنت منذ اليوم والمها ، وأنت مني الأخ الصديق والولى الحميم .

ثم نظر إلى حاشيته وقال: حقاً إن الملوك لا يجدون في أصدقائهم وحاشيتهم من يجروا على قول الحق لهم ، فإن الصديق لا يرى عيوب صديقه ، وعيوب الملك حسنة عند بطانته ، والعاقل من يعرف صفاته من خصمه ، لأنه لن يعرفها من صديقه .

(پستان)

٣١

الصوت المنكر

كان مؤذن في مسجد سنجار قد تطوع للأذان ، وكان صوته منكراً تنفر منه الأسماع ، فسمعه الأمير الذي بنى المسجد فأشفق على الناس من سماعه ، فناداه وقال له : يا صاحبي إن بالمسجد مؤذنين أتقد كلا منهما خمسة دنانير في الشهر ، وقد رأيت أن أعطيك عشرة دنانير على أن تذهب إلى مسجد آخر .

فانتقل المؤذن إلى مسجد آخر ، ولكن لم يلبث أن جاء إلى الأمير وقال : ذهبت يا مولاي إلى مسجد كذا وأذنت فيه ، فعرض عليّ أمير الجهة عشرين ديناراً على أن أترك المسجد ، فلم أقبل العرض قبل أن أسألكم ، فإنكم بهذا تفقدون في شخصي كثيراً . . .

فابتسم الأمير وقال :

حذار أن تتركهم ، فإنهم سيعرضون عليك خمسين ديناراً !

القط والفأر

كان بكرمان قط ضخيم الجثة ، حاد المخالب ، شديد الافتراس ، كأنه ثنين . كانت بطنه منتفخة مثل الطبل ، وخده مصعراً مثل الترس ، وذيله طويلاً كذيل الأسد ، وأظافره قوية كأظافر النمر ، كان هذا القط يخيف الفهود إذا سمعته يموء ، وكانت الأسود تولى هلوعة إذا رآته يتحفز للصيد .

وقد اختفى هذا القط ذات يوم في خماره وراء دكن الحمر ، كما يختبئ اللص في الصحراء ؛ إنه يريد صيداً . فرأى فأراً يخرج فجأة من ثقب في الحائط ، ويصعد الفأر إلى الدن وينظر إلى الحمر فتشوقه رآحتها للشراب ، فيقبل ويشرب حتى يفقد صوابه . فلما لعبت الحمر برأسه أخذ يتحدث مختللاً مزهواً : أين القط أقطع رأسه ، وأحشو بالتبن جلده ، ألا ليته يقوى فيخرج لملاقاتي في الميدان .

فأما سمع القط هذا الكلام ، وعرف ما ملأ نفس الفأر من الغرور ، استعد لأكله ، فإنه سكران ثرثار . وقفز القط فأمسك الفأر بمخالبه ، فبكى هذا وتضرع واعتذر : هلا عفوت عن مسكين أفقدته الحمر صوابه ، وأطار الغرور رشده ، وقد وقع بين يديك لا حول له ولا قوة ، فاقداً كل شيء . إلا الأمل في عفوك ؟ وهكذا راح يلتمس العفو من القط الغاضب . لم يفكر القط في تأوهات الفأر ، ولا رق قلبه لضعفه ، وقد أعجبه لجهه ،

فسال لعبه وأقبل عليه غير آسف فنهشه وازدردده ازدردادا ، قائلاً : كففاك
خداعاً ومكرأ ، فقد فضحتك نواياك .

* * *

وشبع القط ومسح فمه بلسانه ، وخرج من الحمارة إلى المسجد فتوضأ
وأخذ يتلو الأوراد كأنه من أهل الصلاح الزاهدين ، ثم سار إلى المحراب
فجلس واستغفر ربه وتاب وأناب وأقسم ألا يأكل فأراً بعد ذلك ، وأخذ
يدعو ربه نادماً على أكله الفيران الضعفاء ، نادراً منّين من الخبز صدقة
وتكفيراً عن ذنبه ، ثم أخذ الورع وتملكته التقوى فأجهش بالبكاء .

وكان وراء المحراب فأر يسترق السمع ، فأعجبه ما سمع من القط ، وراح
يبشر إخوانه بندم القط وتوبته ، ويحدثهم عن وضوئه وصلاته ودعائه وأنه
أصبح مسلماً عاملاً ، يؤدي الفرائض ويخشى الله .

وفرّح الفيران بما بشرهم صاحبه به ، وأخذوا يفكرون فيما يعملون لهذا
القط الذي اهتدى ، جزاء هدايته ومحبته لهم ، فأجمعوا على أن يرسلوا سبعة
من زعمائهم ليعبروا له عن صادق مودتهم وخالص وفائهم ، وحمل كل منهم
من الهدايا والطرف أشكالاً وألواناً . وسار الوفد إلى حيث القط فوضعوا
أمامه هداياهم ، العنب والتمر والجبن واللبن والزبد والخبز والأرز وعصير
الليمون . وتقدم رئيسهم فأعرب للقط عن إعجاب الفيران بسلوكه وهدايته ،
ثم قال إنه حضر مع إخوانه بهذه الهدية عرفاناً بالجميل ومبادلة للصدقة والولاء .
وكان القط قد أمضى أياماً في الصلاة والعبادة ، صائماً عن أكل الفيران ؛
فلما رأى وفدهم قد جاء عنده طائعاً مختاراً ، تبسم ورفع رأسه للسماء وقال :
حقاً ، « وينزل لكم من السماء رزقاً » ، وقد رزقه ربه جزاء صبره وعبادته .

ثم نظر إلى الفيران السبعة قائلاً : « تقدموا أيها الرفاق فإننا تربطنا منذ اليوم
أوثق الصلات » ، وتقدم الفيران ، مرتعدة فرائصهم ، لا تكاد أرجلهم
تحملهم . وأقبل القط يستقبل ضيوفه وحلفاءه ، متئداً الخطى ، ثابت النظرات ،
هاديء النفس ، حتى إذا صار منهم على مسافة قصيرة ، قفز فأمسك خمسة
منهم ، في كل من مخليه إثنان وفي فمه واحد ، وأما الفاران الباقيان فقد
ملئاً رعباً وذعراً ووليا هلعين . إن القط قد عاد إلى طبيعه ، وسارا إلى الفيران
ينبئان بما جرى .



وحزن الفيران فلبسوا سود الثياب ، ووضعوا فوق رؤوسهم التراب ،
فقد فقدوا خير زعمائهم ، ورأوا آمالهم في الأمن والسلم تنهار أمامهم ؛ إن
الطبع غلب التطبع ، وعاد القط مفترساً وعدواً للفيران مبيئاً ، فيه الهلع والقتل
والعذاب ؛ فقرروا أن يذهبوا إلى ملكهم ليرفعوا شكواهم مما لقوا من القط .
وتجمعوا فركبوا خيولهم وشمروا أسواعدهم وحملوا أسلحتهم وساروا إلى حيث
ملكهم قد استوى على عرشه ، فلما رآهم أعجب بهم وتبسم ، فتقدم القادة بالتحية :
« إنا جئناك يا ملك ملوك الزمان ، لكي تنتقم لنا من القط ، غرر بنا
وسخر منا ثم قتل خمسة من عظمائنا ، لقد كان يأكلنا فرادى ، أما اليوم فقد
أسلم وأخذ ينهشنا خماسي » .

فلما سمع الملك هذا الحديث استشاط غيظاً وقال : إني ملاق القط ،
وسأجعله أحدىثة الزمان . ونظم الملك جيشاً من فيران خراسان ورشت
وجيلان تعداده ثلاثة وثلاثون ألف فأر ، وقد قسم أفواجاً ؛ وسار الفيران
وفي خصورهم السيوف مسلوطة ، وفي أيديهم الرماح مشرعة ، وساروا سراعاً
خفافاً كأنهم جوارح الطير .

وكان منهم فارس حكيم عاقل شجاع ، فأشار على الملك أن يوفد رسولا
إلى القط ، حقنا للدماء ، يخيره بأنذار نهائي بين الخضوع التام أو يقبلها
حرباً لا هوادة فيها . لا تبقى ولا تذر .

وسار سفير الفيران فأنبأ القط بما يدبر له ، وخيره بين الاستسلام
أو تحمل نتيجة الحرب ، فأجابه القط بأنه لن ينتقل من كرمان ، ولن يخضع
لملك الفيران ، ولتفعل بين قوته ما تشاء .

وفي الخفاء أرسل إلى الققط من أتباعه في أصفهان ويزد وكرمان ، وأمرهم
بالتجمع للقاء جيش الفيران . وسار الجيشان إلى الميدان ، الفيران من كوير
والققط من قهستان . والتقى الجمعان ، ودارت رحى الحرب الضروس ،
وكانت الشجاعة من الطرفين تؤجج أوراها وتبعد نهايتها ، وحدثت مقتلة
عظيمة من الجانبين ، وأبصر القط نفسه يكاد يغلب ، فتحفز وهجم على قلب
جيش الفيران ، فأكثر فيهم القتل ، ولكنه جرح . وكان فارس قد تبعه
فوجد رأسه منكسا من فوق حصانه ، فنادى الفيران وحضهم على المضى في
القتال ، فكبروا باسم الله وهاجموا القط ، فغلبوه وأوثقوا بالحبال قيده ،
وهكذا تم لهم النصر .

وسار ملك الفيران مزهواً ، وقد ركب فيلاً ضخماً ومن خلفه جنده
بموسيقاهم ، يعزفون أناشيد النصر ، حتى إذا جاءوا الميدان أمر الملك بنصب
المشنقة ، ولبشق القط ، ثم التفت إلى هذا فأشبعه سباً وسقط قول ،

أما الفيران فأخذوا ينظرون إلى القط في خبث وقد أصبح ذليلاً لا شفيع له .

وضاق صدر القط حتى كاد يتميز من الغيظ ، فجلس على ركبتيه وأخذ يقرض الحبال التي أوثقوا بها يديه ، حتى استطاع أن يفلت من قيده ، وهجم فاوقع الذعر في نفوس الفيران فتفرقوا أشتاتاً .

واختبأ الملك وانقض الجيش ، ولحق القط بالملك فصرعه وهو فوق الفيل .

(كربه وموش . عبيد الزاكاني)

٣٣

أنوشروان العادل

يحكى أن الملك أنوشروان ذهب ذات يوم في رحلة يصطاد ، ولما حان وقت الغداء لم يجد ملحاً ، فأمر حاجبه أحد الغلمان أن يذهب إلى قرية قريبة ليحضّر الملح ، فأمر أنوشروان بأن يشتري الغلام الملح بالنقود ، حتى لا يعطاه بالمجان فتخرب القرية .

ف قيل له : أي خلل يصيب القرية من حفنة ملح ؟

فقال :

« هكذا بدأ الظلم في الدنيا ، بدأ قليلاً جداً ، ثم أخذ يزيد الحكم عليه ،

(كلستان)

إلى أن بلغ الحد الذي نراه »

القرن الحكيم

حينما عمل أردشير ، مؤسس الأسرة الساسانية ، على توحيد دويلات ملوك الطوائف في إيران ، لم يرد ملك طبرستان ، جشنسف شاه ، أن ينضم إليه ، وقد كتب إلى تنسر وزير أردشير يسأله النصيح ، فكتب إليه تنسر يقول :

إنك حين تدعو إلى الفرقة التي نهض أردشير لتلخيص البلاد منها ، وإلى الاستمساك بفض العروة الوثقى التي أمر الله بها أن توصل ، إنما تدعو إلى تقطيع أوصال إيران تقطيعاً ، وتعمل على أن يقوى الأعداء عليها ويظفروا بها ، فإن الفرقة إذا دخلت أرض أمة وليّ الخير منها ، ووجد الشرف فيها مرتعه الخصب .

ولقد كنا أمة تخضع لملوكها الأقاليم السبعة ، ولم يكن ملك أجنبي مجرؤ على الخروج على ملوكنا . وكان آخر عهدنا بهذه السيادة أيام الملك دارا بن جهرزاد ، الذي لم يكن ملك في الأرض أعلم أو أحكم أو أطيّب ذكراً منه ؛ وقد خضعت له البلاد من الصين حتى مغارب الروم ، وكان الملوك تابعين

له ، يقدمون له الهدايا ويدفعون له الجزية عن يد وهم صاغرون ، وكانوا يسمونه تغولشاه .

وإني أحدثك عن سبب البلاء الذي أصاب هذا الملك الواسع ، فبده طوائف وكان جميعاً ، وأذله بعد عزة ، والذي لا تزال آثاره باقية فينا ، والذي يعمل ملكنا أردشير على رفعه ، وإعادة ملكنا عزيزاً كما كان ، فاسمع وعه ولا يفرنك الغرور .



كان لدارا غلام اسمه پيرى ، اختصه بعطفه وقربه منه ، فكان يؤاكله ويشاربه ويصاحبه في رحلاته ؛ وقد أخذ پيرى يتدخل في شئون الدولة ، وكثيراً ما كان دارا يتأثر بقوله فيعمل به . وكان للملك وزير مخنك ، أمضى عمره الطويل في خدمة الملك ، وكان راجح العقل ، فصيح اللسان ، حصيف الرأي ، تقياً أميناً ، حميد الخلق ، اسمه رستين ، كأنه هو الذي قصده الشاعر حين يقول :

لقد طبن في الدنيا مناقبه التي بأمثالها كتب الأنام تؤرخ

وكان پيرى يحسده على علو درجته ، ورفيع مكانته ، وثقة الملك فيه ، وتاقت نفسه إلى أن يشغل مكانه فيخلو له الجو ويحكم بأمره . فأخذ يشهر به ويطعن عليه ، حتى بلغ الخبر رستين .



فلما علم رستين أن پيرى قد أطلق لسان السوء فيه ، غيرةً وحسداً ، ذهب إلى الملك دارا بن جهرزاد ، فقبل الأرض ودعاه ، ثم استأذن في

الكلام ؛ وكان من تقاليدهم أن لا يصارح الرجل ملكه بما يريد أن يقول ، بل يتحايل على بلوغ الغاية من كلامه بقصة ترمز إلى ما يرمى إليه ؛ فلما أذن له الملك قال :

سمعت يا مولاي عن جزيرة بها مدينة يحكمها ملك قد ورث الملك عن آبائه ، كان يحب شعبه وكان شعبه يبادلوه هذا الحب ، وكان بجوار هذه المدينة مدينة أخرى يسكنها القردة ، وكان هؤلاء يحيون في مدينتهم الصغيرة في خفض من العيش وسعة من الرزق وهدوء البال ؛ وكان عليهم ملك يستمعون لرأيه ، ويهتدون بهديه ، ولا يصدرن إلا عن أمره . وقد جمعهم ملكهم ذات يوم وقال لهم : إن علينا أن نهجر من هذه المدينة إلى بلد أمين .

أرى تحت الرماد وميض حجر ويوشك أن يكون له ضرام

فقال القردة : إن على ما سكتنا أن يبين لنا سبب هذه الهجرة ، وأن يطلعنا على ما يبررها ، حتى نأخذ الرأي عليها ، فإذا رأينا الخير فيها عملنا بها . قال الملك : إنى لن أطلعكم على سبب هذا الرأي ، فإن بلدكم هذا قد طاب لكم ، إنه فسيح مجبب إلى القلوب ، كثير الخيرات . وأنا واثق بأنكم لو اطلعتم على ما علمت لن تقيموا له وزناً ؛ ولكني وقد أوتيت من الفضل والرأي ورجاحة العقل أكثر مما أوتيتم ، آمركم أن تقبلوا نصحي وأن تتبعوني ؛ ولست أرى عجباً ، فإن الهجرة والجلاء من سنن الأنبياء الذين كثيراً ما هاجروا وجلوا عن بلادهم ؛ لأن العاقل إذا رأى تباشير الشر ومناكير الضر تدنو منه ومن شيعته ، فاستهان بما يرى ، وآثر البقاء في وطنه ، كان جديراً بأن يرمى بالجهل والكسل .

قال القردة : لقد مهد الملك لقبول نصحه تمهيداً حسناً ، حفزه على ذلك كمال رأفته وفطر عاطفته نحو رعاياه ، ولكننا ندعوه ألا يبالغ في القول ، إلا إذا وقعت الواقعة ومسنا الزمن بضر وخيم ، وإن قلوبنا لن يهدأ خفقانها حتى يحدثنا ملكنا عن سبب أمره بالرحيل ؛ وحينئذ لن نجد منا غير الانقياد لأوامره واجتناب نواهيه ، موفين له حق شفقتة بنا ورحمته علينا .

قال ملك القردة :

إذا فاعلموا أني علوت بالأمس شجرة تشرف على المدينة المجاورة ، فرأيت في قصر ملكها خروفاً ينطح خادماً من خادمات القصر . وقد نصح الحكماء بترك جوار المتعادين ، وأنا لا أريد أن أخالف رأيهم ولأن أتخذ نصيحهم لغوا . فنظر القردة بعضهم إلى بعض ضاحكين ساخرين من قوله ؛ ثم قالوا : إنك ملك علينا منذ سنين عدداً ، تقتدي بك ونراك أكثرنا عقلاً وأبعدنا تجربة ، فقل لنا ماذا علينا من خروف ينطح جارية في قصر جارنا الملك ؟ فقال ملك القردة :

فيه هلاككم ، وهو يسير « إذ يبدأ بكم ، ثم يهلك من بعدكم أهل هذه المدينة ويقتل ملكها وتصبح خراباً .

فعجب القروء أشد العجب من قول ملكهم ، وراعهم ما يحول بخاطره ، فقالوا له : إنا لم نعهد فيك ما نرى ، ولسنا نشك في أن عين سوء قد أصابتك ، فجعلت على عقلك غشاوة ، فمر يا مولانا بالأطباء لعلاجك ، ترجع إلى صوابك ولا تفقد عرشك .

فقال ملك القردة :

صدق الحكماء : فإن « من عدم العقل لم يزد السطان عزاً ، ومن عدم القناعة لم يزد المال غنى ، ومن عدم الإيمان لم تزد الرواية فقها » ، إني

أراكم في شك مما أقول ، ولقد تبينت رأيكم فيّ ، ونظركم إليّ ، فالأولى بي أن أذهب إلى الطبيب بنفسى ، وأن أبعد عنكم مغبة المرض .
وترك أملكه وفارقهم فوراً .

* * *

لم يمض على هذا زمن طويل حتى كانت الجارية ، في مدينة الآدميين ، تخرج من قصر الملك ، راكضة وفي يدها قارورة ملؤها الزيت ، وفي اليد الأخرى عود مشتعل بالنار ، فجرى الخروف وراءها يريد أن ينطحها كعادته ، فأرادت الجارية أن تدافع عن نفسها ، فرمته بما في يدها ، وهكذا اجتمع الزيت والنار وصوف الخروف ، فاشتعل المسكين وأخذ يجرى من باب إلى باب ومن قصر إلى قصر ، إلى أن دخل قصراً لرجل من أركان الدولة ، كان مريضاً فارتقى عليه فخرقه .

وأبلغ جماعة من أهل المدينة الملك بما أصاب الرجل من حروق ، فأرسل في طلب الأطباء ، فلما اجتمعوا ورأوا المصاب اتفقوا على أن لا دواء لجراحه التي خلفها الحرق غير مرارة القردة . فقال الملك إن هذا يسير ، ثم أوفد صياداً ليصطاد قرداً من المدينة المجاورة ، لينتزع الأطباء مرارته ويعالجوا الرجل . وذهب الصياد واصطاد بالغدر والحيلة قرداً ، ولكن القردة تجمعوا من حوله وقتلوه ثم مزقوه إرباً إرباً . وبلغ الأمر الملك فغضب وركب وذهب على رأس فرقة من حرسه لقتال القردة ، فأجرى فيهم مقتلة عظيمة ، ثم عفا عن من بقي حياً منهم .

* * *

وتقدم قرد نحو رجل من حاشية الملك وسلم ثم قال : لقد عشنا في جواركم

سنين طويلة لم يصبنا منكم شر ، ولا مسكم ضر منا ، وكان كل منا يعيش بما قدر له من رزق ، على طريقته التي استنتها لنفسه ، فبأى فكرة أقدمتم على هلاكنا ، كأن شوك اللوم قد أصاب عين المروءة فيكم ، فسخرتم من حقوق الجوار ، وغفلتم عما تلقون في الدنيا من اللوم وفي الآخرة من الغرم .

يا جائرين علينا في حكومتهم الجور أعظم ما يؤتى ويرتكب

فقص الرجل على القرد ما كان من أمر الجارية والخروف والنار ومن احترق بها ورأى الأطباء في الدواء وقتل الصياد وانتقام الملك له . فاغرورقت بالدمع عينا القرد وقال : « حقاً إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة .

أمرتكمو أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

يا صاحبي : إن سيل القدر قد جرفنا فأغرقنا ، وغداً تطحنكم رحاه فإذا أتم هشيم تذروه الرياح »

قال الرجل : إنها كبيرة دعواك ، فهلا أقمت الحجة عليها ؟

قال القرد : بلى ، فقد كان علينا ملك ذو عقل وكياسة ، وفضل ودراية ، وكان يحيط خبراً بعجائب الدنيا وغرائب السماء ، وقد نجا من آلاف المكامن ، بثاقب رأيه ومبين عقله ، ولم يقع في شباك الدنيا ولا غره غرورها ، ثم قص على الرجل ما رأى ملك القردة في قصر ملك الآدميين ، وما جرى بينه وبين القروء ، ثم قال : إنه تركنا وولى ، لأننا لم نسمع نصحه ، وهانحن نرى صدق ما رأى ، أما أتم فتوقعوا هلاككم غداً معشر الآدميين .



كان الرجل يصغى إلى القرد متعجباً ، فلما ذهب إلى المدينة قص ما سمع ، وحدث من هذا القول إرجاف في أسماع وأفواه الخاص والعام حتى بلغ الملك . فأمر هذا بإحضار أول من نقل حديث القرد إلى المدينة ، وكان من أعيانها وأهل الاعتبار فيها ، فأتى الرجل القصر مع أقربائه وإخوانه ؛ ويشاء القدر أن يكون الملك غاضباً سقيم المزاج حين مثل الرجل بين يديه ، فأمر بقتله مع تعذيبه عذاباً أليماً . فلما سمع أهله أمر الملك عادوا إلى المدينة فتجمع الناس من حولهم وقصدوا القصر ، وأمسى الشر عرياناً ، ولم يكن من وسيلة لإخماد الفتنة والقضاء على الشر ، وانتهى الأمر بقتل الملك ، وتفرق الناس من بعده أشتاتا ، وخربت المدينة .



فلما قص رستين على تغولشاه قصة القرد الحكيم ، سأله : لآى شىء قصدت بهذه القصة ؟ فعرض رستين أمره وأمر پيرى وماقد تستتبعه الخصومة التى شنها هذا عليه من فساد فى الأرض ، والتمس من ملكه أن يخليه من عمله ، فإن فى هذا العزل مصلحة الوطن ، ولو أنه ثقیل على الملك أن يفعل . قال تغولشاه : « لا تتحدثن عن هذا الأمر فإنى سأ كفيك شره ، ولم تمض أيام حتى لقي پيرى حتفه مسموماً » . أما تغولشاه فقد وهن عظمه ، واشتعل بالشيب رأسه ، واقتربت منه المنية رويداً رويداً حتى اخترمته .

ذو التاج يجمع عدة وعديداً والموت يبطش بالآلوف وحيداً

(وأعقب تغولشاه ملوك) إلى أن كان حكم دارا الثالث ، وتجمع الناس من كل حذب وصوب يهنئونه بالعرش الذي علاه .

دول الزمان مناحس وسعود عود ذوى فيه وأورف عود

فإن دارا لم يكن أهلاً لهذا الملك العظيم الذى ورثه عن أجداده ، ولم يكن يعرف قدر الرجال ، وقد نصّب أخاً لپیری وزيراً له ، ولم يفتن إلى القول المأثور :

إذا كنتمو للناس أهل سياسة فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لثام الناس بالبذل يصلحوا على الذل ، إن الذل أصلح للذل

فلما وجد الوزير الجديد نفسه مسيطراً على الدولة ، مسموع الكلمة فيها ، أخذ ينتقم لأخيه من الأمراء والرؤساء الذين كانوا أصدقاء لرستين ، ولم يكن أميناً فى نقل الأخبار لدارا الثالث ، فأخذ هذا يبطش بمن غضب عليه وزيره ، فتقلبت عليه قلوب الناس ، واضمروا له العداوة ، وقد أغفل سنن الأولين ، وعمل ببدعة وزيره الجديد .

فلما خرج الإسكندر يريد غزو إيران ، ركب دارا « أبلق التدهور ، وأمسك بيده عنان الكبرياء » ، فلما التقى بغازى بلاده ، انفض عنه فوج من أنصاره ، وانضم فوج آخر إلى عدوه ، ثم قتله رجاله ، وقد ندموا على ذلك ولكن بعد أن سبق السيف العذل .



قال تنسر ملك طبرستان جشنسف شاه :
هذا يا سيدى الأمير ما كان من أمر إيران حين ظهر الخلاف بين وزيرين

فيها ، يبرى ورستين ، ومنذ مقتل دارا الثالث ونحن لا نحمد ملكا يحكم بلادنا جميعاً ، واليوم وقد أتيح لأردشير أن يوحد وطننا وديننا ، فما أجدرك بالإسراع إليه ، والمبايعة له ، وأخذ ولايتك منه ، وأن تحمد ربك على أن هيباً لنا أن تقضى على الفرقة والانقسام (١) .

٣٥

سر

كان رجل يكتب أسرارَه على ورقة ، وكان بجانبه رجل آخر يتابع النظر في الورقة ، فتضايق الرجل وكتب :
 إن رجلاً جاهلاً ينظر في ورقتي ويضطرني إلى أن لا أكتب أسرارى .
 فغضب جاره وقال :
 إني لم أنظر في ورقتك .
 فقال الرجل :
 وأنا لم أكتب عنك شيئاً .
 (جامع الحكايات)

(١) عن الترجمة الفارسية لكتاب ابن المقفع « تنوير » ، نشر مينوى ، طهران ، ص ٢٩ — ٣٨ . وقد لاحظ Darmesteter أن هذه القصة موجودة في كتاب بنج تنترا السنسكريتي الذي نقل ابن المقفع عنه كليله ودمنه (*Journal Asiatique* سنة ١٨٩٤ ص ٥٣٦) . وقد احتفظنا بقدر الامكان بالألفاظ العربية وبأبيات الشعر التي احتفظ بها النص الفارسي للكتاب .

الدرويش والقاضى

ذهب درويش فقيه ، رث الثياب ، إلى مجلس القضاة ، لسمع مناظرة لهم ؛ وكان الدرويش شغوفاً بالعلم محباً للشرعية ، جلس في الصف الأول ، حتى يحسن الإِصْصات ولا يفوته شىء . وأقبل كبير القضاة فرأى رجلاً قبيح المنظر ، قذر الملبس ، قد تقدم الصفوف واتخذ في صدرها مكاناً ، فنهزه متأففاً . وجاء المعرّف (الحاجب) فغضب أكثر مما غضب سيده ، فأمسك بالرجل ، وجذبه من كمه ، وأمره بالوقوف . وراح المعرّف يؤنب الفقير الدرويش على ما اجتراً من تخطى مرتبته واغتصب من مراتب الفقهاء . أفيرقى أى رجل إلى الصدر ؟ أليس الناس درجات ، وأنهم بالفضل والقدر يتفاوتون كرامةً ورتبة ؟ وكيف يستوّغ عاقل لنفسه أن يجعل من نفسه أسداً ولم يعط مخالب الأسود ؟ وظل المعرّف يكيل اللوم للرجل ، ساخرأ منه ، هازئاً به ، حتى لعب من كثرة ما تكلم ، واكتفى بما لقي الدرويش من خجل وبما أنزل به من عقوبة التقريع .

أما الدرويش فقد نظر إلى القاضى ومعرفه متأوهاً زفرات كالنار تحترق ، وقد ترك مجلسه فى الصدر وذهب إلى آخر صف وجلس . هيهات أن يهبط من عليائه من تأخر عن الصدر مجلسه ، ومن أوتى العزة لا يخفضه أن يكون مجلسه المقعد الأخير .



وجاء الفقهاء فأخذوا يتحدثون ، ثم بدأ الجدل بينهم فيما يعرضون له من القضايا ، كل يلقي بحجته ، ثم يستمع إلى رأى أصحابه . واشتد الجدل ، وحمى وطيس النقاش ، وكثرت لم ؟ ولا نسلم ! وامتدت الرقاب وصاحوا بلا ، وبنعيم . تحسبهم ديوك القتال قد مدت رقابها ، وحددت مناقيرها ، ينقر بعضها بعضاً ، وأعملت فخالها ليشخن كل خصمه ببالغ الجراح . تراهم وقد أفقدهم الغضب وعيهم ، فكان بعضهم يترنح من الغضب كأنه سكران ، وبعضهم يضرب الأرض بيديه كأن به مساً .

وأدى بهم الجدل إلى قضية لم يجد أحد منهم مخرجاً لها ، ولكنهم ظلوا يتجادلون لجأ ، حتى التجت الأصوات .



فلما أيقن الدرويش أن القضية قد أسقط في أيديهم ، وأنهم جميعاً قد عجزوا عن حل ما عرض لهم ، قام من الصف الأخير ، ومشى مخترقاً الصفوف كأنه أسد العرين . فلما بلغ القضية التفت إليهم وقال : عجبت لكم يا صناديد الشريعة ويا علماء الفقه والأصول إنكم لا تدعمون بالحجة قولكم ، ولكنكم تتصايحون وتنفخون عروق رقابكم ، وما هكذا تساق البراهين ، ولا هكذا تحل القضايا . ثم عرض الدرويش لموضوع الجدل ، فصال فيه وجال ، فاقنع القضية برأيه كأنه قد أمسك القلم بيمينه ونقش به الحجج على قلوبهم .

وأقبل الفقهاء جميعاً يهنئون الدرويش بسعة علمه ، ووحدة ذكائه ، واستقامة منطقته ، وجمال طبعه . وقد نظر إليه القاضى الذى نهره وطرده

واستعان بالمعرف ليزيده تعزيراً ؛ وقد خيل للقاضي أنه غارق في الوحل لا يستطيع منه حراكاً ، بينما الدرويش يسوق حصان القول سباقاً إلى الميدان .

ونادى القاضي المعرف ، نخلع ثوبه وعمامته ، وبعث بهما معه ، مع الإلّعام والإجلال ، إلى الدرويش ؛ معتذراً إليه بأنه لم يكن يعرف قدره فبدرت منه البادرة ، سائلاً العفو عن التقصير لأنه لم يقيم بخدمته بنفسه ، آسفاً لأن يراه رث الملابس رقيق الحال ، مع هذه المرتبة الرفيعة من العلم والخلق . وأقبل المعرف في لطف وخشوع وأدب جم فوضع العمامة فوق رأس الدرويش ، ممسكاً الثوب بيده ليدثره به . ولكن الدرويش دفع المعرف عن نفسه ، ونزع العمامة وأعطاه إياها :

إذهب إلى حيث جئت ولا تضع فوق رأسي قيد الغرور ، إني أخاف على هذا الرأس أن ينوء بعبء عمامة قاضيك وقد لُفَّت بخمسة أذرع من القماش . إذهب فإنني أخاف على نفسي أن تملأ غروراً إذا ما لبست العمامة الكبيرة ولقبوني المولى أو الصدر الكبير ، فأرى الناس صغاراً وقد يكونون أكبر مني فضلاً ومكانة عند ربّي . ماذا علىّ من هذه العمامة ؟ وأي فرق يطرأ على الماء الزلال في كأس من الذهب وضع أو في كأس من الفخار ؟ إن العقل والحكمة أحب إلى رأسي من هذه العمامة الجميلة . إن الرجل لا يعتر بكبر رأسه وضخامة عمامته ، فإن للقرع رأساً كبيراً لا عقل فيه .

ونظر الدرويش إلى القاضي الذي نهزه فقال :

لا ترفعن رأسك عالياً لأنك لبست عمامة كبيرة ، وتحليت بلحية طويلة . العمامة من قطن ، واللحية كالخشيش ينبت في الأرض . وليكن قدرك بقدر مالك من فضل ، ولا تكونن كزحل اتخذ بين الكواكب مكاناً عالياً ،

ولكنه نحس يؤذى الناس . ألم تعرف قصب الحصير ، تراه طويلاً فإذا ذقته
لم تجد سكرًا فيه .

يا صاحبي : إني لا أراك من ذوى الفضل لأن مائة عبد يسرون من
ورائك ، إنما الفضل بالعلم والخلق الكريم .
(بستان)

٣٧

الخوف والحب

سألوا الملك هرمز لماذا حبست وزراء أبيك ، أرايت منهم خطأ ؟
قال :

ما رأيت منهم خطأ ، ولكنني وجدت هيبتي قد تمكنت من قلوبهم ،
فهم يخافونني ولا يعتمدون على عهدي ، فخشيتهم وأمرت بقتلهم ، عملاً
بقول الحكماء :

خف مما يخافك ، ولو أنك قادر على قتل مائة مثله ،
ألم تر أن القطة في عجزها تقلع عين النمر بمخالبها ،
ولهذا تعض الحية رجل الراعي ، فإنها تخشى أن يحطمها بهذه الرجل .

المال

ضاقت الدنيا في وجه درويش ، كان يبحث عن قوته فلا يجده إلا بشق النفس ، ولكنه اليوم في مسغبة لا يجد منها مخرجاً ، فلجأ إلى رجل من أثرياء بلده ، وشكا إليه حاله ، والتمس منه العون ، ولكن الثرى الخبيث لم يرحمه ولم يعطه ديناراً أو دانقاً مما أفاء الله عليه ، وتركه يتلوى جوعاً وألماً ، ولم يكتف الثرى بحرمان الدرويش من بعض ماله ، بل إنه صرخ في وجهه ونهره وطرده .

وتعجب الدرويش من هذا الثرى الذى امتلا بيته بالخيرات يرضن على الفقير بكسرة من خبز قفار يسد بها رمقه ، كأنه لا يخشى صروف الزمان ، أو كأنه ضمن بقاء المال . ولما وجد الثرى أن الدرويش يتمم ويتباطأ في الانصراف عنه ، نادى خادمه وأمره بطرده شر طردة ، فطرده فالصرف .



وسارت عجلة الزمان ، ترفع وتخفض ، وتدنئ وتقصى ، فإذا بالثرى الخبيث يققد ثروته ، ويصبح فقيراً لا يملك شروى نقيراً ، ويمسى ممزق الثياب ، خاوى الوفاض ، يستجدى عطف الناس ليأكل ، وقد تهدم

بيته فافترش الثرى والتحف السماء ، وأخذ يلتفت من حوله لعله يجد ،
يعطف عليه ويرق له فيسد رمقه ، ويكسو عريه ، ويأويه من وهج الشمس
بالنهار ، ومن قارس البرد بالليل .

أما عبده الذى استعان به على زجر الدرويش وطرده فإنه قد اضطر إلى
بيعه فيما باع من أموال ، وقد اشتراه رجل ثرى كريم مبسوط اليد ، يسعده
أن يجد فقيراً ذا مسغبة فيطعمه ، كما يسعد الفقير بمال كان يتمناه .



وذات يوم وقف بباب قصر الثرى فقير يلتمس لقمة ، وقد بدا على مظهره
ذلة الفقر وعضة الجوع ، حتى إنه لم يكن قادراً على الوقوف مستنداً إلى
رجليه ، ورفع الفقير صوته مستجدياً فسمعه الثرى فأرسل غلامه بطعام
ليطعم هذا السائل المحروم . وخرج الغلام يحمل أطباق الطعام ، فلم يكذب
نظره عليه حتى صاح متعجباً من حكمة الله ، وعاد إلى سيده وقد أغرورت
عيناه ، فسأله سيده عن سبب بكائه فقال :

إن هذا الرجل الذى وقف على بابنا يمد يده بالاستجداء ويطلب الإحسان ،
هو سيدى الذى كان يملك من الذهب والفضة ما لا عد له ، والذى كان ينفق
عن سعة ، ولكنه كان ينهر المسكين ولا يطعمه ، فها هو قد أذله الله
وأذاقه مرارة الفقر والمسكنة ، فأتى ينشد عندك ما يتبلغ به ، فيا لظلم الأيام
وجور الزمان . فضحك السيد وقال لغلامه :

ليس هذا ظلماً يا بنى فإن الزمان لا يظلم الناس ، أليس هذا هو التاجر
المتكبر الذى صعر خده ، ورفع بالغرور رأسه ، كأنه يريد أن يبلغ السماء .
وأنا يا بنى الدرويش الذى طرده من بابه وقد استعان بك يومئذ على طردى

وإذلالى ؛ ها هو يجلس ذليلاً حيث كنت ، فقد رضى الله عنى فأزال عنى الفقر
وأُنعم على بنعمته التى ترى ، والله يا بنى إذا أغلق باباً فتح برحمته باباً سواه ،
وهكذا يسعد فقراء بعد حرمان ، ويشقى بالبوؤس بعض السعداء ، والمال يابنى
ودیعة ، تنتقل من يد إلى يد ، فيها للسائل والمحروم نصيب .

(بستان)

٣٩

المتنبى

ظهر فى عهد أحد السلاطين رجل ادعى النبوة فأمر السلطان بالقبض
عليه وقتله .

وبعد زمان ظهر رجل آخر فادعى الألوهية ؛ فلما علم السلطان بأمره ،
أمر بإحضاره إليه ، فسأله :

كيف تجرؤ على ادعاء الألوهية ، ألم تسمع أن رجلاً ادعى النبوة فقتلناه ؟
فقال الرجل :

حسنًا فعلت أيها السلطان ، فإنى لم أبعثه نبياً !

(عبيد الزاكاني)

في ساحة الله

سمعت أن رجلاً ، أيام عيسى عليه السلام ، أمضى عمره في الضلال والجهل ، فأتلف حياته سدى . وقد كان من سوء السيرة ، وخبث الطوية ، وقسوة القلب ، بحيث يحجل منه إبليس . لم يكن يجد قلباً يأوى إليه ، وقد امتلأت رأسه بالمكر والجنون ، وتحمّت بطنه بالأكل الحرام ، وتلوّث ذيله بالفسق ، حتى أن أسرته تدنست بخطاياها . لم يكن لهذا الرجل الفاسق قدم تسوقه إلى سواء السبيل ، وإذا حضر مجلس نصح وتقوى بدا كأن في آذانه وقرا ، وقد خشيه الناس وأبعضوه كما يبضعون السنة السيئة . وقد أسلم نفسه للهوى والشهوة والإباحة ، فلم يقف في طريقه شيء ، ولا أقام وزناً لوازع ؛ إنه كان يعبد نفسه ويقدر شهوته ، فكان يقضى الليل سكراناً ، والنهار مخموراً .



وأقبل عيسى عليه السلام من الوادي فدخل مقصورة العبادة ، وراه الرجل المستهتر وقد أحاطت به هالة النبوة فبهره ما رأى ، وأحس شيئاً يدفعه

إلى عيسى ، ليطلب العفو من ربه ويندم ويتوب عما فات . إن التقوى قد دخلت إلى قلب الرجل ، وهو شاعر بما قدمت يداه من آثام ، فهو نادم ، كسيف البال ، باك ، يريد أن يستغفر ربه ، عساه أن يغفر له .

ودخل الرجل المقصورة فارتقى تحت قدمي عيسى وأجهش بالبكاء ، وكلما حاول أن يتكلم خنقته العبرات ، حتى إذا هداً تكلم مستغفراً ، طالباً الرحمة من رب العالمين .

وكان في الركن الآخر من المقصورة رجل عابد صالح ، لا يترك صلاته ولا يتوانى عن الصوم ، يقوم الليل ، إنه يعبد ربه آتاء الليل وأطراف النهار . وكان يعرف هذا الفاسق ، فلما رآه قد اجتراً على دخول المقصورة ، وأخذ يتوسل ويذرف الدمع ، تأفف من السماح لمثله بدخول بيوت الله ، ومشاركة الصالحين في مأواهم . فأخذ الرجل الصالح يشتم الفاسق ويدعو ربه أن لا يجعله معه يوم الحساب ، فإنه لا يقوى على رؤياه أو صحبتته .



وأبصر عيسى فإذا الوحي وقد بعثه « جليل الصفات » مقبلاً عليه يقول : يا عيسى لا يغضبناك الرجل قد أمضى عمره في الفسق وأتى اليوم إلى عتباتك يطلب العفو والغفران ، إنه قد بكى ندماً وحسرة على ما أذنب ، وإنه سيمشي بعد اليوم على صراط مستقيم .

يا عيسى لا تسمعن العابد الصالح ، إنه يتقدم إلى ربه في كبرياء ، معتمداً على أنه أمضى عمره مطيعاً لربه .

يا عيسى إن العجز والمسكنة والذلة على عتبة الله خير من الطاعة والعبادة

والاعتداد بالنفس . إن الله لا يحب كل مختال فخور . وإن دعاء الرجلين ،
الفاسق والصالح ، مقبول عند ربك على السواء ، ولو أن هذا عالم وذاك جاهل .
يا عيسى إن الفاسق قد أتاني متضرعاً باكياً لأنه أضاع أيامه سدى ، وأنا
أقيل عثرة من أتاني ذليلاً كسير الفؤاد ، ولقد غفرت له سيئاته ، وسأجعل
له الفردوس نُزْلاً .

يا عيسى قل للعابد لا يجزع من صحبة الفاسق يوم القيامة ، يومئذ لن يرى
فيه عاراً ، فإني مدخل الفاسق الجنة ، وملق بالعابد في النار . لأن الأول قد
امتلاً قلبه دماً ، من حزنه وأسفه على ما قدم من ذنوب ، ولأن الثاني قد
عقد على تقواه الأمل في الجنة ، فجاء متكبراً ، وبُغضا للمتكبرين . ليس من
الخير أن يعبد الرجل ربه فيحسب نفسه من الصالحين ، ويعلو على من لا يعبد
الله ، والرجل الحر لا يفخر برجولته ، فليس كل فارس ماهر قادراً على
اللعب بالكرة .

يا عيسى قل للعابد إنه مغرور وقد ظن مخه من الفستق ، والحق إنه من
البصل ، قشر على قشر . قل له ليستغفر ربه ، فإن ما قدم من طاعة وما أدى
من عبادة ، ليس بنافعه اليوم ، إنه لن يجني ثمرة من طول عبادته ، لأنه
أطاع ربه وآذى الناس .



إن مذنباً يخاف ربه خير من عابد يباهي بعبادته .

(بستان)

ضيف ابراهيم

اشتهر إبراهيم الخليل بالكرم وحسن الضيافة ، وقد حدث أن مضى أسبوع لم يحضر لمأدبته أثناءه أحد أبناء السبيل ، وكان إبراهيم لا يستطيع أن يتناول طعام الصباح حتى يحضر أحد الفقراء فيشاركه طعامه . فخرج من بيته وأخذ ينظر في كل جهة من أطراف الوادي حتى رأى رجلاً في الصحراء ، طويلاً كالصفصاف ، وقد اشتعل رأسه شيباً كأن الكبر قد كساه بثلجه . ونادى إبراهيم عابر السبيل ، فلما أقبل عليه ، حياه ورحب به ، ونادى بإحضار الطعام ، وسأل ضيفه الإذن بتناول الطعام في صحبته ، فقبل الرجل شاكراً ، وكان يعرف كرم إبراهيم ويسمع أخبار مضيفته . وأقبل الخدم فأجلسوا الرجل في مكانه من المائدة بالثجلة والتكريم . فلما اكتمل الجمع وأخذ كل مكانه ، بدءوا بذكر اسم الله الرحمن الرحيم . ولكن الضيف لم يذكر الاسم الأجل .

وتعجب إبراهيم من الشيخ الكبير لا يذكر اسم ربه قبل أن يضع الخبز في فمه ، فسأله لماذا لم يفعل كما يفعل الشيوخ في إخلاص وإيمان . فقال الرجل إنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً لم أسمع عنه من سدنة بيت النار .

فأدرك إبراهيم أن ضيفه محوسى من عبدة النار ، فاستولى عليه الغضب
وأمسك بالرجل فرفعه من مكانه وطرده ، حرصاً منه على أن لا يشارك
الأتقياء أكلهم .



فبعث الله جبريلاً إلى إبراهيم يقول له :
يا إبراهيم لقد تحملتُ هذا الشيخ ومنحتهُ الحياة والقوت مائة سنة ،
ولم تستطع أنت تحمله لحظة واحدة ؟ يا إبراهيم إذا كان الشيخ يسجد للنار
فما بالك أنت تكف اليد التى بسطها لك بالجود ؟

(بستان)

٤٢

دولة الظلم

امر ملك بقتل رجل برئى ، فلما حان وقت التنفيذ قال الرجل للملك :
يا مولاي ، لا تسع لايذاء نفسك بسوارة من الغضب على عبدك .
فسأله الملك ماذا يقصد . فقال :
سأثأثر بقتلك إياى لحظة من ساعة ، وسيبقى إثمك حتى قيام الساعة .
فأعجب الملك بنصحه وعفا عنه .

(كلستان)

الرازي والامير المريض

مرض الأمير منصور بن نوح مرضاً أزم من حتى أقعده ، وعجز الأطباء عن مداواته ، فأرسل رسولا يدعو محمد بن زكريا الرازي ليعالجه ، وجاء الرازي حتى نهر جيحون ، ولكنه عند ما بلغ شاطئه ورأى مائه ، قال أنا لا أركب السفينة ، فقد قال الله تعالى : « لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، فليس من الحكمة أن يركب الإنسان الأخطار مختاراً . ثم صنف كتابه « المنصوري » في الفترة بين رجوع رسول الأمير إلى بخارى وعودته منها ، ثم سلمه إليه وقال : أنا هذا الكتاب ، وسترى فيه مقصودك ، ولا حاجة لك بي .

فلما وصل الكتاب للأمير غضب ثم أرسل له ألف دينار وحصاناً خاصاً بعدته وقال لرسله : ترفقوا به فإن لم يجد الرفق معه قيدوا يديه ورجليه وأجلسوه في السفينة واعبروا ، فعمل الرسل برأى الأمير ، ولكن الرفق لم يؤثر في الرازي ، فأوثقوه وأركبوه السفينة وعبروا ، ثم فكوا قيده ، وقدموا له الجنينة بعدتها فركبها ، هادى الطبع ، واتجه نحو بخارى . فقالوا له : إنا خفنا أن نخاصمنا بعد أن نعبّر النهر ونفك قيدك ، ولكننا لم نر منك ضجراً أو ضيق صدر . فقال : إني أعرف أن عشرين ألف رجل يعبرون جيحون كل عام ولا يغرقون ، وأنا أيضاً لا أغرق إذا عبرت ، ولكن من

الجائز أن أغرق ، فإذا غرقت فسيقال حتى يوم القيامة كان محمد بن زكريا أبله
إذ ركب السفينة مختاراً فغرق ، فأكون من الملوين لا من المعدورين .

ولما بلغ الرازي بخارى دخل عليه الأمير وتقابلا ، ثم بدأ الطبيب العلاج
وبذل فيه جهده ولكن بلا جدوى ، فدخل يوماً عند الأمير وقال : « غداً
سأجرب علاجاً آخر ، وسيخرج من أجل هذا العلاج الحصان كذا والبغل
كذا » وهاتان الدابتان معروفتان بالسرعة ، فانهما يقطعان أربعين فرسخاً
في الليلة .

وفي اليوم التالي حمل الأمير إلى حمام نهر موليان ، ووضع الحصان والبغل
خارج الحمام مُعَدَّين ومشدودين مع غلام الرازي ، ولم يسمح لأحد من
خدم الأمير وحشمه بدخول الحمام . ثم اجلس الرازي الأمير وسط الحمام
وصب عليه ماء فاتراً ، ثم أعد له شراباً وذاقه ثم سقاه إياه ، وأبقاه زمناً ليتيح
للأخلاق أن تنضج في مفاصله ، ثم ذهب فلبس ثوبه وعاد فوقف أمام الأمير
موجهاً له بعض سقط القول : « يا كذا وكذا لقد أمرت بقبدي وإلقائي في
السفينة وتهديد حياتي ، فإذا لم أجرك على هذا بإزهاق روحك فأني لأكون
ابن زكريا »

فغضب الأمير غاية الغضب ، ونهض على ركبتيه وهو في مكانه ، فخرده
عليه الرازي سكيناً وأوسعته إهانة ، فنهض الأمير واقفاً ، غضباً أو خوفاً ،
فلما رأى الرازي أن الأمير قد وقف تراجع وخرج من الحمام . ثم ركب
الحصان وركب غلامه البغل واتجهما نحو جيحون فعبراه عند صلاة العصر ،
وأحسنا السير إلى أن بلغا مرو . ومنها كتب الرازي خطاباً للأمير قال فيه :
« أطال الله حياة الأمير صحيح الجسم نافذ الرأي ، قد بدأت العلاج
وبذلت كل ما في الطاقة ، فرأيت حرارة غريزية مع ضعف تام وأن العلاج

الطبيعى قد يطول ، فعدلت عنه ولجأت للعلاج النفسانى ، فحملت مولاي إلى الحمام وناولته الشربة وتركته حتى تنضج الأخلاط نضجاً تاماً ، ثم أثرت غضبه حتى يساعد الغضب فى إذكاء الحرارة الغريزية فتقوى وتحلل هذه الأخلاط المتزايدة ، وبعد هذا لم يكن من الصواب أن أبقي لأقابل الأمير « وعند ما نهض الأمير على رجليه وخرج الطبيب فامتطى جواده ، غشى عليه ، فلما أفاق قام وخرج ونادى الخدم وسأل أين ذهب الطبيب ؟ فقالوا خرج من الحمام فركب الحصان وسار مع خادمه ، فعرف الأمير قصد الرازى من سلوكه . وخرج الأمير ماشياً من الحمام ، وذاع الخبر فى المدينة ، ثم جلس فى الحضرة ، وأقام الناس الأفراح . . وفى اليوم السابع جاء غلام الرازى راكباً البغل ومعه الحصان ، وسلم الأمير الخطاب الذى كتبه سيده ، فقرأه الأمير ، ثم أمر بالخلع والصلات للرازى .

(جہار مقالہ)

۴۴

آخرة

رأى أحد الصالحين فى المنام ملكاً فى الجنة وزاهداً فى النار . فسأل كيف كان ذلك ؟ ف قيل له :

دخل الملك الجنة لحبه الدراويش ، ودخل الزاهد النار لتقربه من الملوك .

(كالستان)

دواء الملك المريض

مرض ملك مرضاً مستعصياً ، واجتمع أطباء اليونان لعلاجـه فلم يروا دواءً له غير كبـد آدمى ذى صفات خاصة ، فلما عرف الملك هذا أمر بالبحث عن الإنسان المطلوب ، فاجتهد رجال الحكومة حتى عثروا على ابن دهبان توفرت فيه شروط الأطباء .

وبعث الملك لوالدى الفتى وحدثهما عن الأمر وأجزل لهما العطاء ، فقبلا قتل ولدهما ليأكل الملك كبده ليشفى .

ونادى الملك القاضى وسأله إذا كان حلالا قتل نفس بغير نفس ولكن ليتداوى الملك بكبدها ، فأفتى القاضى بأن قتل أحد الرعية ليأكل الملك كبده ليشفى ، حلال .

وجيء بالغلام ليذبحوه ذبح الشاة ، وكان الملك مطالاً عليه ، فرأى الغلام ينظر إلى جلاده ثم يرفع عينيه إلى السماء ويتسم .

فأسرع الملك نحو الفتى وسأله : ماذا أضحكك وقد أشرفت على الهلاك ؟ فقال الفتى :

إن على الوالدين أن يرحما فلذة كبدهما ، وإن على القاضى أن يعدل فى قضائه ، وإن على الملك أن يعفو ، وقد رأيت أبوىَّ غرهما حطام الدنيا فسهلك روحى ،

وسألت القاضي فخشيك ، ولم يخش ربه ، فأحل لك دمي ، وأنت يا سيدي رأيت شفاءك في إزهاق روعي فأمرت بقتلي ، فلم أر ملجأ لي غير ربي ، فرفعت رأسي إليه راضياً بقضائه .

فتأثر الملك من قول الفتى وبكى ، وقال : لئن أموت مريضاً خير من قتل نفس زكية ، ثم أخذ الفتى فقبله وأجزل له العطاء .

قالوا : ولم يمض على هذا أسبوع حتى برى الملك من علته .

(كلستان)

٤٦

حاتم الطائي والخطاب

سئل حاتم الطائي : أرايت أو سمعت أن رجلاً أعلى همة منك ؟ فقال نعم ، نحرت يوماً أربعين جملاً ، ثم خرجت مع جماعة من أمراء العرب إلى الصحراء ، فرأيت خطاباً يجمع الخطب ثم يحمله فوق ظهره ، فسألته : لماذا لم تذهب إلى بيت حاتم فقد اجتمع القوم حول سماطه ؟ فقال الخطاب :

إن من يكسب خبزه من عمله لا يتحمل منة حاتم الطائي . فأدركت أن هذا الخطاب أعلى همة مني .

(كلستان)

المناصب

ذهب وزيرٌ إلى « ذو النون » قدس سره وطلب منه العونَ قائلاً : إني أقوم بخدمة الملك ليل نهار ، آملُ في خيره خائف من بطشه .
فبكى ذو النون وقال :
لو خشيتُ الله خشيتك الملكَ لكنتُ من الصديقين .

(كَلَسْتَان)

الدرويش الملك

اقترب أجل أحد الملوك ، ولم يكن له وارث ، فأوصى بأن أول رجل يدخل المدينة صباح موته يولى ويرقى العرش وتفوض إليه أمور المملكة .
فاتفق أن أول داخل في المدينة صبيحة موت الملك درويش كان يقتات بما يجود عليه الناس به من لقم ، وكان يلبس رداء خاظه بما جمع من خرق ، فنفذ أركان الدولة وصية الملك ، فألبسوه التاج ، وساموه مقاليد الملك .

وبقى الدرويش يسوس الدولة زمناً ، حتى خرج عليه بعض الأمراء ، وثار عليه الملوك من كل الأطراف ، واتفقت كلمة الجند والرعية على خلعه .
وبينما الملك الدرويش في كدر مما أصاب فكره من التشتيت بسبب الملك جاءه صديق له قديم ، من أيام الفقر والتسول ، فرأى صاحبه قد علا العرش وعلى رأسه تاج ، فقال له :

الحمد لله رفع درجتك ، وجعل لك حظاً عظيماً ، فأخرج من الشوك زهرتك ، ومن الحصى رجليك ، وربعتك على العرش ، فإن مع العسر يسراً .
فقال الدرويش الملك :

يا صاحبي ، إن دعاك ظاهري لتهنئتي فأني بالعزاء جدير ، فأني حين عرفتني ، لم أكن أفكر في غير كسرة من خبز أسد بها رمقي ، أما اليوم فأني أفكر في هذه الدنيا التي ثارت عليّ ، تريد أن تعصف بي .

(كاستان)

٤٩

الملك والزاهد

رأى ملك زاهداً فسأله : ألا تذكرني أبداً ؟

قال الزاهد :

آجل ، أذكرك كلما نسيتُ ربّي .

(كاستان)

قصة العلم الإيراني

درفش كلوياني

حدثتك يا مولاي عن إيران أيام جمشيد وكيف ازدهرت الحياة فيها بفضل ما لقي الناس من عدل هذا الملك وحبه لبلده وعمله على النهوض بها وإسعاد أهلها ، واليوم أحدثك عما كان من أمره بعد أن بلغ الغاية في السمو والسلطان ، فإنه لما رأى الناس مقبلة عليه ، تحبه وتؤثره وتلتف من حوله ، طغى وبغى وتكبر ، ورأى نفسه بشراً فوق البشر ، فأدعى الألوهية وأمر الناس بأن يصنعوا التماثيل من رسمه وأن يعبدوها . وكان في إيران وقتذاك ثلاثة أديان ، دين الملوك ودين الشعب ودين قبيلة المغان (المجوس) ، فلم يلق رأى الملك جمشيد قبولا من إحدى هذه الطوائف ، وثاروا جميعاً عليه ، وعملوا على خلعته .

وكان بجوارهم ، في بلاد حمير ، ملك عربي عظيم ، كانت أخباره تسير في إيران ، فiejب أهلها بعدله ، واستقامته ، وحسن سيره في رعيته ، وكان التجار يقدون من حمير على إيران فيقصّون على أهلها من عظمة مرداس ، ومحب الأعراب له ، ما كان يقربه من قلوب الإيرانيين ويمكن له في قلوبهم ،

وكانوا ينتقلون من إيران إلى بلاد حمير فيتحذثون فيها عن جور جمشيد ، وبغيه ، وغروره ، ومحاولته قهر الفرس على عبادة تماثيله ، وكيف أن الشعب نائر عليه ، خالغ له ، فيجيش صدر مرداس بالرغبة في غزو هذه البلاد لينشر فيها الأمن ، والعدل ، وليتيح للناس فيها أن يكونوا أحراراً في اعتناق الدين الذي يحبون .

واستعان الإيرانيون بمرداس ملك حمير ، وسعى عظماءهم إليه يبعثون منه العون ، ويفوضون إليه الأمر ، ولم يكن مرداس غريباً عن إيران ، فهو زوج أخت جمشيد ، وولده الذي يليه في الحكم يعتبر من أبناء بنات الإيرانيين ؛ ولذا فإن جيوشه قوبلت بالترحيب في إيران ؛ وذهبت جهود جمشيد في الدفاع عن نفسه عبثاً ، وتركه جنده فريسة لجيش الغزاة العرب ؛ فاضطر أن يهرب إلى الهند ، ومنها إلى الصين ، وتعبه رجال الغزاة فقبضوا عليه وسبق إلى إيران فأمر الملك ، بقطعه نصفين بعظم سمكة .



وإذاً فقد أصبح ملك حمير ملكاً على إيران ، وخرجت الجيوش العربية من الصحراء إلى بلاد ذات مدنية وعمران ، وانتقلت حياة العرب من البداوة الساذجة السهلة إلى الحضارة المترفة المعقدة ، وأصبح ولي عهد الدولة ، بيئورسب ، ينعم في العاصمتين ، العربية والفارسية ، نعيماً لم يتح لأبناء كثير من الملوك .

واتسع مجال اللعب واللهو أمام بيورسب ، فرأى فيه الشيطان ضالته ، لإفساد أمور الناس والبطش بهم ، فخيل إليه أن يستعجل هذا الملك العظيم الذي لن يتاح إليه إلا إذا مات أبوه ، وصور له أباه أنانياً ، لا يحب له الخير ،

وماذا لو نزل له هذا الوالد عن جزء من هذه الدولة الواسعة ، التي لا يحكم ملك في العالم دولة في عظمتها واتساعها ، وماذا لو أتاح له بعض مزايا الملك كما يفعل سائر الملوك مع أبنائهم ، ثم إن الأمور تسير على غير ما ينبغي أن تكون عليه ، فهذا ملك عربي لا تجرى في عروقه دماء ملوك الفرس ، فهو لا يعرف طباعهم ، ولا يحس إحساسهم ، ولذا فإنه لا يحسن حكمهم ورعايتهم ؛ وأما بيورسب فهو نصف فارسي ، هو ابن ملك حمير من أخت ملك إيران ، فهو إذاً أولى من أبيه بحكم إيران .

وأخذ الشيطان يوسوس لصاحبه حتى صور إليه أنه قادر على التخلص من أبيه ، ليلى هذا العرش العظيم ، وما أيسر بلوغ هذه الأمنية ، إنها لا تزيد على ضربة سيف من فتى في ريعان الشباب إلى شيخ بلغ من عمره عتياً . وفي ساعة من ساعات الشر والشهوة ، أمسك بيورسب سيفه ، ودخل على أبيه الشيخ ، ولم تكن إلا ضربة واحدة ، أسقطت ملكاً وأقامت بدله ملكاً آخر .

وصار بيورسب ملك حمير وإيران .

* * *

ومضت السنون الأولى من حكم بيورسب في هدوء ودعة ، فإن أحداً من الناس لم يكن يعرف أنه قتل أباه ليخلفه ، ولكنهم يعرفون أن العرش قد آل إليه ، وأنه ابن إحدى بنات ملوكهم ، فهو إيراني مثلهم ، وكانوا به فرحين .

ولكن الشيطان لم يترك صديقه لحظة واحدة ، وما كان يقوده خير إلا ليهيئه لشر أعظم ، فهو يميل عليه من الحكمة ما يرفعه في أعين الناس ،

وهو يهيء له من الخير ما يزيده تقريباً إليه وإعجاباً به ؛ فتمثل له في صورة طبّاح ماهر ، وكان بيورسب نهماً ، يحب الأكل ويعنى بأصناف الطعام ، فكان الشيطان يقدم له كل يوم ما لذّ منه وطاب ، مما أطلق لسان بيورسب بالثناء عليه . . وكان إذا سأل هذا الطباخ الماهر عن أمر أجابه بحكمة تلهج لسان الملك بالشكر والإعجاب ، وكلما حاول بيورسب أن يكافئ هذا الشاب بالمال أبى وامتنع وقال إن رضا الملك ثروته وذخيرته في الحياة . .

قال بيورسب :

ولكني أريد أن أكافئك على ما أرى من حسن صناعتك ورائع تفكيرك وجميل نصحك ، فاطلب ما شئت ما دمت لا تريد المال .

قال الشيطان :

إن وجودي بجانب مولاي هو خير ما أتمنى ، وإذا أتاح لي الملك أن أطلب ما أشاء فإنني أتمس منه أن يتيح لعبده أن يُقبل ما بين منكبيه . . وقبل الملك وأقدم الشيطان فقبله بين منكبيه واختفى فلم يره أحد . ونظر بيورسب حوله ليرى هذا الطباخ الماهر فلم يقف له على أثر ، وبينما هو في حيرة من اختفائه إذا به يحس حركة بين منكبيه ، وإذا بجيتين خبيثتين قد نبتتا حيث كانت قبلة الطباخ . . وجيء بالأطباء من كل مكان فأشاروا بقطع الحيتين فقطعتا ثم نبتتا من جديد أشد هولاً وأكثر فتكاً مما كانتا ، وكلما قطعنا ظهرتا من جديد ، أكبر حجماً وأقبح شراً . . وطار الأطباء ثم تشاوروا ورأوا أن يؤتى بحكيم من بلاد اليونان اختص بعلاج ما استعصى من الأمراض . وجاء الحكيم ، ورأى الملك والشعبانين فقال : هذا شر عظيم ، وإذا شاء الملك أن يعيش فعليه أن يكفل لهذين الشعبانين الغذاء ، وهما لا يأكلان غير أدمغة البشر . .



وأقضى الفزع مضجع الملك بيورسب ، وأدرك عاقبته إذا هو سار في قتل الناس ليغذى الثعبانين بأدمغتهم ، ونادى المنجمين يسألهم عن المصير ، فحذروه جميعاً من طفل صغير من نسل الكيانين ، يشب فينتزع منه الملك ؛ فأخذ بيورسب في تقتيل أفراد الكيانين ، ليفرغ منهم ومن نسلهم ؛ وكان من هؤلاء شاب ذكي الفؤاد ، راجح الفكر ، اجتمعت فيه الصفات التي يحبها الناس في ملوكهم ، وكان العظماء يجتمعون عنده ، ويتشاورون فيما ينبغي أن يعمل ليخلصوا بلادهم من حكم العرب ، وليولوا عليهم ملكاً من أنفسهم ، بدل هذا الملك الذي أطلقوا عليه لقب التنين (أزدهاك — الضحاك) ، والذي يقتل أبناءهم في غير رحمة أو شفقة ليطعم ثعبانيه بأدمغتهم .

ووقع هذا الشاب في يد رجال بيورسب فأخذوه وقتلوه وقدموا رأسه غذاءاً للثعبانين ؛ وكان له طفل صغير اسمه أفريدون ، فخشيت أمه أن يصيبه ما أصاب أباه ، فأودعته سراً عند أحد الموابذة ليرعاه ، فلم يكد الموبذ يرى الطفل حتى أخبر أمه بأن سيكون له شأن كبير ، وسيؤول إليه عرش إيران . وجد بيورسب في طلب هذا الطفل وهو يبحث عن نسل الكيانين ، ولكن أمه استطاعت أن تنقله إلى بلاد الهند ، فظل بها إلى أن أصبح شاباً قوياً ، وعبتاً ذهبت جهود بيورسب للعثور عليه .

ولما اكتملت فتوة هذا الشاب أخذ يسأل صاحبه الذي نشأ عنده ، ويلح عليه في السؤال ، إلى أن عرف أنه من نسل الكيانين ، وأن بيورسب قتل أباه ، وأن أمه هربته من إيران إلى الهند حتى لا تمتد إليه يد الملك الظالم فيطعم دماغه الثعبانين الذين أفنيا شباب إيران وزهرة أهلها . . . ولم يستطع

الفتى صبراً بعد الذى سمع ، وأعد عدته ليسافر إلى إيران ، فيدفع الشر عنها ، ويقتل هذا الملك الظالم ، ويعيد الاستقلال إلى بلاده ، ويجلس على عرشها ليصلح أمرها ، ويعيد إليها ما كانت عليه من عظمة وجلال .
فلما بلغ إيران قابلته أمه فحدثها بما علم واستزادها فزادته علماً بأسرته ، وبأحوال بلاده ، وخبأته في مكان أمين انتظاراً لسنوح الفرصة ، فتواري أفريدون عن الأنظار إلى حين .



وكان في المدائن حداد اسمه « كاوه » ، كان فقيراً يعول أسرة كبيرة ، وكان له ولدان يساعدانه في حانوته الصغير ، فجاء أعوان الملك وأخذوا الابن الأكبر فقتلوه ، فجلس الرجل حزيناً صابراً على ما أصابه ، داعياً ربه ألا يأتى دور ولده الثانى حتى يكون الضحاك قد هلك فيخلص الولد من الموت . وفى صباح اليوم التالى جاء الجند فساقوا ابنه الآخر ليقتلوه ، فنقد صبر الرجل ، وسار جزوعاً إلى بلاط بيورسب ، فاقتحمه غير مستأذن ، فلما دخل وجد الملك وعلى كتفيه الثعبانان ومن حوله جماعة من العلماء يحررون محضراً يشهدون فيه بأن الملك يرعى الرعية بالرفق والحسنى ، وأنه يقيم العدل بين الناس ، ولا يظلم منهم أحداً ، فرفع « كاوه » الحداد صوته ، شاكياً حاله ، فقد أخذوا ابنه الأكبر وقتلوه بالأمس واليوم عادوا فأخذوا الولد الثانى ليقتلوه ، فرق قلب الملك له ، وأمر بإطلاق سراح الولد . ونظر العلماء إلى كاوه — وشر الناس عالم بلا خلق — وطلبوا إليه أن يشهد بعطف الملك على رعاياه ، واستماعه لشكواهم ، وتحقيق العدل بينهم ، ورفع الظلم عنهم ، ولم يكده كاوه يسمع هذا الكلام حتى استشاط غضباً ، ولم يستطع أن يكظم

غيظه ، فأخذ المحضر من يد كبير العلماء ومزقه ورمى به في وجهه وهتف بسقوط بيورسب .

وخرج من القصر مسرعاً وهو ينادى بسقوط الظلم ، فالتف الناس من حوله ، وساروا وراءه حتى بلغ دكانه ، وهناك وجد الجمع قد كثر ، فأخذ الخرقه التي يلفها على وسطه ليتقي بها شواظ النار ، ورفعها وأخذ ينادى باستقلال إيران وبسقوط بيورسب وبال دعوة إلى أفريدون ، وسارت الجماهير من ورائه تؤيده وتهتف وراءه .



وبلغ الخبر أفريدون ، فخرج من مكانه ، وسار إلى حيث الجماهير متجمعة حول كاوه ، فنادوا به ملكاً عليهم ، وساروا معه إلى قصر بيورسب فقبضوا عليه ، وقيدوه ، ورموه فوق جبل دماوند ، يشقى إلى أن يقضى عليه الثعبانان .

ومنذ هذا اليوم اتخذ ملوك إيران هذه الخرقه علماً لهم ، وسموها العلم الكاوياني ، نسبة إلى كاوه الحداد ، وزينوها باللاكيء والجواهر ، وكانت أنفس ما يعتز به ملوكها .

الأسير

سَمَتَ صَاحِبَةُ أَصْدِقَائِي فِي دِمَشْقَ ، فَوَلَّيْتُ وَجْهِي شَطْرَ صَحْرَاءِ الْقُدْسِ ،
اضْرَبَ فِيهَا خَبْطُ عَشَوَاءَ ، فَوَقَعْتُ أُسِيرًا فِي يَدِ الْفَرَنْجِ ، وَأَوْدَعُونِي خَنْدَقًا
مَعَ الْيَهُودِ ، وَأَخَذْتُ أَعْمَلُ مَعَهُمْ فِي الطِّينِ ؛ فَمَرَّ بِي صَدِيقٌ قَدِيمٌ مِنْ رُؤَسَاءِ
حَلَبَ فَعَرَفَنِي وَسَأَلَنِي عَمَّا حَلَّ بِي .

فَقُلْتُ : خَرَجْتُ أَبْتَغِي وَجْهَ رَبِّي فَرَمَانِي الزَّمَانُ مَعَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ
خَيْرٌ لِي أَنْ أَعِيشَ بَيْنَ أَصْدِقَائِي فِي السِّجْنِ مِنْ أَنْ أَعِيشَ حُرًّا مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
فِي الْبَسْتَانِ .

فَرَقَّ قَلْبُهُ لِي وَافْتَدَانِي بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ وَأَخَذَنِي مَعَهُ إِلَى حَلَبَ .
وَكَانَ لِهَذَا الصَّدِيقِ بِنْتُ فَعْقَدَ لِي عَلَيْهَا بِصَدَاقٍ مِائَةَ دِينَارٍ ، وَكَانَتْ هَذِهِ
الْبِنْتُ سَيِّئَةً اخْلُقَ ، قَاسِيَةً الطَّبْعَ ، وَطَالَمَا تَحْمَلْتُ مِنْ عَنَفِهَا وَغُلْظَتِهَا ، فَذَاتَ
يَوْمٍ تَطَاوَلَتْ عَلَيَّ قَائِلَةٌ :

أَلَسْتَ أَنْتَ الَّذِي اشْتَرَاكَ أَبِي بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ مِنْ أَسْرِ الْفَرَنْجِ ؟
فَقُلْتُ بَلَى يَا سَيِّدَتِي إِشْتَرَانِي أَبُوكَ مِنَ الْفَرَنْجِ بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ وَسَلَّمَنِي إِلَيْكَ
أُسِيرًا بِمِائَةِ دِينَارٍ ؛ مِثْلِي كَمِثْلِ الشَّاةِ أَنْجَاهَا الرَّجُلُ مِنَ الذَّنْبِ فِي الصَّبَاحِ ،
وَأَجْرِي عَلَى رَقَبَتِهَا السَّكِينُ فِي الْمَسَاءِ .

الملك والگلام الرعدي

ركب ملك سفينة ، وكان في هذه السفينة غلام لم ير البحر من قبل ، ولم يعرف محنة ركوب السفن ؛ فلم تكد السفينة تسير حتى بدأ الغلام يبكي ويصيح وارتعدت فرائصه ، وحاول رجال الحاشية أن يهدئوا من روعه فلم يفلحوا ، بل ازداد عويله . فغضب الملك من صراخه ، وطار الرجال في إسكاته .

وكان في السفينة حكيم فسأل الملك أن يسمح له بتهدئة الغلام ، فرجاه الملك أن يفعل ؛ فأمر الحكيم بإلقاء الغلام في الماء ثم إمساكه من شعر رأسه ورفع له السفينة ، عدة مرات ، فكان الغلام يسك الدفة كلما ألقى في اليم ، ويحمد الله إذ أمسكوه من شعر رأسه فرفعوه فأنجوه من الغرق .

وآخر مرة رفعوا القتي وتركوه فخرى إلى زاوية في السفينة وجلس صامتاً هادئاً . فسُرَّ الملك من تدبير الحكيم وسأله الحكمة في سكوته ؟ فقال : إنه لم يكن قد ذاق محنة الغرق حتى يعرف قدر سلامة السفينة ، والصحة يا مولاي تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى .

الأمير البقرة والطبيب

مرض أحد أمراء البويهيين بالملاخوليا ، فخيل إليه أنه بقرة ، وكان يصيح على كل من يرى من أصحابه وحاشيته ، قائلاً : « اذبحوني فإن لكم من لحمي هريسة طيبة » ؛ وبلغ به المرض إلى حد أنه امتنع عن الطعام ، وعجز الأطباء عن معالجته .

وكان ابن سينا في ذلك الوقت وزيراً ، فالتمسوا منه أن يذهب لمعالجة الأمير المريض ، وقصوا عليه قصته ، فقال : بشروا الأمير بأن القصاب آت لذبحه . فلما سمع الأمير بهذا سر سروراً عظيماً . ودخل ابن سينا القصر ومعه رجلان ، وسأل أين البقرة التي جئت لذبحها ، فلما سمعه الأمير ، قلد خوار البقر ، فأمر بحمله في وسط ساحة القصر مع قيده وإلقائه على الأرض ، ولم يكد المريض يسمع هذا حتى جرى إلى وسط الساحة ونام على جنبه الأيمن فأوثقوا رجليه بشدة ؛ وجاء الطبيب فسنّ السكين سنّاً ، ثم جلس ووضع يده على جنب المريض ، كما يفعل القصابون ، ثم قال : « يا لها من بقرة هزيلة ، إنه لا يحل ذبحها ، إعلفوها حتى تسمن فنأتى ونذبحها » ؛ ثم أمر بفض وثاقه وانصرف من أمامه .

ونصح أقاربه بأن يكثروا من تغذيته ، وأن يفهموه أن عليه أن يأكل كثيراً ليسمن حتى يحل ذبحه ، فأقبل الأمير البقرة على الطعام كالنهم ، ودسوا له معه ما وصف ابن سينا من الدواء ، فشفي .
(جهار مقاله)

٥٤

الرزق الحلال

كان تاجر ظالم يشتري الحطب من الفقراء بالثمن البخس ويبيعه للناس بفاحش الأثمان ، فمر به رجل صالح وزجره قائلاً :
ألعبان أنت تلدغ كل من ترى أم بومة أنت تؤذن بالخراب ، خف من قضاء ربك إن رأيتنا نحمل بغيك ولا تعلون على الناس حتى لا يعلو دعاؤهم إلى السماء .

فغضب التاجر الظالم من هذا القول ، وأخذته العزة بالإثم ، ولم يجب .
وذات ليلة طارت شرارة من مطبخه فسقطت في مخزن الحطب فاشتعل وأحرق بيته وأمواله فخرج وجلس فوق كومة الرماد حزينا .
ومر الرجل الصالح فسمعه يبكي ويتساءل من أين جاءت الشرارة التي أشعلت النار ولم تبق شيئاً في الديار ، فأجابه الرجل الصالح : إنها جاءت من قلوب الفقراء المحترقة يا أخي .
(ككستان)

حيلة

أودع رجل صديقه له مائة من من الحديد ثم سافر ، فلما عاد من السفر طلب أمانته ، وكان صاحبه قد بددها ، فاعتذر له بأنه وضع الحديد في ركن بالمنزل فأحاطت به الفيران فأكلته ولم تبق منه شيئاً . فتعجب الرجل ونظر لصاحبه ولم ينبس ببنت شفة .

وفي اليوم التالي جاء إلى صديقه وقال : إني عازم على السفر وسأودعك مالى مرة أخرى ، أمانة ، على شرط أن تحافظ عليه . فسر الصديق الخائن بهذه الفرصة ، وأخذ يتودد لصاحبه بعذب الكلام ، مؤكداً أنه سيجرس ماله بروحه ، ثم التمس منه أن يشرفه بتناول العشاء غداً في بيته .



في مساء اليوم التالي ذهب الرجل إلى بيت صاحبه ، فأكرم هذا وفادته وأجلسه في صدر المكان ، ثم أجلس من حوله أبناءه ، إظهاراً للود ، وتوكيداً للصداقة . وبعد تناول العشاء استأذن الرجل وانصرف ، ولكنه أخذ معه ابن صاحبه الصغير ، خفية .

وظل الرجل يبحث الليل كله عن ولده ، مشتت الفؤاد ، شارد القلب ؛ ولم يكد الصبح يتنفس حتى خرج يبحث في كل مكان ، ولكن جهوده ذهبت عبثاً . وأخيراً توجه إلى بيت صاحبه وشكى إليه فقد ولده .

قال الرجل : إني سمعت ، وأنا خارج من دارك بالأمس : صوتاً من السماء يقول إن البغاث يحمل طفلاً في مخلبه ويطير به .

فقال الصديق الخائن : لعلك جننت ، كيف يحمل بغاث الطير آدمياً في مخلبه ؟

قال الرجل : صه يا صاحبي ، فالبلد الذي تأكل فيه الفيران مائة من الحديد يستطيع البغاث أن يحمل طفلاً من بني آدم .

ففطن الصديق الخائن إلى حقيقة الأمر ، وقال لصاحبه : لا تحزن فإن الفيران لم تأكل الحديد ، فقال الرجل وأنت أيضاً لا تحزن فإن البغاث لم يحمل ولدك .



وهكذا استطاع الرجل بالحيلة أن يحمل صاحبه على رد وديعته إليه . إن الحيلة والمكر لازمان لدفع مضرة الماكر المحتال ، فكن وردة مع الورد وشوكة وسط الأشواك .

(جامع الحكايات)

الزاهد والدنيا

اتخذ عابد من عبّاد الشام مقامه في غابة ، وكان يعيش على أوراق الأشجار ، وكان ملك هذه الناحية في رحلة فمر بهذا الزاهد ، وسأله أن يحضر إلى المدينة ووعدته بأن يهيء له مكاناً للعبادة ، وذلك حتى يستفيد الناس من فيض بركاته ، فرفض الزاهد .

وتوسط أركان الدولة واقنعوه بالانتقال ، فإن أعجبه الحال أقام ، وإذا تضايق عاد إلى مكانه في الغابة ؛ فجاء الزاهد للمدينة . وأعد الملك مكاناً في حديقة قصره الغناء ، وأرسل إليه جارية ذات حسن ودلال ، وأعقبها بـ غلام بديع الجمال ، لطيف الاعتدال . وأكل الزاهد من الأكل الطيب ، ولبس أثواب الحرير ، وأخذ يتمتع نظره بدلال الجارية وجمال الغلام .

وانصرف الزاهد عن العبادة ، ومال إلى الدنيا وغرورها .

ورغب الملك في رؤيته ، فرآه قد تبدلت حاله ، فقد احمرت وجنتاه وابتيض وجهه وغلظ ، وقد اتكأ على وسادة وعلى رأسه غلام بيده مروحة من ريش الطاووس ، فسر الملك من حسن حاله . ثم قال :
إني أحب طائفتين من الدنيا ، الزهاد والعلماء .

وكان فيلسوف مجرب يسمع كلام الملك فقال :
 شرط حب هاتين الطائفتين أن تقدم لهما الخير يا مولاي .
 فقال الملك : وكيف يكون ذلك ؟
 قال الفيلسوف :

أعط العلماء الذهب ليوسعوا مداركهم بالقراءة ، ولا تعط الزهاد شيئاً
 ليبقوا زاهدين .

(كلستان)

٥٧

الصيد والسمة

وقعت سمكة كبيرة في شباك صياد ضعيف ، فلم يستطع إمساكها وأفلتت
 منه مع الشبكة ؛ فلامه الصيادون فقال لهم :
 يا إخواني ، لم يكن لي نصيب فيها ، وكان لها بقية من أجل ؛ ألم تسمعوا
 القول المأثور :
 الصياد الضيق الرزق لا يصيد في دجلة ، والسمة التي لم ينته أجلها
 لا تموت في الصحراء .

(كلستان)

أبطال ايران

زال

جاء دور الملك منوچهر ، فازدان عهده ، وقويت دولته ؛ بفضل سام
والد الأبطال ؛ فقد كان سام هذا من القوة والجرأة والرأى بحيث كانت
شئون المملكة كلها بين يديه . وقد جلس ذات يوم حزينا كئيباً ، يطيل
الفكر فى أنه قد أصبح شيخاً كبيراً ولا ولد له ؛ وجاءته البشرى بأن الله
قد سمع دعاءه وبأن زوجه حامل ، فأخذ يعد العدة لاستقبال هذا المولود الذى
كان يتمناه . وولدت الزوجة غلاما ذا شعر أبيض ، كأنه رجل مسنّ قد
اشتعلت رأسه شيباً ؛ وتعجب الوالد من بياض شعر ولده ، وحدثته السنة
السوء بأن من يولد بهذا الوصف يكون ابناً للشياطين ، وأنه لا يجوز أن
يأويه فى داره .

وتطير سام مما سمع ، وكانت أعصابه خائرة من كثرة ما انتظر ومن ضيعة
الآمال بعد أن رأى المولود وسمع عنه ما سمع ، وفى سورة من الغضب ،
وفورة من التفكير المظلم أخذ الطفل وألقاه فوق الجبل . .



وأبصرت العنقاء وهي تحلق فوق الجبل طفلاً رضيعاً ، فرأت في وجهه دلائل السعادة والحظ العظيم ، ووجدته وحيداً لا يهتم بأمره أحد ، فأشفقت عليه أن يموت في شعاف الجبل جوعاً وبردًا ، فنزلت إليه فأخذته بين مخالبها ، وطارَتْ به إلى عشها ، وربته مع أفراخها .

وشب زال وعليه مظاهر الفتوة ، ورجاحة العقل ، وصدق التفكير ، وكان ينزل من عش العنقاء فيسير في الجبال ، على قدميه حيناً ، وعلى ظهور الخيول البرية أحياناً ، وكان يصطاد السباع وغيرها من الوحوش ، وكانت الحيوانات الضارية إذا رأته تولى منه فراراً وتملأ منه رعباً .

وكانت القوافل وهي تسير ، يرى رجالها الفتى ذا الشعر الأبيض ، ينتقل في خفة ليس لهم بها عهد في بني الإنسان ، والعنقاء من فوقه تحلق كأنها تصاحبه وتحميه ، فأخذ الناس يتحدثون عنه ، ويضعون القصص حوله .

أما سام فإنه أحس أنه أخطأ إذ ألقى ابنه في شعاف الجبل ، وشعر أنه أنكر النعمة التي أنعم الله بها عليه ، وأنه بدلاً من أن يعنى بولده وينشئه ليلى مكانه بعد موته ، وليكون بطلاً لدى الكيانيين ، ألقاه في فورة من اليأس وسوء الظن على قمة الجبل ، وهو يعلم أن ليس هناك من يُعنى بغدائه وإيوائه . وأقضت الأفكار مضجع الشيخ ، فبدا هزيباً علاه الهم والوصب . وذات ليلة رأى في منامه رجلاً يركب حصاناً عربياً ، فيقف ببابه ويدخل عليه فينهره نهراً شديداً لأنه ألقى ولده على قمة الجبل ، فأخذته العنقاء وربته مع أفراخها ، وجعلته ولدها ، ثم يأمره أن يذهب إلى حيث تسكن ، فيطالباها بابنه الذي هو أجمل أبناء إيران . وبنهض الشيخ من نومه ، كأن المنام الذي

رأى حقيقة . فنادى الموابذة من أهل الحكمة ، وحدثهم بما كان من امر زال وسلوكه معه ، فعاب عليه الموابذة ما فعل ، ونصحوه بأن يذهب إلى الجبل الذى ألقى ابنه فوقه فيصلى ويتضرع إلى ربه ، ويسأله أن يرد ولده إليه . فسار سام إلى حيث أمر ، وأخذ يتعبد ويدعو ويستغفر ، وأحست العنقاء بما يفعل الشيخ ، ورأت أن خير الولد فى أن ترده لأبيه ، ليأخذ مكانته فى بلاده وليصبح عظيم أبطالها . فحدثت « زال » بما فعل أبوه ، ونصحته أن ينزل إليه ، وأن يسير معه ، وأن يبدأ حياته مع الإيرانيين ، وأنباته بأنه سيكون بطلهم الذى يزود عنهم الترك ، والذى يفاخر به ملوك الكيانيين . وبكى زال وأخذ يتوسل إلى العنقاء أن تبقيه معها ، فإنه سعيد بحياته فى عشها ، وأنه ينظر إليها كأنها أمه ، وشكى إليها أباه الذى ألقاه صغيراً بلاشفقة ولارحمة . . ولكن العنقاء خفت من حزنه ، وهذأت من روعه ، وقالت إنك ستعود لبلادك ، وسأعطيك ثلاث ريشات من صدرى فإن حزبك أمر فاحرق واحدة منها ، آتيك قبل أن يرتد إليك طرفك ، فأخرج لك كرتك ، وانتزعت الريش من صدرها وأعطته إياه . ثم هبط الفتى إلى حيث أبوه يركع ويصلى . .



لم يكد سام يرى ولده حتى عرفه ، فهرع إليه وأخذه بين ذراعيه وتبيله ، وسارا إلى الملك منوچهر ، فأخذ الملك يتحدث إلى « زال » فأعجب بحسن جوابه إعجابه بما هو عليه من مظاهر الفتوة والبطولة ، وأما سام فإنه منذ رأى « زال » قرت عينه ، واطمأن قلبه ، وأيقن أن سيكون له فى بطولة إيران خليفة قد يفوقه قوة ومحتدا .

وجيء بالمواودة يعلمون « زال » الحكمة ، فكان كل يوم يزداد ثقافة وعلماً ، وكلما خرج أبوه إلى القتال ولاه سيستان فكان يحكمها وكأنه مرن على فن الحكم منذ صباه . .

وخرج « زال » ذات يوم للصيد ، وتوغل في رحلته ، فإذا به على أبواب كابل التي يملكها « مهرب » من أبناء بيورسب ، ولم يكدها الملك يسمع بأن « زال » قد اقترب من عاصمة ملكه حتى قام مع حاشيته وخاصته فاستقبله أحسن استقبال ، وسأله أن يعطف عليه فيزوره في بيته . ولكن « زال » خشى أن يجيب الملك إلى رغبته قبل أن يستشير أباه ، فإن الخصومة بين الإيرانيين والملوك من نسل بيورسب قائمة على أشدها بين القومين ، فأمهل « زال » الملك حتى يأتيه جواب أبيه على رسالة وجهها إليه يلتبس فيها الإذن بزيارة مهرب .

وخرج مهرب من عند « زال » ، فأخذ هذا يحدث أفراد حاشيته بما عليه مهرب من جمال ومهابة وجلال ، فحدثه أحد خاصته بأن لمهرب بنتاً تفوقه حسناً وجمالاً ، وأنها أجمل من في بيوت الملوك من مخدرات ، وأخذ « زال » يسأل محدثه في أمر هذه البنت وكلما طال الحديث عنها زاد بها شغفاً وحباً ، ولما يراها .



وعاد « مهرب » إلى بيته فأخذ يتحدث إلى زوجته وبنته « رودبه » عن اعتدال قامته « زال » وحلو حديثه وما يبدو عليه من مخايل البطولة والنجابة والذكاء ، فشغفت « رودبه » به حباً ، ولما تراه . وأخذت الفتاة تفكر في « زال » ، وفي حبها له ، فهي بالنهار شاردة البال ، حائرة النظرات ؛ وهي

بالليل مسهدة لا تعرف جفونها النوم ؛ وذات يوم باحت بسرها لجواربها ،
فهدأن من روعها وداعبها ، وأكدن لها أن الحب إذا تمكن من قلوبين صادقين
فليس إلى قتله من سبيل . وفي صباح يوم مشرق من أيام الربيع النضرة ،
ذهب الجوارى إلى نهر يفصل معسكر « زال » عن المدينة ، ومن حوله
الحدائق الغناء ، وأخذن في جمع الورود في أطباق الذهب ، ورآهم « زال » من
خجيمه فسأل عنهن فقبل له هن جوارى « روزبه » يجمعن لها الأزهار . فأمسك
قوسه وضرب طائراً في الهواء فوقع عند الجوارى ، فأمر غلاماً من خدمه
بأن يعبر النهر ويحضر الطير .

والتقى الغلام بالجوارى فسألته عن الرامى ، فقال إنه « زال » بطل إيران
وابن بطلها ، وأخذ يتحدثهم عن جماله وصفاته ، فقلن له : ترفق ولا تحدثنا
عن الجمال ، فإن في القصر بنتاً هي ملكة الجمال التي لا تبارى ، والتي تفوق
صاحبك حسناً ودلالاً . ورجع الغلام إلى سيده بالطير ، وقص عليه حديث
الجوارى ، فأعاده إليهن بالهدايا والجواهر ، وطلب إلى كبيرتهن أن تقابله .
فلما رأى « زال » كبيرة جوارى « روزبه » أفضى إليها بحبه المكنون ،
وحدثها بأنه راغب في زواجها ، ولكنه يود لو رآها قبل أن يخطو هذه
الخطوة ، ومهدد مع الجارية السبيل لمقابلة « روزبه » . وجاءت « روزبه »
إلى سطح القصر ، خارج المدينة ، وكان على « زال » أن يصعد إليها ، فدلّت
ضفائر شعرها ليمسك بها ويصعد ، فشكر لها معوتتها واستعان بحبل على بلوغ
مراقها . وفي هذه المقابلة الأولى اتفق الحبيبان على أن يتزوجا مهما تكن
الصعاب ، ثم كتب بذلك إلى سام .

وشاعت أخبار ما بين « زال » و « روزبه » من العشق ، وتحدث
الناس عنها في بلاط مهراب وبلاط منوچهر ، أما مهراب فقد غضب غضبة

جاهلية وأراد أن يقضى على هذه الصلة فهدأته زوجته ونصحته بالتريث والانتظار ، فكم يكون خيراً لبلاده أن تتم أواصر النسب بينه وبين بطل إيران ، وأما منوچهر فقد أندر بأن صلة كهذه ستهدم بيت مهرب ، وتضم بلاده إلى إيران .

* * *

وأما سام فقد بلغته رسالة ولده ، وكانت أخبار عشقه لروذبه قد شاعت قبل قدوم رسوله ، فأخذ يفكر في العواقب الوخيمة التي تترتب على هذا الزواج ، ولكنه لم يكن ميالاً لا لِعُضاب ولده ، فجمع الموابذة وسألهم الرأي فيما يقدم عليه « زال » ، فاستشاروا نجومهم ورجعوا إلى كتبهم ، وعادوا إليه يرجونه الموافقة على تزويج ابنه من بنت « مهرب » ، فإن هذا الزواج سينتج ولداً يكون نحر إيران كلها وأعظم أبطالها جميعاً ؛ فأرسل إلى ولده يوافقه على زيارة « مهرب » ، ويؤيده في خطبة « روذبه » . وبينما « سام » يجلس فرحاً بولده إذا برسول الملك « منوچهر » يحضر حاملاً إليه الأمر بالقيام فوراً لغزو بلاد « مهرب » ، فلم يردأ من تنفيذ أمر الملك ، وأسرع ليلحق بالرسول الذي بعثه لولده .

وعلم « زال » برغبة منوچهر في القضاء على « مهرب » ، وعلم أن هذا الملك قد هلع من الأخبار التي سمعها عن غزو قريب لبلاده ، فأراد أن يظهر إخلاصه ووفاءه لملك إيران منوچهر فعزم على أن يقتل زوجته وبنته « روذبه » ، وبذلك تنقطع صلات النسب التي يريد « زال » أن يعقدها معه ، والتي جر التفكير فيها جيشاً جراراً يغزو بلاده .

وطارت نفس « زال » شعاعاً مما سمع ، فإنه هو السبب في أن يغير الملك القوى

على الملك الضعيف فينزعه منه ملكه ، ويدل بلاده ؛ فأرسل إلى « مهرباب » يسأله التريث والصبر ، وأسرع لملاقة أبيه وهو حاضر على رأس جيش إيران . فلما قابل « زال » أباه أكد له أنه سيدافع عن « مهرباب » لأنه يحب ابنته وسيتزوجها مهما يكن رأى ملك إيران ، ولأنه هو السبب في هذه الغارة التي لن تنجح إلا إذا قطعت رأسه . فرأى « سام » أن يوفد ولده « زال » إلى الملك « منوچهر » لعله يقنعه بالموافقة على زواجه فتقف الحرب ويكفي الله المؤمنين القتال ، وينام الشر الذي صرَّح أو كاد .

ويذهب « زال » عند « منوچهر » ، ويشرح له قصته ، وكانت فتوى الموابذة قد بلغت مسامعه ، وأصبح راضياً عن زواج « زال » ببنت « مهرباب » ، ولكنه أراد أن يستوثق من ذكائه ، فأمر بإحضار الموابذة وأمرهم أن يسألوه أسئلة ليتبين مدى فطنته وقدرته على حسن الإجابة ، فكان « زال » يجيب إجابات بارعة حقاً . وفي آخر الجلسة أمر « منوچهر » بالخلع والهدايا « لزال » ثم أمر بعودة الجيش من الغزو ، وبأن يذهب « سام » مع ولده لخطبة « روزبه » بنت « مهرباب » .

وسار « زال » مع أبيه وأعد « مهرباب » لاستقبالهما حفلاً رائعاً . وتم الزواج في أبهج مظهر عرفته كابل والمدائن . وعاد « سام » وأسرته إلى سيستان . وحملت « روزبه » فلما جاءها المخاض تعذرت عليها الولادة ، وأصبحت حياتها وحياة ولدها في خطر داهم . وجيء بالأطباء فلم يفلحوا في إنقاذ الأم ، وكاد « زال » يئس من رحمة ربه ، فبكى وقعد حزيناً يكاد يشق ثوبه . وأخيراً تذكر أن العنقاء أعطته ريشات ثلاث من صدرها ، ليحرق واحدة منها إذا أمر حزبه ، فحرق ريشة منها ، فإذا العنقاء تهبط من السماء ، وعلى فمها ابتسامة ، فتحدث إليها « زال » عما هو فيه من ضيق بسبب تعذر ولادة « روزبه » ، فنهته عن البكاء ،

لأن الأبطال لا تززعهم الخطوب ، وأمرته بإعداد نصل ماض ليشق به جنب « روزه » ، ثم يخرج الطفل من جنبها ؛ وهكذا فعلوا ، فلما نزل الولد وأفاقت « روزه » ، وكانت قد أوشكت على الهلاك ، قالت « برستم » ، أى قد نجوت ، فسمى الولد « رستم » ؛ وقد رباه « زال » وتعهده جده « سام » فنشأ أعظم أبطال إيران .

رستم حامى الملوك

وشب رستم فتى مديد القامة ، عريض المنكبين ، مفتول الذراعين ، ثابت الجنان ، جميل القسمات ، ولم يكن أبرع منه فى ركوب الخيل ، ولا أقدر منه فى القنص ، ولا أقوى منه فى القتال والمصارعة ، وقد اختار لنفسه حصانا ، له من طاقة الاحتمال ، وسرعة الجرى ، والقوة ما لم يكن لحسان آخر ، وكان رستم يحب حصانه ويؤثره على سائر الحيوانات ، واسمه « الرُخش » .

وذات يوم ركب رستم الرخش ، وسار فى الصحراء يتريض ويصطاد ، فأخذته سنة من النوم ، فربط الرخش بحجر ، وأسلم عيونه للسكرى ، فلما أصبح لم يجد حصانه . ذلك أن جماعة من الترك قد حضروا فرأوا الحصان ، وكانوا كأنهم يبحثون عنه ، فحاولوا سرقة ، فبطش الرخش ببعضهم قبل أن يتمكن الباقون من إجماعه وسوقه إلى المدينة . صحى رستم من نومه فلم يجد حصانه فعز عليه أن يفارقه ، وعزم على السعى لائيقاده ، وأبصر حوله فرأى آثار أقدام اللصوص وحوافر الرخش ، فسار على الأثر ، حتى إذا

أرعى الليل سدوله انتهى إلى مدينة فدخلها ، فعرفه أهلها وخشوا بأسه ، وأسرعوا إلى ملكهم فأخبروه أن « رستم » البطل قد أتى يبحث عن رخشه وأنه يظن أن سارقيه في المدينة يقيمون . فسارع الملك لملاقاته ، ودعاه إلى قصره ، وأكده أنه سيبحث عن الفرس وسيرده إليه . ثم أمر بإعداد مائدة للعشاء ، فأكل رستم وشرب كثيراً ، ثم أدخلوه مخدعاً ملكياً ليقضى الليل فيه ، فدخل وخلع ملابسه وأسلم نفسه للنوم .

وانتصف الليل ، وأحس رستم وقع أقدام في غرفته ، ففتح عينيه فرأى فتاة لم تقع عيناه على أجمل منها ، وفي يدها شمعة من الكافور تضيء بها المكان ؛ فنهض رستم من فراشه وسألها من هي وكيف دخلت ؟ فأجابته بابتسامة ساحرة راضية : « أنا ثمينه ، بنت الملك ، أنا التي تتبعت أخبارك منذ صباك فاشتقت إلى رؤياك ، ففكرت ثم دبرت ثم أمرت خدماً بسرقة رخشك حين عرفت أنك في صحراء قريبة تصطاد ، ولم يكن يارستم من وسيلة لحملك على دخول مدينتنا وبلوغ المنى من مقابلتك بغير هذه الحيلة ، فإنك حريص على حصانك لأنه عزيز عليك . فإن أنت تقدمت غداً إلى الملك فطلبت يدي وصيرتني زوجة لك فإنني رادة فرسك الذي تحب » وأعجب رستم بالفتاة ، ورأى فيها من الجمال ، وطهر البداوة ، وحسن المنطق ما قربها إلى قلبه وحبها إليه ، فوعدها بالزواج وأمهلها إلى الغد .

وتعلق قلب رستم بالفتاة ، وبات يفكر فيها بقية الليل ، وفي الصباح قابل الملك وطلب يدها منه ، فسر هذا بالنسب سروراً عظيماً ، وأقيمت الأفراح في المدينة ، وشارك الناس ملكهم في احتفاله بزواج ابنته ثمينه من بطل إيران رستم .

ولبت رستم أياماً مع زوجته ، وبينما هو معها في حديقة القصر إذا به

يسمع الرخش يصهل ضهيله إذا وقعت بالبلاد واقعة ، فأدرك رستم أن الرحيل قد آن أوانه ، وأن ليس بد من وداع زوجه . ولم يكن يستطيع أن يصحبها معه لأن الناس في سيستان ينتظرون أن يتزوج بنتا من بيوت إيران العظيمة ؛ وكانت ثمينة حاملا ، فأعطاه رستم خرزة زرقاء وقال إذا ولدت أنثى فضعى الخرزة في شعرها ، وإذا ولدت ذكراً فاجعلها في ذراعه يذكر بها أباه ، ثم قبلها ، وودع الملك وركب رخشه ، وسار إلى سيستان .



لم يكدر رستم يصل إلى أبيه زال حتى طلب هذا منه أن يسرع لا نقاذ الملك كيكاس من الجن في مازندران ؛ وعجب رستم كيف جرؤ كيكاس على السير إلى مازندران ، ولقد نهاه أكثر من مرة عن هذه المخاطرة ، فإن الجن حربهم لا يستهان بها ، وقد يكون فيها فناء الدولة إذا فنى في الحرب أبطالها ؛ قال زال : إنك يا بني تعرف ما عليه كيكاس من ضعف الإرادة وخور الرأى ، وإنك لتعرف ضعفه وتراخيه في مجالس الغناء ، وقد قيل له إن مغنياً بالباب يريد أن يسمع الملك صوته ، فناداه فغناه أغنية عن مازندران وما فيها من حدائق كالجنان ، فلم يطق صبراً ، وقام يغزو بلاد الجان ، من غير أن يرجع إلى أو إلى أحد من مستشاريه . فلما ذهب إلى مازندران استعان ملكها بملك الجن « سپيديو » ، فسارع هذا إلى نصرته الملك ، فأظلم الدنيا في وجه كيكاس ثم أوقع الهزيمة بجيشه وأسره وأفقده البصر ؛ وهو اليوم حبيس قلعة الظلمات ، وإن عليك يا بني أن تنقذ ملكك مما ألم به من سوء ، وأن تعيده إلى عرشه ، وأن تعاقب أعداءه الذين اعتدوا عليه .

فركب رستم الرخش ، وسار يقطع الفيافي والقفار ، ولقى في الطريق من

الأهوال ما تقشعر له الأبدان ، ولكنه هو ورخشه تغلبا على كل صعوبة حتى بلغا قلعة في وسط الصحراء ، فابرى ملكها أولاد لقتال رستم فخاربه هذا وأسره ، وطلب إليه أن يدلّه على مازندران وما فيها على أن يعطيه ملكها بعد أن يخلص كيكائوس ؛ فقبل أولاد ، ودله على الطريق .

وسار رستم ومعه أولاد حتى بلغا حدائق عظيمة فقال له : هذا هو باب مازندران ، فتقدم رستم غير هيب وقاتل الحراس ثم دخل المدينة فإذا به يرى قلعة فوق الجبل ، فقال له أولاد إنها القلعة التي أسر فيها كيكائوس ؛ فصهل الرخش صهلة عالية سمعها ملك إيران فأدرك أن « رستم » قد جاء لا نقاذه . واقتحم رستم القلعة ، وقتل من قابله من حراسها ، ثم دخل فوجد كيكائوس مقيداً وقد فقد بصره ، فعانقه وشكره على النهوض لا نقاذه ، ثم قال إن نصر جيشنا لا يتم إلا بقتل ملك الجن سيديديو ولكي تبلغه عليك أن تجتاز الجبال السبعة ثم تجده وراءها في مغارة عميقة في الصخر ، وقد أخبرني الحكماء أن بصرى يرد إلى إني أنا غسّلت عيني بدماء كبده ، فإذا بلغت المغارة وقتلته فلا تنس أن تشق بطنه وتحمل كبده معك .

وخرج رستم من القلعة ومعه أولاد ليدله على الطريق ، فاجتاز الجبال السبعة ، وبلغ باب المغارة فربط أولاد في حجر ، ودخل وفي يده سيفه ، فهوى على من قابله من الحراس ، ثم سار حتى بلغ ملك الجن نفسه ، فوجده راقدًا كالتنين العظيم والنار تقدح من عينيه ، فهوى عليه بسيفه فشقه نصفين ، بعد صراع عنيف ، ثم انتزع كبده وخرج .

ثم عاد إلى القلعة فأعطى كيكائوس كبده ملك الجن فمسح به عينيه فعاد مبصراً .



وجلس كيكائوس يفكر مع رستم في إخضاع مازندران بعد أن قتل رستم من فيها من الجن الذين لن تقوم لهم قائمة بعد موت ملكهم ، فأرسل إلى ملكها رسولا يدعوهُ إلى الخضوع وتقديم الطاعة ، فاستغشى ثيابه واستكبر استكباراً ، ورد الرسول متوعداً ملك إيران ، مهدداً بحربه في عقر داره ، إذا لم يعدل عن رأيه في إخضاع مازندران .

وعاد الرسول فقص على كيكائوس ما صرح به الملك ، وسمع رستم الحديث فغضب وقال : هذا أمر لا تجدى فيه السفارة وحدها ، فإني وعدت أولاد بعرش مازندران ، وإني ذاهب لأقتل ملكها وأضع أولاد فوق عرشه ، واستأذن الملك وسار .

ولما اقترب رستم من قصر ملك مازندران استقبله رسله على الباب ، وكان بينهم فارس لا يشق له غبار ، عرف في مازندران بأنه أقوى رجالها وأمهر فرسانها ، فشد على يد رستم ، وهو يحيمه ، يريد أن يظهر له قوته ، فعصر هذا يده حتى قذفت الأظافر من أصابعه ، ثم أدرك رستم أن النية تتجه إلى توهين عزمه ، وتثبيط همته ، فانتزع شجرة عظيمة من جذورها ، وأمسكها بيده ، كأنها عصاة ، ودخل القصر . وعلم الملك أن فارسه الذي يعتمد عليه قد هضرت يده هضراً وهو يسلم على سفير كيكائوس ، فأدرك أن السفير الجديد هو بطل إيران وغر نبلائها رستم ، فقام وأحسن استقباله ، ولكنه لم يذعن لمطالبه ، فبارزه رستم فضربه ضربة قاضية ، فانقلب الملك حجراً كأنه قطعة من جبل ، فحمله رستم وسار به إلى كيكائوس .

فلما اقترب رستم من مكان ملكه ، أبصره الناس ومن بين يديه ملك

مازندران وقد سحر نفسه حجراً ، فأخذوا يكبرون ويهللون وينثرون عليه الزهور والجواهر ، فلما دخل على كيكائوس ألقى الملك المسحور على الأرض وهدده وأوعده ليحطمنه إذا لم يرفع عن نفسه السحر ، فظهر الملك على حقيقته فجعله رستم بالسيف فشقّه نصفين .
ثم كافأ « أولاد » ملك الصحراء بأن ضم إليه ملك مازندران ، وجعله من أتباعه المخلصين .

* *

عاد كيكائوس إلى المدائن فاستقبل فيها أحسن استقبال ، بفضل ما أتيح له من النصر على الشياطين وقتله ملك الجن وإستيلائه على مازندران .
وكان كيكائوس ضيق الفكر ، سقيم الرأي ، فلم يكدر رستم يستريح من غزوه وعراكه مع الجن ، حتى اضطره إلى خوض معركة أشد هولا من هذا كله ، مع العرب والترك .

* *

ذلك أن كيكائوس ، بقصر نظره ، حسب الفضل في قتل ملك الجن راجع إليه ، فلم يكدر يصل إلى المدائن حتى أمر بإعداد الجيش لغزو هاماوران ، فسار على رأس جماعة وعبر البحر وأوقع الهزيمة بملكها . وكان لهذا الملك ابنة وحيدة رائعة الجمال ، فطمع كيكائوس في زواجها ، فطلبها من أبيها ، فاعتذر باديء ذي بدء ، ذلك أنه أبصر نفسه وقد فقد سلطانه وأصبح ملكاً تابعاً — وما أشقى الملوك التابعين — ثم أبصر نفسه سيحرم من أعز الناس عليه وهي ابنته ، فاعتذر ؛ لكنه لقي من ابنته ميلاً لـ كيكائوس ، فاضطر إلى قبوله زوجاً لها وهو راغم .

وعاد كيكافوس ظافراً ومعه زوجه الجديدة ، فأخذ أبوها يفكر في حيلة ينتقم بها لنفسه ، وتعيد إليه ابنته ، فبعث إلى كيكافوس يدعوه لزيارة بلاده صديقاً ونسيباً ، فقبل كيكافوس الدعوة رغم ما نصحت به زوجه ابنة ملك هاماوران ، فاستعد للرحلة وأخذ زوجه وسار ملبياً . .



أما رستم فإنه بلغ سستان رافع الرأس ، مشرق الجبين ، فقابله أبوه زال واحتفلت البلاد بعودته ، وهناك أتاه رسول من عند زوجه ثمينة تنبئه أن الله قد رزقه بنتاً ، فحزن رستم لهذا ، فقد كان يريد ولداً يخلفه في بطولته ، ولكنه أرسل الهدايا من الجواهر وآنية الذهب لزوجه وابنته ، والحق أن ثمينة لم تكن صادقة فيما أنبأت .

وجلس رستم يحدث والده زال بأن ثمينة قد رزقت منه بنتاً ، فسر الجد بهذا النبأ وأخذ يتحدث مع ولده في هدوء ودعة .

وحقاً دخل رسول مقبل من المدائن ، وأخبر « زال » أن كيكافوس قد ذهب لزيارة ملك هاماوران الذي تزوج ابنته ، فانتهر هذا الملك فرصة مجيئه زائراً بغير جيش يحميه ، وأسره في قلعة عنده ، وأن أفراسياب ملك الترك لم يكدر يسمع أن ملك إيران أسير في بلاد العرب ، حتى أسرع فهاجم إيران واكتسح أراضيها ، وجلس على عرشها ، وأن البلاد اليوم في أيدي الترك يسومون أهلها العذاب ، وأن الأمل في تخليص الملك من يد العرب ، وتحرير إيران من جند الترك ، معقود على زال وولده رستم . فقام البطلان من سستان ، وسارا ملاقة أفراسياب فلقياه وهزماه وطردها من إيران ، ثم اتجه رستم إلى هاماوران فركب البحر وخلص الملك من الأسر ، وأعاد زوجه إلى المدائن .

وأدرك كيكائوس أن « رستم » أنقذ حياته المرة تلو المرة ، وأنه في سبيل هذا قد اقتحم من المصاعب ، وركب من المخاطر ما لا قبل لبشر به ، وأنه آخر مرة أنقذ إيران كلها من يد الترك وأوقع في قلب ملكهم أفراسياب من الرعب والذعر ما اضطره إلى أن يولى منه فراراً ، فأعد كيكائوس حفلاً عظيماً ، ونادى النبلاء والموابذة ، وخلع الخلع والهدايا على رستم ثم قلده بهلوانية العالم .

سهراب ورستم

لم تكن بنتا تلك التي أنجبها ثمينة زوج رستم ، إنما ولدت طفلاً باسم الشجر فسمته « سهراب » ، وكبر سهراب فوجد نفسه أشجع أقرانه وأقواهم ، وبدا بين الترك متميزاً عنهم ، في ذكائه ، وإقدامه ، وقدرته في الصيد ، وجلده في الصراع ، فأخذ يلح على أمه أن تحدثه عن أبيه ، فإنه يرى نفسه من سلالة غير سلالات زملائه ، وكانت أمه مترددة أشد التردد في إجابته ، فهي تريد أن تبوح له بسر أبيه لأن في هذا نخراً أي نخر لفتاها ، وهي في الوقت نفسه تخاف أن يسافر إلى حيث أبوه إذا عرف الحقيقة ؛ وحينئذ تبقى وحيدة ، وهي لا تريد ذلك . وأخيراً أخبرته أنه ابن رستم بطل إيران ، وحدثته عن الخرزة الزرقاء التي يضعها فوق ذراعه ، إنها رمز من أبيه إليه . وأصر الشاب على أن يذهب إلى أبيه ، فإنه أصبح لا يطيق صبراً على فراقه ، وهو يريد أن يكون بجانبه في غزواته وحروبه ، واشتد حب الفتى لأبيه إلى حد أنه أزمع السير إلى إيران ليعزل ملكها ويولى أباه مكانه ، فإنه هو الذي يحمى عرش إيران ،

وهو أولى بأن يجلس على عرشها . . . وعبثا حاولت الأم أن تثنيه عن عزمه ، فبكت وتوسلت ؛ إنه هو الذى بقى لها ، وإنها وقد حرمت من زوجها فقد وجدت فى ولدها العزاء ، ثم هى وجفة أن يقتله أفراسيات إذا عرف أن ابنا لرستم يعيش فى بلاده ؛ ولكن الشاب لم تضعفه دموع أمه ، ولم يثبطه توسلها ، وكشفها بأنه ذاهب إلى ملاقة ملك إيران ليخفضه عن عرشه ويرفع أباه رستم عليه .

وجاء الرسل لأفراسياب فحدثوه بالأمر ، وكان يعلم ما عليه سهراب من قوة وذكاء ، ويرى أنه بطل الترك الذى لا يبارى ، فلما علم أنه ابن رستم وأنه ذاهب لقتال ملك إيران ، قال إذاً فلنحط فى هواه ، ولنمده بجنود من عندنا ، فإن رستم ذاهب لقتاله ما فى ذلك شك ، والوالد لم ير ابنه من قبل ، وكذلك الولد لا يعرف أباه ؛ وجاء هومان مستشار ملك الترك ، فصاحب سهراب فى رحلته ، لأنه يعلم المسالك والمفاوز إلى إيران ، ولأنه ممثل أفراسياب فى حاشية سهراب . وكان هومان حكيما من حكمائهم المشهورين ، وكان سهراب يسمع عنه ، ويعجب بسيرته ، وغزارة علمه ، وغالى نصحه ، فأولاه ثقته ، واتخذته مشيراً له يسأله كلما احتاج إلى رأى .

وهكذا سار الجيش يتقدمه سهراب وهومان ، لملاقة جيش ملك إيران .



وفى الطريق وجد سهراب قلعة فاجتاحها وقتل ملكها ، وظلعت ابنة الملك فى زى الرجال ، فبارزته وكاد يقتلها فكشفت القناع عن رأسها فتدلى شعرها ، فأنزل سهراب يده ، فإن الأبطال لا تقتل النساء . وبلغ الخبر كيكاوس فأضج مضجعه ، وخشى مغبة هذا الهجوم ، فإن الناس يتحدثون

عن بطل جديد في بلاد الترك ، لو صاحب أفراسياب لكتب له النصر ، فبعث إلى رستم يطلب منه الحماية ، ويستعجله القيام فإن الخطب جلل . وجاء الرسول إلى رستم فدعاه هذا إلى الشراب ، وتشاقل في النهوض إلى الحرب ، فإنه لم يكن يعبا بالترك ، وهو يعلم أنه يغلبهم حيثما يدرهم ، وأن كيكأوس جبان رعديد ، يخيل إليه ضعفه وخوره أن الترك على أبواب داره وليس إلى دفعهم من سبيل .

وبعد أيام قام رستم ومعه الجند ، وحث السير لملاقاة سهراب ، وفي وسط الصحراء تلاقى البطلان : أما سهراب فقد تقدم وفي نفسه أن يعرف حقيقة خصمه ، فإنه شعر بقلبه يخفق حين رآه ، وما خفق قلبه من قبل وهو يلاقى الأهوال ويواجه الجبابرة ، وأحس السيف يرتعد في يده ؛ إنه يريد أن يلقى السلاح وأن يجلس جانباً مع هذا الخصم ليتحدث معه ؛ هو يحب هذا الخصم ، ولا يريد أن يلقاه كما يلقى العدو عدوه ، إنما يريد أن يلقاه كما يلقى المحب حبيبه ، أليكون هذا الخصم رستم ، أهو الوالد الذي يحمل خرزته فوق ذراعه ؟

أما رستم فيتقدم حانقاً ، حانقاً على هؤلاء الترك ، يغرم أن يجدوا فتى شجاعاً في بلادهم فيخيل إليهم أنهم قادرون على غزو إيران ، حانقاً لأنه لم يكذب يستريح من حملتهم الفاشلة التي طردهم فيها وألحق الهزيمة بملكهم أفراسياب ؛ وإذا فليقدم على هذا البطل الجديد ، وليعلمهم أن في إيران ملكاً له بطل يحميه .

وأقبل البطلان ، وفي أيديهما سيفان :

ورفع رستم سيفه يريد أن يقضى به على عدوه ، فقال سهراب القوى الجبار في رفق واحترام : تمهل يا صاحبي أأكون أنت رستم ؟

كلا يا فتى لست أنا رستم ولكنى عبد له .

ولم يرد رستم أن ييوح باسمه لسهراب ، لأنه يظن أن هؤلاء الفتيان الترك لهم من الصلف والغرور والخبث والاستكانة وقت الحرج ما يحملهم على تملق الأبطال لينصرفوا عنهم بغير قتال ، ليكسبوا شرف الوقوف معهم للمبارزة وليغنموا السلامة بالعدول عن القتال ، ومن يدرى فعداً يذهب هذا الغلام لأفراسياب فيحدثه بأنه لقي رستم بطل إيران ، بعد أن قتل من بارز من القواد ، فلم يقدر أحدهما على خصمه ، فتصالحا وشربا معاً وانصرفا صديقين ! وإذا فلينكر أنه رستم ، وليخيل لسهراب أنه عبد له ، وليبدأ القتال ليقتضى على هذا الشاب الذى يراه وقد غلب حياؤه على جرأته ، ورفقه على إقدامه . وتنبه سهراب فإذا خصمه عنيد جبار ، إنه ليس برستم ، فليقدم إذاً على صراع لا هوادة فيه ولا رفق ، فإنه لا يقاتل أباه ، وهو قد عرف بنفسه بما يكفى لإزالة كل لبس ، ولو كان خصمه رستم لأدرك الحقيقة ، ولجاش فى نفسه من العوامل ما يضطرب له صدر سهراب . .

وبدأ السيفان عملهما بلا جدوى ، حتى تكسر النصلان . .

وعاد الوسواس إلى نفس سهراب ، إنه خصم جبار ، إنه لا يتصور هذه القوة ، والجرأة ، والمهارة فى إمساك السيف ، عند غير بطل إيران رستم ، فهو إذاً يعيد السؤال ، ألسنت أنت رستم ؟ فإذا بخصمه العنيد يحجبه :

إلى عمودك يا فتى الترك ، وما ضرك أن تجهل من أنا ؟ إلى عمودك فإن الوقت أضيق من أن نتحدث ؛ وأسرع رستم فأمسك عموده ، كما أسرع سهراب إلى عموده ، والتحم الرجلان ، كل بهوى على صاحبه ، كأسيدين امتلا قسوة جردا من الرحمة ، وتحطم العمودان وتمزقت الضروع ، وفل الحديد ، ولما ندرك الرحمة قلباً قدت من الصخور .

وجلس الخصمان ، ينظر كل منهما إلى صاحبه ، وسهراب يريد أن يتكلم ، ولكن ما جدوى الكلام بعد الذي قال ! ورستم يعجب لهذا الفتى من أين له هذه القوة ، ثم ما هذه العظمة التي تبدو عليه في القتال ، ولقد حارب أقوى الأئس وأخبت الجن ، ولكنه لم يصارع مثل سهراب ، كأنه من نسل سام ، كأنه واحد من أسرتنا .

ولا يكاد هذا الخاطر يمر بذهنه حتى يتبدد ؛ من أين يكون وليس لي ولد ! حدثتني ثمينة أنها وضعت أنثى ، فبعثتُ إليها بالجواهر وآنية الذهب ، ولو ولدت ذكراً لكان بطلاً يجري على أثر أبيه جريان رستم على أثر زال ، وزال على أثر سام ؟

ومضت ساعة استراح فيها البطلان ، فقاما وتلاحما ، وأمسك كل منهما بتلابيب صاحبه ، ها هو رستم يمسك معقد منطقة سهراب ويجذبه منها ، وسهراب كالطود لا يتحرك ، وها هو سهراب يحاول أن يوقع رستم أرضاً ، ونفسه لا تطاوعه . وتعب الخصمان ، وتراجع سهراب إلى الوراء قليلاً ، يكاد يتميز من الغيظ ، ألا ترحم شيخوختك أيها الشيخ ؟ ألا تخاف فتوتى وشبابى ؟

ويقدم رستم كالأسد المنهك : تقدم أيها الشاب ، تقدم فأني صارعك صرعة يتحدث بها الناس في إيران وتوران ، ويتقدم سهراب غاضباً كالإيث الهصور فيرفع رستم بذراعيه ثم يلقيه على الأرض . . ولا يقتله ؛ إنه يغلبه ولكنه لا يقضى عليه . . إن يده لا تطاوعه على إخراج مديته يحز بها رقبة خصمه ؛ كلا ، كفى أنه غلبه . . ويفيق رستم فيطلب الهدنة من الفتى الثائر الغالب ، فينظر سهراب إلى خصمه الجاثم على الأرض ويقول :

إبق مكانك ، فإن حسابى ليس معك ، إنما حسابى عند كيكائوس ، إني

ذاهب إليه ، أقتلع خيامه وأقتل جنده . . وانصرف سهراب إلى معسكر
كيكاوس ، وأفاق رستم فأراد أن يذهب إلى معسكر أفراسياب ، ولكنه
خشى على كيكاوس أن يقتله سهراب أو يأسره ، إنه بطل إيران وحامي ملكها
فليسرع إذاً لا نقاذ الملك ، وجرى فلحق سهراب ، وكان الليل قد أقبل
بظلامه ، وهدوئه ، فطلب المهلة من سهراب . . أى مهلة يطلب الشيخ
البطل ، ألم ير إلى وقد اقتلعت من على الأرض اقتلاعاً وألقيته مجذلاً على
الأرض ، ألم ير أنه كاد يلقي حتفه من شدة ما ارتطم بالصخرة جسده ، ولكن
أليس من الخير أن أهادنه وأمهله إلى الغد ، إني أريد أن ألقى هومان فأسأله
إذا كان هذا الخصم هو رستم والدي ؟ إن يدي لا تطاوعاني على قتله مهما
بدا من قسوته وجفائه .

ونظر سهراب إلى رستم وقال : إذاً إلى صباح الغد كما تريد ، وانصرفا .



ألا ترى يا هومان أن هذا البطل أقرب ما يكون إلى رستم ، ولقد والله
ألححت في سؤاله فألح في النفي ، إنه يقول إنه عبد من عبيد رستم . ولكني
لا أرى هذه القوة لغير رستم ؟ أرايت رستم يا هومان ؟ نعم ياسهراب ، رأيت
رستم وأعرفه جيداً ، والحق إن هذا الرجل يشبه رستم كثيراً ولكنه ليس
هو . ولمعت عينا هومان الخبيث الأثيم بالشر ، إنه يهيء القتل لرستم ، فإنه
مقتول لا محالة ، إن قتله سهراب ، فقد قضى الأمر ، وإن قتل هو سهراب
فقد قتل ولده وقضى الأمر أيضاً . فهو إذن يؤكد أن رستم رجل آخر ،
وهكذا اطمأن سهراب .

وإذاً فليذهب سهراب إلى فراشه ، ولينم هادئاً ، فإنه لا يقاتل رستم ،

إنما هو يقاتل عبداً له . ومع ذلك فقد ذهب سهراب إلى فراشه ولكنه لم يستطع أن ينام ، إنه شارد اللب ، إن شيئاً خفياً يقلقه ويذهب عنه النوم ، وعبثاً يحاول أن يقنع نفسه أن ينام ليصبح مستعداً لما هو مقبل عليه ، إنه يفكر في محادثة خصمه ، وهو غير مرتاح لقول هو مان .

أما رستم فقد ذهب ونام مستريحاً استعداداً للغد ، إنه شيخ مجرب ، وهو يدرك أن الراحة لازمة لنصب العراك ، وجلد الصراع ، ولكن ما بال هذا الفتى التركي يتقرب منه كلما تمكن من ذلك ؟ إنه لم يقتلني وكان يقدر على ذلك ، إنه يتلطف معي في قتاله ، إن شيئاً يمنع هذا الفتى من الفتك بي ، ولكن ماذا عسى أن يكون هذا الشيء ؟ إنه نقص في تجربة الفتى ، إنه شاب في مستقبل العمر أوتي من القوة ما لم أر لشاب مثله ، ولكنه لم يجرب الحياة بعد ، أو لعله يرهبنى . . . وذهب فنام وقام مستريحاً مستعداً .



وجاء الصباح والتقى رستم وسهراب . إن سهراب لا يرفع يده بالضرب ، ولا يقبل على صاحبه للصراع ، إنما هو مقبل عليه باسم الثغر ، راضى النفس ، محيياً تحية الصباح ، سائلاً عما كان عليه نوم المساء ! ورستم يعجب لهذا الذي جاء للقتال فنسى نفسه ، فهو ينهر صاحبه ويقابل رفته بخشونة ، وإقباله بصدود ، وتحيته بحفاء ، إلى القتال .

واشتمك الرجلان ، وعاد سهراب إلى غيظه ، وخيل إليه أنه يتملق الشيخ ، ومن يدري ، لعل الشيخ يحسبني أخاف منه أو أنى عن غلبه عاجز ، ألا فلاأرينه بأسى وإقدامى ، ولأضربه ضربة يدرك منها أنى ابن رستم . وهجم سهراب فألقى خصمه على الأرض ، واستل سيفه يريد أن يقطع رأسه .

ولكن رستم حدثه بأن ليس من عادة الأبطال أن يقتلوا المغلوب أول مرة ، إنما يحق له ذلك إذا أوقعه مرة ثانية ، وطلب إليه أن يمهله للغد ؛ وسهراب موافق على هذا الرأي ، مسارع إلى إجابته ، إنه واثق بقوته ، موقن أنه قادر على غلبه ، ولكنه لا يريد أن يقتله أبداً . . . فليمهله يوماً آخر .

* * *

يا هومان إن قلبي لا يطاوعني على قتل هذا الشيخ ، إني أقوى منه لأنني شاب وهو شيخ كبير ، إني أخاف أن يمسه مني الضر ، فأنا أرفق به ، وأحسن معاملته ؛ يا هومان إن قلبي يحدثني أنني أقاتل أبي ، ولو والله تأكدت أنه ليس أبي لصرخته بضربة واحدة . إنه يا هومان وقع أمامي اليوم ولكنه حدثني أن ليس من شيم الأبطال أن يقتلوا من وقع منهم لأول مرة ، وطلب أن أمهله إلى غد فأمهله . .

وأبرقت عينا هومان ، الشيخ الشرير القاسي ؛ أتركته اليوم يا سهراب ؟ إنك ممن أوقع الأسد في كمين فلم يقض عليه ليعود الأسد فيفتسه . إنه سخر منك يا سهراب ، وإني أخاف أن يغدر بك غداً ، فاحترس منه ، ولا تتوان في القضاء عليه ، ودع عن نفسك الوسواس ، فإنه ليس برستم ، ألم أحدثك أنني أعرف رستم خير المعرفة ، إنه ليس برستم . .

* * *

وفي اليوم الثالث التقى البطلان ، وأقبل سهراب بلاطف رستم ، فلم يأنه هذا له ، بل هجم عليه كالأسد الجائع فألقاه على الأرض ، ثم استل سيفه فهوى به عليه ، وصاح صيحته ساعات النصر : رستم . . « رستم ! من رستم ؟

أبى ، إنه قاتلك ، إنه سيقطعك إربا انتقاما لقتل ولده سهراب ! » ورفع رستم السلاح ونظر إلى سهراب ، يكاد ينفطر قلبه ، « لم يكن لرستم ولد يا فتى » ، « كلا بل إن له ولداً هو سهراب الذى قتلته » .

وعاد رستم بذاكرته إلى تلك الأيام الحلوة التى قضها مع ثمينة ، وتحيل ابنه منها وقد شب وبلغ عمر سهراب ، ولكن ثمينة أخبرته أنها رزقت أنثى . وكادت نفسه تطير شعاعا ، وقال أفصح يا سهراب ، إني أنا رستم . فكشف سهراب عن ذراعه ، فرأى رستم الخرزة التى أعطها لثمينه . . فأدرك الحقيقة التى حاول أن يفهمها له سهراب ، فلم يلق إليه بالاً . ولم يستطع رستم أن يضبط نفسه ، فهوى بجانب ولده ، واحتضنه وعلت بالأنين زفراته ، كالأسد الجريح . . وصهل الرخش صهيله فى الملمات ، وأسرع جثا بجوار سيده والدمع يتساقط من عينيه الحزينتين . .

وجاء العظماء من معسكر كيكاس ، فرأوا بظلمهم وقد شق قيصه وارتمى بجانب ولده يبكيه ، وشاهدوا سهراب والدمع يترقرق فى عينيه ، والدماء من جرحه تسيل ، وذهبوا ليحضرُوا دواء عسى أن ينفع الدواء ! وأفاق رستم فرأى ابنه مضرجا فى دمائه ، ورأى السيف الذى قتل به ولده ، فأمسكه وأراد أن يقتل نفسه ، فمد سهراب يده فى عطف ورفق ومنعه . .

« فيم الجزع يا أبتاه ، لقد أجريت البطولة فى دمي ، فشبيت أشجع شبان بلدى وأقواهم ، وطالما بذلت حياتى رخيصة فى سبيل بلادى ، ومنذ ثلاثة أيام وأنت تنعم بى ، وتمتع ناظر كبرؤياى ، ولقد لمست ما وهبتنى من قوة وجلد ، فلتعش يا أبت قرير العين ، راضى النفس ، ولتنعم بأنك كان لك ولد ، لقيت فيه نفحة من بطولتك ، وصورة من قوتك ، حتى إذا مات ، مات على يديك ميتة الأبطال ؛ يا أبت ارع أعى ولا تدعها وحيدة يقتلها الحزن ، وادع إلى

الصلح بين قومك وقومها ، فلا هؤلاء بملاقين مثل سهراب من بعدى ،
ولا أونئك مثل رستم من بعدك ، فليرض كل منهما بأرضه ، وليعيش فيها
سعيداً .

أما هومان فليجزه الله بسوء صنعه .
ثم نظر سهراب إلى رستم نظرة الوداع ، وفاضت روحه إلى بارئها .

الملك والشجرة

أودع شاب شيخاً كبيراً مائة تومان (عملة فارسية) ولما طلب
أمانته من الشيخ أنكرها وقال إنك لم تودعني شيئاً ؛ فذهب الشاب ورفع
قضيته للملك ؛ فطلب الملك الشيخ وسأله لماذا لم يرد لهذا الشاب أمانته ،
فقال الشيخ إنى لم آخذ منه شيئاً .

قال الملك للشاب : ألم يرك أحد وأنت تسامه النقود ليشهد بذلك ؟

فقال الشاب : كلا يا مولاي ليس لدى شاهد على ما أقول .

فسأل الملك الشيخ أن يحلف بأنه لم يأخذ مال الشاب ؛ ولكن الشاب

لفت نظر الملك إلى أن مثل هذا الشيخ الخائن يحلف حائثاً ولا يبالى .

فسأل الملك الشاب : عند ما أسأمته مالك أين كنت تجلس ؟

قال الشاب : كنت أجلس تحت شجرة في الصحراء ؛ فقال الملك : إذاً كيف تقول أن ليس لديك شاهد ، إذهب إلى الشجرة ومرها أن تحضر فوراً عندي . فقال الشاب متعجباً : إني أخاف ألا تطيع الشجرة أمر مولاي ؛ فقال له الملك : إذاً نخذ هذا الخاتم وأرها إياه ، تأتي معك .

فتبسم الشيخ الماكر وظل صامتاً ، وأما الشاب فقد ذهب ينادي الشجرة . وبعد مدة سأل الملكُ الشيخَ قائلاً : ترى هل بلغ هذا الأحمق الشجرة ؟ فقال الشيخ : كلا يا مولاي إنه لم يصل إليها بعد .

وبعد ذلك حضر الشاب فأخبر الملك أنه أرى الشجرة خاتمه فلم تحرك ساكناً ، فضحك الملك وقال له : ولكنها شهدت يا بني . ثم أمر الشيخ برد المبلغ وعاقبه .

(جامع الحكايات)

٦٠

الدرويش المتلاف

جلس أحد الملوك في مجلس سمره ، يشرب مع حاشيته ويلهو ، فصاح قائلاً : ما أطيب وقتنا هذا ، فإننا لا نفكر في خيرٍ أو شرٍ أو إنسان . وكان تحت النافذة درويش ينام في البرد عارياً فسمع قول الملك فقال : يا مليكنا إذا صفا لك الجو فإنه يصفو لنا .

فسر الملك بهذا الكلام ، وأطل على الدرويش وقال له : أعد ذيل قميصك
فإنى ملق إليك صرة بها ألف دينار .

فقال الدرويش : ليس على قميص يا مولاي .

فبعث إليه الملك بخلعة ومعها الألف دينار ، فأتلف الدرويش المال بغاية
السرعة . فإن المال لا يبقى في يد الأحرار ، كالصبر في قلب العاشق ، أو
كالماء في الغربال .

* * *

وأبلغ بعض رجال الحاشية الملك بما كان من أمر الدرويش المتلاف ، ولم
يكن الملك منشرح الصدر في هذا الوقت ، فغضب غضباً شديداً ، وأمر
بطرده الدرويش ، قائلاً إن هذا الدرويش لا يعرف أن خزانة بيت المال لقمة
المساكين وليست طعمة إخوان الشياطين .

إن الأبله الذى يشعل الشمع الكافورى والنهار مضى ، لا يجد زيتاً
يضئ مصباحه فى الليل البهيم .

فقال الوزير الطيب :

إن الخير أن نقسط لهؤلاء الفقراء فى المنح ، فنجعلها قليلة ودائمة ، حتى
لا يسرفوا فى إنفاقها ، أما أن تفتح لهم صدورنا فنوسع عليهم الرزق ، ثم
نضيق بهم ذرعاً فنملأ قلوبهم باليأس ، فليس من الخير فى شيء .

إن عطشى الحجاز لا يلتفون حول عين ماء مالج ، وحيثما وجد الماء العذب
يجتمع حوله الناس والطير والنمل .

سعدى فى بيت النار

رأيت فى سومنات (فى بلاد الهند) صنما من العاج ، مرصعاً بالجواهر ،
 كمنات فى الجاهلية . وقد أحسن المثال صورته ، مخرجاً أحسن ما يستطيع
 إخراجه . ورأيت القوافل أقبلت من كل حذب وصوب ليرى رجالها هذا
 التمثال الذى لا روح فيه . لقد طمع فى رضاء هذه الصورة ملوك الصين
 وچكل ، كما طمع سعدى فى رضاء حبيبته الذى قد من الصخر قلبه . واتجه
 القوم من كل مكان يتضرعون إلى التمثال الأصم الأبكم ؛ ووقفت حائراً فى
 كشف ما أرى . كيف يعبد الإنسان الجماد ؟

وكان لى صديق مجوسى ، نسين سوياً فى غرفة واحدة ، وتربطنا صداقة
 وثيقة ، فقلت له :

يا برهمى إنى من أمر هذا البيت نلقى عجب عجاب . إنى أرى الناس قد فتنهم
 هذا الصنم ، فقيّدهم فى بئر الضلالة . إنه لا قوة فى يديه ، إنه لا تقوى على
 الحركة رجلاه ، وإنك لو ألقيته أرضاً لما استطاع من العثرة نهوضاً .

ولم أكّد أفرغ من حديثى مع المجوسى حتى ضاق صدره ، واستشاط
 منى غيظاً ، ثم ذهب إلى المجوس وشيوخ بيت النار لخدمهم بما كان منى ؛
 فأدركت أن موقفى منهم أصبح عسيراً ، وتيقنت أنى لن ألقى منهم خيراً .

وتهافت على المجوس قراء اليازند (تفسير الاقستا كتابهم المقدس) كما يتهافت الكلاب على العظم . إن الطريق المضل عندهم هو الطريق السوى ، والطريق السوى هو المضل . والرجل مهما يكن علمه وفضله فهو جاهل عند أهل الجهل . ونظرت فإذا القوم يحدجونى بأنظارهم وقد ضاقوا بى ذرعاً ، فكنت كالغريق لا يجد له فى لجة البحر الثأر خلاصاً . وإذا رأيت جاهلاً قد غضب ، فإن السلامة فى الدين والتسليم . فرفعت صوتى مثنياً على كبير البراهمة قائلاً : يا شيخ التفسير وأستاذ الزند ، إني أيضاً يطيب لى حسن هذا الصنم ، إنه جميل الشكل ، تجذب قامته القلوب . لقد أعجبنى منظره ولكنى لا أعرف معناه . لقد جئت هذا المعبد زائراً منذ أيام ، وإنه لمن العسير على الغريب أن يفرق بين الحسن والقبيح . ولذا فإني ألتبس منك أن تدلنى على الحق فيما أرى ، فإنك كبير هذا المعبد ، وأنت تعلم أن العبادة لا تتأتى بالتقليد ، وإنه سعيد من يطلع على الحقيقة ويعمل بها . ألا حدثنى عن حقيقته حتى أعبدته عن معرفة وإيمان . فأضاء وجه البرهمى من السرور وقال لسعدى :

يا حسن الطبع إن سؤالك صواب وصنعك جميل ، وإن من جد وجد ، ومن سار على الدرب وصل . وقد رأيتُ مثلك أصناماً فى أسفارى ولكنى لم أحط بسرها خبراً . إنك ستجد هذا الصنم يرفع يديه إلى الله فى الصباح ، فإذا شئت فابق هنا الليلة ، حتى تراه يتجه بيديه إلى الله .

* * *

وبات سعدى فى بيت النار تلك الليلة ، مؤتمراً بأمر الشيخ ، مثله كمثل يزن حفيد رستم بطل إيران ، الذى أحبته بنت أفراسياب فحملته قهراً إلى بيتها فلما رآه أبوها سجنه فى بئر بعيدة الغور : كذلك كان سعدى فى بيت النار .

وطال ليل سعدى كأنه يوم من أيام القيامة ، ورأى المجوس من حوله يصلون بلا وضوء . إنهم لا يستخدمون الماء ، وتقوح رائحتهم النتنة ، كما تقوح رائحة الجيف في الشمس . لعله ارتكب أمراً إمرأ ، لقد لقي جزاءه عذاباً أليماً تلك الليلة . وقضى ليله في هذا الشقاء ، واضعاً يداً على قلبه ، رافعاً الأخرى يدعو ربه ؛ حتى انقشع الليل بظلماته ، وتنفس الصبح بضياءه ، كأن خطيب الليل ذا الرداء الأسود قد امتشق حسام النهار بلا حرب ؛ وصاح الديك منادياً البرهمنى في الفضاء .

وأضاء النهار ، وأقبل المجوس الفاسدون الذين لم يغسلوا وجوههم ، أقبلوا من كل باب وواد وشارع ، حتى لتظن أن التتار قد أقبلوا من زنجبار . لم يبق رجل في المدينة لم يحضر إلى بيت النار ، وازدحم بهم الفناء حتى لم يكن مكان لآيرة بينهم .

وكان سعدى منهوكة ، مثقل الجفون ، فإذا به يرى التمثال ، فجأة ، وقد رفع للسماء يديه . وهنا ارتفعت أصوات المجوس ، دفعة واحدة ، حتى لتظن أنك تسمع بحراً صاخباً متلاطم الأمواج : ثم أخذ الوافدون في الانصراف رويداً رويداً ، حتى إذا خلا المعبد منهم نظر إلى شيخه مبتسماً وقال : ما أشك أن الحقيقة تكشفت إليك ، وأن الباطل قد زهق . فلما رأى سعدى أن الرجل قد استولى عليه الجهل ، لم يستطع أن يعارض أو يقول الحق ، بل لجأ إلى التقية ، فأخفى الحق عن أهل الباطل .

وإذا رأيت نفسك ضعيفاً غاية الضعف أمام القوى الجبار فليس من الخير أن تظهر الرجولة فتكسر أصابعك .

رأى سعدى أن الخير في أن ينافق ، فبكى معتذراً عما قال ، نادماً عليه . فرق له قلب الشيخ ومال إليه ؛ ولا عجب فإن السيل يحرك الصخر . ولما رأى

الناس أن شيخهم قد رضى على سعدى ، أقبلوا عليه وسعوا إلى خدمته ،
 وأمسكوا بذراعيه إجلالا وتبجيلا . وتقدم سعدى من التمثال العاج الذى
 ركب فوق كرسي من الذهب على تحت من الساج ، تقدم إلى هذا التمثال وطلب
 الشفاعة وقدم الاعتذار ، ثم قبل يد الصنم ، لعنة الله عليه وعلى عبدة الأصنام .
 وصار سعدى كافراً عدة أيام ، تقليداً للبراهمة ، كما أصبح من البراهمة يتلو
 الزند ومقالاته مثلهم ، حتى أصبح نادماً على ما صار إليه من خطوة فى
 بيت النار .



وأبصر سعدى فإذا تحت مقعد الشيخ كبير المجوس ستارة مكللة بالذهب ،
 وخلفها جبل يتصل بيد الصنم ، فأدرك على الفور سر تحريك يدي التمثال ،
 فإن الشيخ يحركه ، فى يسر ، كأنه داود يصير الحديد شمعاً فى يديه . وهكذا
 كان الصنم يرفع يديه للسماء حين يجذب البرهمي الحبل .
 وعرف الشيخ أن سعدى قد كشف السر ، فحجل ، ومن الخطيئة أن
 يذاع هذا السر ، فخرى من أمام سعدى فلحق هذا به ، وأمسك بتلابيبه
 وألقاه فى بئر فى الطريق :

فإنى أعرف أنه إذا عاش يهدر دمي حتى لا أبوح بالسر الذى رأيت ؛ ومن
 الخير أن لا تتوانى عن القضاء على خصمك إذا سنحت لك الفرصة ، فإنه لن
 يرجو غير هلاكك ما عاش .

قال سعدى :

وأخذت أرحم الكافر بالحجارة حتى هشمته تهشياً ، ثم هربت من هذا
 البلد . فإن عليك أن تهرب من رائحة قصب السكر إذا أشعلت فى مزرعته

النار . وإذا قتلت ابن الأفعى التى تعض الناس فلا تبقي فى البيت الذى قتلت فيه . وإذا حطمت عش النحل فلا تنتظر أمامه فإن الخطر لا يلبث أن يحدق بك . ليس فى أوراق سعدى غير هذه النصيحة : لا تقف بجوار جدار هدمت أساسه .

وانتقلت بعد ذلك من الهند إلى اليمن ثم إلى الحجاز ، ومن شدة ما لقيت من الهول فى بيت النار لم يحل مذاق حتى اليوم .

(بستان)

٦٢

وزير

ذهب جماعة إلى وزير السلطان محمود ، حسن الميمندى ، وسألوه ماذا قال السلطان فى قضية تعنيهم .

فقال الميمندى : إن السلطان لا يخفى عنكم شيئاً .

قالوا : ولكنك وزير المملكة ، والسلطان يسر إليك برأيه حين لا يريد

أن يبوح به لنا .

قال الوزير : وما دام الأمر كذلك ، فعم تسألون وأتم تدركون أنى

لا أفشى له سرّاً .

(كلستان)

الملك صالح

خرج الملك صالح ، من ملوك الشام ، مبكراً من قصره ليتفقد شئون رعاياه ؛ وقد سار في الشوارع والأسواق ملثم الوجه ، كعادة ملوك العرب ، حتى لا يعرفه الناس ولا يخفى عليه من أحوالهم شيء . وقد كان هذا الملك صادق النظر ، محباً للدراويش ؛ ومن توفرت له هاتان الصفتان فهو الملك الصالح حقاً .

وساق حب الاستطلاع الملك إلى الدخول في المسجد ، حيث يبيت الدراويش ، فوجد به درويشين راقدين ، كلاهما حزين القلب ، كسيف البال . كانا راقدين ولكن النوم لم يزر جفونهما ، وأثنى لهما الكرى وهما عريانان والجو برد زمهرير ؛ كانا راقدين يرقبان طلوع الشمس ، كأنهما الحرياء تنتظر الدفء والنور .

فدنا الملك منهما فسمع أحدهما يقول لصاحبه :

سيكون علينا ملك يوم القيامة ، ولو أتيج ملوك الدنيا هؤلاء الذين يعيشون منغمسين في اللهو ، دائبين على اللذات ، أن يدخلوا الجنة مع أمثالنا من العاجزين ، فإني لن أرفع رأسي من على حجر قبري . إن الجنة مأوانا ، نحن الذين نعيش وأغلال الهموم في أرجلنا . ماذا أفدنا من هؤلاء الملوك حتى

يضائقونا بوجودهم معنا في الآخرة . ولو وجدت ملسكنا « صالح » يدنو من جدار الجنة فأني سأحطم رأسه .



فأما سمع الملك صالح كلام الدرويش أدرك أن الخير في أن لا يبقى بجوارهما وتركهما وخرج من المسجد . ومضت برهة وتجلي الصبح ، وبدأ الناس يومهم . فأرسل الملك رجلين من قصره ليحضرا الدرويشين من بيت الله . ودخل الدرويشان القصر ، فأمر الملك بأكرام وقادتهما ، وتهيئة الوسائل لهما ، حتى يمثلا في مجلسه . وأدخلا على الملك وقد استوى على العرش ، فحياهما وأجلسهما قريبين منه .

وتغير حال الفقيرين الحائقين ، وأصبحا يرفلان في قشيب الحلل ، وزالت عنهما آثار الفقر ، وبدت عليهما مظاهر النعمة ، وقد اتخذا مجلسهما مع رجال الملك ، في القصر المنيف ، بعد أن كانا في خشية من البرد والمطر والسييل . وبعد أن كانا عاريين ، يرتعدان من البرد ، لبسا أثواباً معطرة برائحة العود . فقال أحدهما هامساً في أذن الملك : أيها الملك الذي وضع خلق حكمته في أذن الزمان ، إنك ترفع من تعجب بهم من رعاياك إلى أسمى المراتب ، فأى شيء رأيت فينا فأعجبت به فرفعتنا إلى هذا المقام ؟



فتفتحت أسارير الملك كما تتفتق عن أكمامها الورود وضحك في وجه الدرويش وقال :

لست أنا الملك الذي يشيح بوجهه عن المساكين عتواً وغروراً ، فانزع عن نفسك

ما تملكها من غل علىّ فلا تؤذني يوم القيامة ، عندما نقف أمام ربك ذي الجلال ؛
إني قد فتحت باب الصلح لك اليوم ، فلا تغلقن بابك في وجهي غداً .



هذا هو الطريق السوي لمن يرغب السعادة من الملوك ، أن يأخذ بيد
الديراويش . إن الملك لا يمكن أن يجني ثمرة من شجرة « طوبى » (١) ما لم
يكن قد زرع بيديه ما يريد أن يحصل عليه من ثمار .

إذا لم تكن لك على الخير إرادة فلا تبحثن عن السعادة ، فإنك « بصولجان
العبادة تستطيع أن تحمل كرة السعادة » .

متى تضيء كالمصباح ؟ فإنك من الآنانية أصبحت كالقنديل مع الماء .
إن الرجل الذي يشع بنوره على الجماعة يظل نوره مضيئاً في صدره كالشمعة .

بستان

٦٤

رقيق في السوق

كاد قلبي يتفطر يوم مررت بالسوق فسمعت عبداً يقول لسيده وهو يبيعه :
واحسرتاه ، إنك واجد عبداً خيراً مني ، ولكني لن أجد مثلك سيدياً .

(بستان)

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٣٠/١٣)

الملاككم اليأس

كان ملاكم قوى البنية شديد الضربات ، ولكنه مع قوته كان عاثر الحظ ، ضيق الرزق ، لا يكاد يجد قوت يومه ، فهو في الصباح يبحث عن كسرة تسد رمقه ، وفي المساء يبیت على الطوى .

وكان نهما ولم يكن يستطيع أن يقهر معدته على القناعة بالقليل ، فأخذ يحمل الأثقال فوق ظهره ، ليحصل على قوته ، بعد أن يئس عن الحصول عليه بقوة ذراعيه . وعلاه الهم ، وضائق في وجهه الدنيا ، فقلبه حزين وجسمه مضنى ؛ كان يقضى وقته يفكر في سوء حاله ، حيناً يستسلم إلى الهم والغم من الدنيا وقد أناخت بكلها عليه ؛ وأحياناً يضيق صدره حين يرى الناس في خفض من العيش وهو محروم ، فيحس الماء مرأ في حلقه ؛ وأحياناً أخرى يبكي مما يلقي من المشقة والجهد في حياته متسائلاً أرأى رجل شراً مما أرى ؟ إنى أرى أناساً يشربون الشهد ، ويأكلون أشهى أصناف الطعام ، بينما أنا لا يرى رغيفي أرخص أنواع الخضروات .

وإذا كنت منصفاً ، فليس من الإنصاف أن أكون عارياً ، وعلى القطة كساء من الجلد . وا أسفاه ، ليت السماء تلقى إلى بكثر من عندها ، إذا لنفضت الغبار من على جسدى وروحي ولا نغمست في النعيم .



سمعت أن هذا الملاكم الشاكي كان يحفر في الأرض ذات يوم، فرأى ذقن رجل ميت، وقد تكسرت منها عظام الفك، وتناثرت منها الأسنان اللؤلؤية. فلما رآها سمع صوتاً من هذا الفم الآخرس يقول:

لا تضق بالفقر صدراً يا سيدي. فهكذا ترى حال الفم تحت التراب، 'سكراً أكل أو حسرة في الفؤاد. فلا يحزنك دور الفك، فإن دهوراً تنقضي على غير رغباتنا.

فلما سمع الرجل هذا القول ثاب إلى رشده واطرح الغم:

أيته النفس التي لا رأي لها ولا حكمة فيها ولا تدبير، تخلصي من همومك ولا تقتلي نفسك؛ يستوى من حمل أثقال الهموم فوق رأسه، ومن رفع رأسه مزهوا نحو السماء. هما سواء عندما تحين الساعة التي لا مفر منها، فتتغير الأحوال، ولا ترين تفاوتاً بين من أثقلته الهموم ومن كان غارقاً في اللهو واللذات.

إن الغم والسرور لا يدومان، إنما الدوام جزاء العمل الصالح وللذكر الطيب. إن الكرم يبقى، فانفق مما رزقت حلالاً، ولا تتكل على الملك والجاه والعظمة، فهذه كلها أحوال كانت من قبلك، وستكون من بعدك؛ فانثر الذهب فإن الدنيا فانية لا تدوم؛ إن سعدى ينثر درر القول لأنه لا يملك ذهباً.

خصومة

تساحن رجلان ، وامتلاً قلبهما حقداً وبغضاً ، وأضر كل منهما لصاحبه
السوء ، وكانا ، إذا تقابلا ، رفع كل منهما رأسه على أخيه ، كأنهما نمران .
وكانا يتحاشيان المواجهة ، حتى أن باب السماء أقفل في وجهيهما . وراح كل
منهما لا يألو جهداً في قذف صاحبه والتشنيع عليه بالحق وبالباطل ، وأخذ
الناس يتناقلون حديث خصومتهم في ملال منهما وسخط عليهما جميعاً .
وأدرك الموت أحدهما فقضى نحبه ، واتقضت أيامه . وعرف خصمه ذلك
فسره ما عرف ، وأخذ يفكر في صاحبه الذي جندله الموت ، وفكر في أن
يراه ميتاً ، شامةً . وراح إلى القبر فوجده مغلقاً على الرجل الذي عاش في قصر
طلاؤه من الذهب . راح إلى القبر ولم يبك ، سره أن عاش بعد عدوه .
فتح الرجل باب القبر ، فرأى تاج رأس الميت في حفرة من طين ، ورأى
عينيه وقد ملئت بالتراب ، ورأى الحشرات والنمل تسرح على جسمه الذي قر
في القبر سجيناً . ورأى وجهه الذي كان كالبلدر صيره دوران الفلك كالهلال ،
وأما قدمه السروى فقد أصبح كالخلال . وتفككت راحة يده وتناثرت
أصابعه .

* * *

لم يكد الرجل يرى خصمه ، وقد أجرى الموت حكمه فيه ، فأصاره
هشياً وتركه فريسة لهوام الأرض ، حتى رق قلبه ، وامتلاً أسفاً على ما كان
بينهما ، ففاض دمه حتى ابتل تراب القبر وأصبح طيناً . ندم الرجل على
الضعينة التي كان يحملها لخصمه بين جنبيه ، وأمر بأن يُكتب فوق صخرة القبر :
لا يسرنك موت أحد ، فإن الدهر لن يمهلك بعده طويلاً .

* * *

وسمع رجل من عباد الله الصالحين هذه القصة فبكى وقال :
اللهم يا قادر ، عجيب إذا كنت لم ترحمه ، فقد أتى عدوه اللدود حزيناً
باكياً عليه ،

إن جسدى سيوسد يوماً الثرى وسيبكي عليه أعدائي ، ولا شك أن قلب
صديقى سيق لي ، حين يرى عدوى يبكينى وقد عفا عني .
إن عاجلاً أو آجلاً يأتى يوم تكون رؤوسنا ولا عيون فيها .

* * *

ضربت مرة بالنفأس في تل من التراب فارتفع صوت مؤثر إلى
سمعى يقول :

ترفق إذا كنت رجلاً ، فهنا عيون وآذان ووجوه ورؤوس .
ترى هل يسمعان ؟

الثعلب والملتواكل

رأى رجل ثعلباً مقعداً ، من غير يد ولا رجل ، فتعجب من لطف صنع الله ، إذ كيف يعيش هذا الحيوان ومن أين له الأكل . وهو عاجز لا يقوى على السعى لرزقه . وبينما كان الدرويش حائراً في هذا ، إذا بأسد يدخل حيث الثعلب قاعد ، وفي مخلبه ابن آوى ، فأكل الأسد من فريسته التعسة وبقي منه ما يكفي الثعلب حتى يشبع .

وراقب الرجل الثعلب فوجد الأسد يرعاه في اليوم التالي ، وهكذا الرزاق بعث بقوته إليه . فتيقن الرجل أن الله يرزق عباده ، فأنصرف وتواكل على ربه . قال : سأذهب إلى ركن فأقعد فيه ، كالتملة ، فإن الفيلة لا يأتيها رزقها بالقوة . وجلس محنياً رأسه مخفياً إياها في جيبه ، منتظراً الرزاق يبعث إليه قوته من الغيب . وظل الدرويش حتى برح به الجوع ، فلم يسع إلى إطعامه أجنبي أو صديق ، فخارت قواه ونحل جسمه ، وأصبح كالرابة ، عصب وعظم وجلد . فلما نفذ صبره وعقله من شدة الضعف سمع صوتاً يقول له من خلف الجدار : أخرج أيها الوغل وكن أسداً مفترساً ، ولا تحسبن نفسك كالثعلب الأشل ؛ واسع حتى تأكل وتشبع ويفيض منك كما يفيض من الأسد ؛ لماذا تكون كالثعلب المقعد تشبعك الفضلات ؟

إن من له رقبة غليظة كالأسد ، الكلب خير منه إذا تواكل وارتقى
 كالثعلب المقعد . إسع إلى رزقك بيديك ، وعش سعيداً مع الآخرين ، ولا
 تجلس منتظراً ما يجود عليك به الناس . وكل ما استطعت من جهد ذراعيك ،
 فإن جهدك لك . كن كالرجال ، يتعبون أنفسهم ويريحون غيرهم ، فإن الخنث
 هو الذى يأكل تعب أيدي الآخرين .

خذ أيها الشاب ، بيد الشيوخ من الفقراء ، ولا تلق بنفسك هكذا
 وتستعن بالناس . إن الله يرضى عن عبده الذى يسعد الناس من وجوده بينهم ،
 وإن الخئير العاقل هو الذى يجود بماله ، أما أدنياء الهمة فلا عقول لهم .
 إن الخئير الذى يحسن إلى الناس هو الذى يسعد فى الدنيا ويهنأ بالآخرة .

(بستان)

٦٨

نصيحة

شكى أحد المريدين إلى شيخه مضايقة الناس له وكثرة ترذدهم عليه ، مما
 يضيع عليه وقته الغالى ، فقال له الشيخ :
 أقرض فقيرهم واستعن غنيهم ، ينفضوا جميعاً من حولك ، ولا ترى
 فى بيتك منهم أحداً ، ويطيب لك الزمان .

(كاستان)

الوقیعة

اختار الملك أفريدون وزيراً من بين أعوانه ، وقد اختصه بحبه ، وآثره بعطفه ، وأولاه ثقته ، فكان يركن إليه في كثير من شئون الدولة ، كما ترك إليه تصريف كثير منها . وكان هذا الوزير رقيق الحاشية ، بصير القلب ، بعيد النظر ؛ وقد جهد حياته كلها في إرضاء ربه وخدمة ملكه ، فكان يقوم بواجباته الدينية خير قيام ، ثم يقضى بقية وقته مكباً على عمله بالنهار ، ساهراً على أدائه بالليل ، عاملاً دائماً على أن يكون أهلاً لثقة ملكه فيه .

* * *

ولكن الوزير الطيب لم يسلم من لسان السوء خبيث يسعى ضده عند الملك ، فقد ذهب رجل إلى الملك ذات صباح وقال له :
مولای : لاتحسن نصحی لك عن غرض فی نفسی ، فإنی ماأردت غیر النصح خالصاً لوجه الله ، إن وزیرك الذی تثق به وتنزله من نفسك مكاناً علیاً ، هو عدو لك مبين ؛ فإنه دائن لجميع أهل المدينة ، جنداً ومدنین ، وقد اشترط على مدينيه أن يوفوا ديونهم حينما يموت الملك العظيم ، فهو لا يريد

لك طول الحياة ، مخافة أن لا تحل ديونه ؛ أبقاك الله وحفظك يا مولاي من أهل السوء .



فلما سمع الملك حديث الرجل آلمه أن يخدع في الوزير بعد طول ثقته به ، واعتماده عليه ، وحبه له ، فناداه يوماً ونظر إليه نظرة المغيظ المتوعد ، فأدرك الوزير أن قلب الملك قد تغير ، وأن ساعياً بالشر قد سعى بينهما ، فألقى إليه الملك أذنًا صاغية ؛ ثم لم يلبث الملك أن قال له : إنك تظهر لي المودة ، وتضمر السوء .

وهنا أيقن الوزير أن أمر إقراضه الناس ماله هو الذي بلغ الملك فرأى أن التصريح بالحق أجدى من الكتمان ، فقبل الأرض والتخت . ثم قال : « إنك تسألني يا مولاي وسأقول الحق ، شأنى معك فى عملى ، حتى تنجلي الغمة ويذهب عن نفسك ما ظننت بى من سوء . إني أردت أن يصفو لك حب رعاياك جميعاً ، وأن يتمنوا لك السعادة وامتداد الأجل ، فأني حين جعلت من موتك موعداً لوفاء ديونهم ، كنت أدرك أنهم سوف يدعون لك بطول البقاء ودوام الهناء . أفلا تريد يا مولاي أن يدعوك الناس صادقين مخلصين بأن تحيا حياة طويلة هنيئة ؛ إن الناس يعتقدون إن دعاء أهل الخير درع يتقون بهم سهام البلاء ، فلتكن أصواتهم الصاعدة إلى السماء بطول أجلك ، ودوام سعدك ، مستجابة عند ربك » .

فلما سمع الملك كلام وزيره ، سره حسن قصده ورضى بعبد الغضب وعادت إليه ابتسامته وتفتحت أسارير وجهه كالوردة النضرة ، إشراقاً ونوراً .

* * *

إني لم أر شراً من غماز نكد الطالع ، عاثر الحظ ؛ إنه يلتقي العداوة
والبغضاء بين صديقين ، بجهله وضلاله ، ولا يدرك بعقله الضيق أنه إذ يلتقي
النار بين رجلين فإنه سيحترق في وسطهما .

إذا كنت ، كسعدى ، قد تذوقت لذة الخلوة ، وكففت لسانك عن
التحدث في أمور الدنيا والآخرة ، فقل ما تعلم من النصيح المفيد ، ولو لم
يعجب أحداً ، فإن من لم يستمع إليك سيصيح غداً وهو نادم :
ليتني استمعت إلى صوت الحق .

(بستان)

891.553:K45hA:c.2

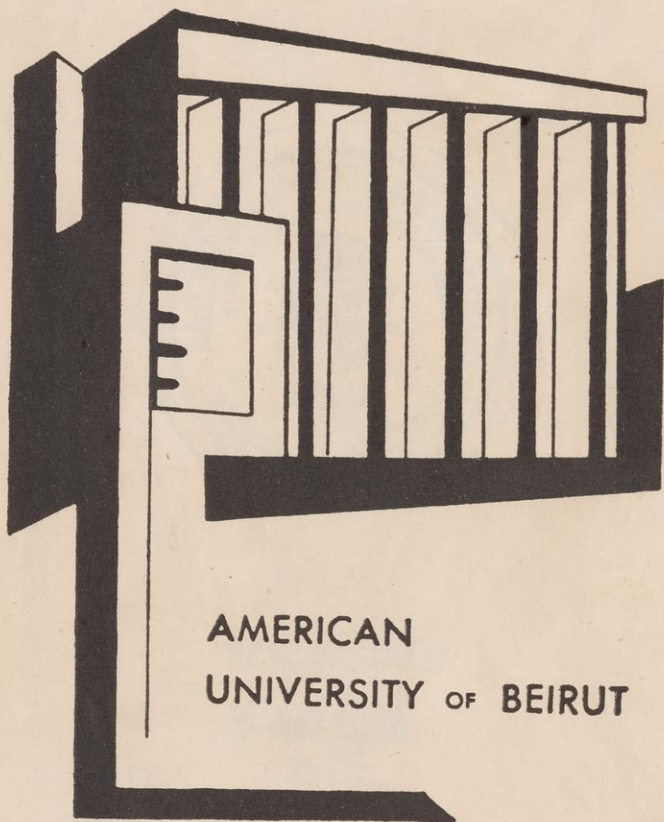
الخشب، يحيى

حكايات فارسية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036426



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

